حسن الأمين

صلاح الدين الأيوبي
بين العباسيين والفاطميين والصليبيين

دار الجديد

تنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. □ صندوق بريد، ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان □ نضّد النصوص، سلوى خليل، سناء وحنان سلامي □ ضبطها على أصولها، محمود عساف □ انشاها كتاباً، علي حمدان □ الف الغلاف، عمر حرقوص.

تقديم

إذا كنا اعتمدنا لهذا الكتاب عنواناً هو **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين**، فقد كان لا بد لنا من التعريف، بعض التعريف، بالفاطميين أولاً وبالحركة الصليبية ثانياً.

نقول بعض التعريف لأن التعريف الكامل بالدولة الفاطمية ومآتيها يقتضيه المطولات من الكتب، وذلك ما لسنا مهيئين له الآن.

وكذلك القول عن الحركة الصليبية التي تحتاج إلى دراسات واسعة، ابتداءً من ظهورها وانتهاءً بانطوائها.

على أننا لم نقصد في الأصل كتابة بحوث مستقلة عن صلاح الدين، وإنما جمعنا ما كنا قد نشرناه مقالات متفرقة في الجرائد إما عرضاً لبعض أحداثه، أو رداً على دعاوى مناصريه، لذلك قد يتكرر ذكر الأمر الواحد أكثر من مرة بحسب ما يقتضيه العرض أو الرد. ثم أضفنا إلى تلك المقالات بحوثاً كان لا بد منها.

وإذا رأى القارىء في ما نقدمه إليه في الصفحات شيئاً غير مألوف لما في ذهنه عن صلاح الدين، فهو لن يرى إلا حقائق مدعومة بالنصوص التاريخية المدونة في أمهات كتب التاريخ. وفي نصوص لم يستطع كل الذين ردوا علينا أن ينقضوا منها شيئاً، وكل ما فعلوه أن راحوا يجترّون تعابير طال اجترارها، وأن يلجأوا إلى التهويش والتهويل والشتائم.

ونحن في كل ما كتبناه في هذا الموضوع لم نبغِ إلا وجه الحق كشفاً عن الحقائق في تاريخنا، تلك الحقائق التي عمل على طمسها المبطلون.

ونظراً لارتباط تاريخ السلاجقة بتاريخ الأحداث التي هي موضوع كتابنا كان لا بد من الإلمام بتاريخهم بعض الإلمام وهو ما يراه القارىء طي الكتاب.

حسن الأمين

بيروت

١٨ شوال ١٤١٤ ـ ٣٠ آذار ١٩٩٤

الفاطميّون: الدّعوة والدّولة

أبو عبد الله

الحسين بن أحمد بن محمد، المعروف بأبي عبد اللّه الشيعي وأبي عبد اللّه المحتسب، لأنه كان ـ على ما قيل ـ محتسباً في البصرة، وبأبي عبد اللّه الصنعاني لأنه ولد بصنعاء.

هو المُمهِّد لقيام الدولة الفاطمية ومُوَطِّد أركانها في شمالي أفريقيا؛ كان مولده في صنعاء وتنقل في أكثر من بلد حتى كان في اليمن وهناك اتصل بالداعي الفاطمي المعروف بابن حوشب والملقب بمنصور اليمن، فقرر ابن حوشب إرساله إلى المغرب. وكان قد سبقه قبل ذلك كل من الداعيين الحلواني وأبي سفيان حيث مهدا أمر الدعوة، ثم ماتا قبل أن يقوم للدعوة نظام حكم وقبل أن تنجح نجاحها المطلوب، لذلك رأينا ابن حوشب بعد موت أبي سفيان والحلواني يُعِدّ أبا عبد اللّه للذهاب إلى أفريقيا ويوصيه قائلاً: «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطّأة مُمهّدة لك».

فانطلق أبو عبد اللّه أول ما انطلق إلى مكة في موسم الحج سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) وهناك عمل على الاتصال بحجاج كتامة ليلم بمقدار تقبّلهم لما يدعو إليه فوجد عندهم استعداداً لذلك. وعندما أراد مفارقة مجلسهم سألوه أن يأذن لهم بزيارته فأجابهم إلى ذلك فأخذوا يترددون عليه. ثم سألوه إلى أين يقصد بعد الحج فلم يجبهم بأنه إنما يقصد بلادهم، بل أجابهم بأنه يريد مصر. ومصر بطبيعة الحال هي طريقهم، فسروا بصحبته ورحلوا جميعاً من مكة، وهو في كل ذلك يخفي عنهم أغراضه. وكان أبو عبد اللّه يتمتع بشخصية قوية وصفات جذابة محببة مما زاد في تعلق الكتاميين به ومحبتهم له، فضلاً عما لمسوا فيه من علم وورع وزهد.

وكان دائم الاستطلاع منهم عن بلادهم والاستخبار عن أوضاعهم، وكان أكثر ما يهمه

هو صلتهم بالحكم وصلة الحكم بهم. وعندما سألهم عن أميرهم، قالوا: ليس له علينا طاعة وبيننا وبينه عشرة أيام.

وفي مصر ودعهم أبو عبد اللّه مظهراً الحزم على البقاء فيها فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته في مصر، فقال: إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم، فقالوا له: «فأما إن كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك».

فأجابهم إلى السير معهم، واستأنفوا السير حتى أصبحوا على مقربة من بلاد كتامة، وقد خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين كانت قد أينعت فيهم التعاليم الفاطمية على يد الدعاة.

ولما وقف القوم على حال أبي عبد اللّه، أحلّوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام، ورغبوا في نزوله عندهم واقترعوا أيهم يضيفه. ولما بلغوا أرض كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣م) تهافت كل منهم على انزاله في بيته، فسألهم: «أين فج الأخيار[١]؟ فدلوه عليه فقصده، وسار إلى جبل ايكجان، فنزل بفج الأخيار، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمالي المغرب الأقصى. وعلى الرغم من مساعدة الكتاميين وغيرهم من القبائل المجاورة، كان مركز أبي عبد اللّه محوطاً بكثير من المصاعب. فقد أثارت مساعدة هؤلاء لدعوته حنق كثير من زعماء المغربة وفقهائهم. على أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه، لما أوتيه من الفصاحة والعلم والذكاء، كما تمكن من القضاء على المؤامرات التي حاكها البربر ليحولوا دون نشر دعوته. فتكاثر الداخلون في طاعته رغبة ورهبة، وتوافرت جموعه، وقوي أمره واستقام له أمر البربر وعامة كتامة».

ولم يدخر إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١ - ٢٨٩هـ) وسعاً في القضاء على دعوة أبي عبد اللّه، فحاول أن يجذبه إليه في أول الأمر، وأرسل إليه رسالة يعده ويتوعده فيها، فلم يجبه أبو عبد اللّه إلى ما طلب، ورد عليه بكتاب يدل على جرأته واستصغار شأن الأغالبة[٢]. ومن ثم أخذ الأغالبة يرسلون حملاتهم لقتاله. وكانت أولى هذه الحملات في سنة ٢٨٧هـ أي قبل وفاة إبراهيم الأغلبي بسنتين وكان النصر فيها حليف أبي عبد اللّه. ولكن إبراهيم الأغلبي عول على مواصلة القتال فأرسل جيشاً آخر لم يلبث أن هزم.

وفي سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) بدأت أعمال أبي عبد اللّه الحربية فوقعت في يده عدة مدن. وساعد على تقدمه في الفتح موت إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٩١هـ ولحاق ابنه أبي العباس به وتولية ولده زيادة اللّه الذي قضى أيامه في اللهو والترف.

(١) في جبل أيكجان في أرض كتامة (على مقربة من مدينة قسنطينة، تعرف بمناعتها. يسكنها قبائل من كتامة).
(٢) وردت هاتان الرسالتان في كتاب نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٢٦.

وغدا جماعة أبي عبد اللّه في ذلك الوقت، (سنة ٢٩١هـ)، أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان. واتبع أبو عبد اللّه سياسة تنطوي على الحكمة وبعد النظر وإقرار العدل بين الناس، كما يتبين من هذه الحكاية التي رواها ابن عذارى، وهي أن أبا عبد اللّه لما استولى على مدينة طبنة، سنة ٢٩٣هـ، أتاه والي هذه المدينة مع بعض عمال الجباية وأعطوه الأموال التي جمعوها من الأهلين، فقال أبو عبد اللّه لأحدهم: من أين جمعت هذا المال؟ فقال: من العشور، فقال أبو عبد اللّه: إنما العشور حبوب وهذا عين، ثم قال لقوم من ثقات ذبنة: إذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما أخذ منه، واعلموا أنهم أمناء على ما يخرج اللّه لهم من أرضهم، وسنة العشور معروفة في أخذه وتفرقته على ما ينصه كتاب اللّه عز وجل، ثم قال لآخر: من أين هذا المال الذي في يدك؟ قال جبيته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم، فقال: وكيف أخذته عيناً وانما كان يأخذ رسول اللّه من الملّي ثمانية وأربعين درهماً ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً؟ فقال له: أخذت العين عن الدراهم بالعرف الذي كان يأخذه عمر رحمه اللّه. فقال أبو عبد اللّه: هذا مال طيب. ثم أمر أحد الدعاة بأن يفرقه على أصحابه. وقال لمن أتاه بمال الخراج: هذا مال لا خير فيه ولا قنى له ولا خراج على المسلمين في أموالهم، ثم أمر ثقات أهل طبنة برده على أهله. وقبض مال الصدقة من الابل والبقر والغنم بعد أن قيل له إنها قبضت منهم الأنعام على الأسنان الواجبة في الصدقات، ثم بيعت وجمعت أثمانها، ورضي بذلك وجوّزه. فلما نظر أهل طبنة إلى فعله سروا به ورجوا أن يستعمل فيهم الكتاب والسنة. وانتشر فعله في نواحي أفريقية، فتاقت أنفسهم إليه وكاتبوه ودخلوا في طاعته.

ومما يدل على حسن سياسة أبي عبد اللّه، هذا الحديث الذي دار بينه وبين أخيه أبي العباس حين أراد أن ينشر مذهبه بين الناس عن طريق العنف والإكراه، فمنعه أبو عبد اللّه. يقول النويري: «ولما وصل أبو العباس، أراد أن ينفي عن القيروان من يخالف مذهبه، فقال أبو عبد اللّه: إن دولتنا دولة حجة وبيان، وليست دولة قهر واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم»[٣].

وأنفذ أبو عبد اللّه الرسل إلى عبد اللّه المهدي الذي كان ينزل في سلمية يدعوه للحضور إلى أفريقية. فأسرع المهدي متوجهاً إلى المغرب، وكان أن تسامع الناس بأمر دعوته، فأصدر الخليفة العباسي المقتفي الأوامر بالقبض عليه. ولم يكد يصل إلى مدينة

(٣) نهاية الأرب، مخطوط بدار الكتب المصرية ج ٢٦ ورقة ٣١.

سجلماسة حاضرة بني مدرار حتى قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار وحبسه.

وأخذ أبو عبد اللّه يواصل فتوحه مذ رحلت رسله إلى عبد اللّه المهدي. وفي سنة ٢٩٥هـ (٩٠٧م) بسط أبو عبد اللّه نفوذه على معظم أرجاء أفريقية. وفي يوم الأحد مستهل رجب سنة ٢٩٦هـ دخل أبو عبد اللّه مدينة رقادة، واستقر في دار الإمارة. وبهذا تكللت أعمال أبي عبد اللّه بالنجاح.

ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء في القيروان فخطبوا، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة. وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية من هذه البلاد.

وظل عبد اللّه المهدي في حبسه بسجلماسة، وأبو عبد اللّه يواصل حروبه وفتوحه. فلما تم له ما أراد من فتح، سار في قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبد اللّه المهدي. وفي اليوم التالي لوصوله، اتصل به نبأ هرب اليسع بن مدرار أمير هذه المدينة ليلاً، وقد حمل معه أقاربه وأمتعته، فأطلق عبد اللّه المهدي وابنه أبا القاسم. وكان إطلاقهما، في ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ، إيذاناً بزوال سلطان بني رستم في تاهرت والأغالبة في تونس، وقامت الدولة الفاطمية في كل شمالي أفريقية الذي خرج عن سلطان العباسيين.

قيام الدولة[٤]

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب **المجالس والمسايرات** للنعمان بن محمد: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز (الفاطمي) بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين وصوّر ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز (الفاطمي) لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل قريطش وبين المعز لدين اللّه نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

ويقول الدكتور محمد كامل حسين:

فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح انظار العلماء ومحط رحال الطلاب وفي العصر

(٤) من المشهور أن اسم أول الخلفاء الفاطميين في المغرب هو عبيد اللّه المهدي. ولكن تبيّن من نقوش الدراهم والدنانير والصنوج والأوزان المحفوظة في متحف القيروان أن اسمه عبد اللّه لا عبيد اللّه.

الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية.

ويقول أيضاً: وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الاخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد.

ويقول أيضاً: وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وقد أوقفوا ارزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهلوا انفسهم له.

ويقول أيضاً: وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم. ويقول أيضاً: ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وفنونها، وتعددت مراكزها في مصر، وكانت حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي اسوان وقوص في الجنوب، كما كان امراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء، وعن مصر الفاطمية أخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب.

ويقول الدكتور مصطفى مشرفة: إنه كان للمالكية في الأزهر الفاطمي خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات. ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحاكم بأمر اللّه بالذات: والحاكم بأمر اللّه لما أمر بعمارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكي وخلع عليهما وقربهما.

هذه الصور المشرقة التي جلاها لنا فريق من الباحثين عن الدولة الفاطمية هي في الحقيقة نقاط من بحر الواقع الذي كانت عليه تلك الدولة، وما بلغته في الميادين النضالية والفكرية والعلمية، وسنحاول هنا عرض ما يسمح به مقال محدود السطور مقيد المكان.

كلمة الدكتور حسن إبراهيم حسن تشير اشارة خاطفة إلى أمور خطيرة في حياة هذه الدولة، منها أنها كانت ضرورة من ضرورات العالم الإسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين، وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم، واصبحوا يتطلعون إلى الحمى الذي يمكن أن يلجأوا إليه من الخطر الداهم المهدد لوجودهم بتزايد قوى الروم واصرارهم على غزو الإسلام في دياره، واسترداد ما أخذه منهم والثأر للماضي البعيد حتى أن نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه الهوجاء في الزحف إلى الحجاز نفسه والوصول إلى مكة والمدينة.

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ منه نشوء دولة فتية وزعامة قوية تجمع حولها ما

تشتت من القوى، وتوحد ما تفرق من البلاد، فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ، فجمعت الشمال الافريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة في وحدة متماسكة جعلته دولة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة.

وليس الشمال الافريقي هيناً حين تتجمع قواه وتتوحد كلمته وليست موارده قليلة حين يقدر لها قيادة حكيمة حازمة.

وهكذا رأينا تلك الدولة الفتية ترتفع من بين الزعازع، وتقوم شديدة لتواجه الخطر الداهم بعد أن أخذت أطراف البلاد الاسلامية تنتقص واحدة بعد الاخرى مما عبّر عنه شاعر ذلك العصر ابن هاني الاندلسي عند قوله في مدح الخليفة الفاطمي المعز:

فمدينة من بعد أخرى تُستبى وطريقة من بعد أخرى تُقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة وتزلزلت أرض العراق تخوفا
والشام قد أودى وأودى أهله إلا قليلاً والحجاز على شفا

وقد كان تعبير هذا الشاعر تعبيراً واضحاً يعطي الصورة الحقيقية للوضع الإسلامي في تلك الأيام.

ويبين بجلاء حالة الدنيا الاسلامية وما كانت فيه، وهو من الشعر الواقعي النادر الذي يرسم الحقيقة الوطنية على أصدق حالتها.

الشام قد أودى إلا قليلاً، والحجاز على شفا، أما بقية الاقطار كديار ربيعة والعراق وغيرها فاذا كانت بعيدة عن الخطر الآن، وهو غير مساور لها مباشرة، فقد كانت راجفة متزلزلة حزناً على ما جرى وخوفاً مما سيأتي، وهذا لعمري من أفضل ما يمكن أن يعبر عنه شعر الأم في مآسيها ونوازلها.

ثم ينطق الشاعر بلسان العالم الإسلامي معبراً عن الأمل العظيم بالدولة الجديدة:

لا تيأسوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفا

ولنقف قليلاً لنرى ما هي حقيقة الحال الذي يصوره الشاعر.

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة: «اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام».

وهكذا نرى أن الوحدة لم تقتصر على الشمال الافريقي وحده بل تعدته إلى بلاد أخرى، تعدته إلى مصر نفسها ثم تعدت مصر إلى فلسطين وسورية ولبنان وكذلك إلى الجزيرة العربية، وحين يلتقي الشمال الافريقي في وحدة مع مصر والشام وغيرهما، وحين تتولى

مصر بكل إمكانياتها وكفاءاتها زمام هذه الوحدة الكبرى يكون الأمر بعثاً إسلامياً شاملاً ووثوباً عربياً كاسحاً، وهكذا أصبحت الدولة الجديدة ذات كيان خطير قضى على الدويلات وجمع الشمل في اطار يشدها لتواجه الأحداث الرهيبة، وكان في أولها حفظ بلاد الشام واسترداد ما تساقط منها في أيدي الروم الذين وصلوا في إحدى نوباتهم في عهد الامبراطور حنا زيمسكس سنة (٩٧٥م) إلى حمص وبعلبك واضطرت دمشق نفسها إلى التسليم ودفع الجزية لهم ثم ساروا فاستولوا على بعض مدن الساحل مثل صيدا وبيروت.

فالشام قد أودى إلا قليلاً، كما قال الشاعر.

وظل الروم يتقدمون وظلت الاستعدادت الفاطمية تتوالى لإنقاذ طرابلس الشام براً وبحراً فأوقعت الهزيمة بهم فارتدت قواهم إلى انطاكية.

وقد كان للاسطول الفاطمي الشأن العظيم في دفع عادية الروم ثم الصليبيين، ولقد كان الفاطميون بعيدي النظر حين أدركوا أن الجيوش البرية وحدها لا تكفي لحماية العالم الاسلامي وانقاذ الوطن العربي فأنشأوا اسطولاً ضخماً حمى البلاد من الهجمات البيزنطية ثم دافع عنها بعد ذلك في الحروب الصليبية.

وفي هذا الاسطول يقول بعض المؤرخين: «بلغ عدد ربابنة اسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري، (العاشر الميلادي)، خمسة آلاف ربان وعدد سفنه مائتي سفينة واضطر الافرنج إلى الانحياز بمراكبهم إلى الجانب الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا يبرحونه لأن هذا البحر يسيطر عليه الاسطول الفاطمي من مضيق جبل طارق حتى بيروت».

ولقد كان من أفجع ما عاناه الفاطميون أن غيرهم كان يستعين عليهم بالأجنبي الفاتح. فبينما كانوا يناضلون لحماية البلاد وردّ الافرنج والروم عنها كان حكام الاندلس يحرضون عليهم الروم ويستعينون عليهم بهم، وكان أمير حلب يستنجد بباسيل الثاني امبراطور الروم سنة ٣٨١هـ، ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على نهر العاصي فتهزمهم، وكذلك يثير عليهم علّاقة ثورة في صور ثم تكون فاتحة أعماله الاستنجاد بالروم وبالامبراطور باسيل الثاني، ولكن الحركة تنتهي بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علّاقة.

والأمير حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستمدهم على أهله هو الآخر.

بل إن فقيهاً من الفقهاء وحافظاً من الحفاظ يبدو أنه من الرملة نفسها هو الحافظ محمد

ابن أحمد بن سهل الرملي(*) يقول: «لو كان معي عشرة اسهم لرميت الروم بسهم ورميت المغاربة[٦] بتسعة» وقد عمل أميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى بأن ألقى سهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يُلْقِ ولو بسهم واحد على الروم، بل أضاف سهامه إلى سهامهم فسلطوها مجتمعة على (أفامية) فغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها وأسروا كثيراً من أهلها.

وفي مقابل ذلك نأخذ ما ورد في مجلة **الرسالة المصرية** لصاحبها أحمد حسن الزيات في العدد ١١٤، ص ١٤٤٧ من السنة الثانية في بحث عن القاضي القضاعي:

«وقع الغلاء والقحط في عهد الخليفة المستنصر. ثم وقع الوباء سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٣م) وعانت مصر محناً وآلاماً مروعة. وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر الإسلامية بالشدة العظمى، وقد بدأت بالغلاء وندرة الاقوات.

وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة فأرسل المستنصر إلى امبراطور القسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن. وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين اشرفوا على حدودها الشرقية فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر وأعدت الغلال لترسل إلى مصر. وتقدرها الدولة الإسلامية بـ ٤٠٠ ألف أردب (**خطط المقريزي**، طبعة بولاق، جزء ١) ولكن قسطنطين توفي قبل تنفيذ الاتفاق وخلفته على العرش الامبراطورة تيودورا واشترطت لإرسال المؤن شروطاً اباها المستنصر. ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة فانقطعت المفاوضات بين الفريقين وسيّر المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادىء ذي بدء ولكن الاسطول البيزنطي غزا مياه الشام وهزم المصريين في عدة مواقع فكف المستنصر عن متابعة الحرب».

وقد كان الفاطميون مضطرين لأن يحاربوا على ثلاث جبهات هي: الجبهة الشرقية جبهة بلاد الشام لدفع الروم عنها، والجبهة الداخلية ليتقوا دسائس بني جنسهم، والجبهة الغربية جبهة أوروبا التي كانت قد استغلت ضعف القوى الإسلامية وتمزقها إلى دويلات فأخذت تهاجم البلاد بلداً بعد بلد فراحت هذه البلاد تستنجد بالفاطميين كما فعلت جزيرة كريت.

وكانت أوروبا تُحاول ضرب الدولة الجديدة قبل أن يشتد ساعدها ويعلو امرها فهاجمتها

(*) إستيه بعض المؤرخين باسم آخر.
(٦) أي الفاطميين.

في مواقعها الاوروبية لتقضي عليها فيها، ولكن الفاطميين صمدوا لأوروبا في بلادها كما صمدوا لها في بلاد الشام وغير بلاد الشام. ويحدثنا ابن الاثير عن واحدة من المعارك الرهيبة التي خاضها الفاطميون في سبيل صون الوطن الإسلامي سنة ٣٥٤هـ وذلك قبل امتداد دولتهم إلى مصر. ولما كانت هذه المعركة من أروع الصفحات في تاريخنا العسكري فاننا ننقل وصفها بنصه من ابن الاثير:

«... ذلك أن أحمد بن الحسن والي المعز على صقلية أرسل إليه يستمده فبعث إليه المعز المدد بالعساكر والاموال مع أبيه الحسن وجاء مدد الروم فنزلوا عبر سهل مسّيني وزحفوا إلى رمطة ومقدم الجيش الفاطمي الحسن بن عمار وابن أخي الحسن بن علي. فأحاط الروم بهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى. ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فل الروم من صقلية وجزيرة ريو في الاساطيل ناجين بأنفسهم فاتبعهم الأمير أحمد وأصحابه في الماء واحرقوا كثيراً من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد».

وكما كانت هذه الواقعة صفحة رائعة في تاريخنا الحربي ونضالنا في البر والبحر، فكذلك كانت في تاريخنا الادبي حيث خلّدها الشاعر محمد بن هاني الاندلسي بقصيدة فريدة يُخاطب بها الخليفة الفاطمي المعز لدين اللّه، تعد من اسمى ما في تراثنا الشعري من روائع الكفاح البطولي. يقول ابن هاني في مطلعها:

يوم عريض في الفخار طويل ... لا تنقضي غرر له وحجول

وكانت لهذه المعركة نتائجها الحاسمة لا على الجبهة الغربية وحدها بل حتى على الجبهة الشرقية نفسها وإلى ذلك يشير الشاعر:

مسحتْ ثغور الشام أدمعها به ... ولقد تبلّ الترب وهي همول

وتبدو حماسة العالم الإسلامي لنتائج هذه المعركة واعتزازه بها واطمئنانه بعدها مصوراً بقلم الشاعر نفسه:

وجلا ظلام الدين والدنيا به ... ملك لما قال الكرام فعول
مُتكشف عن عزمةٍ علوية ... للكفر منها رنة وعويل
فلو أن سفناً لم تحمل جيشه ... حملت عزائمه صبا وقبول
يجلو البشير ضياء بشر خليفة ... ماء الهدى في صفحتيه يجول

لـلّـه عـينا مـن رأى أخـبـاتـه لـمـا اتـاه بـريـدهـا الاجـفـيـل
وسجوده حتى التقى عفر الثرى وجـبـيـنه والـنـظـم والاكـلـيـل
لـو أبـصـرتـك الـروم يـومـئـذ درت أن الالـه بـمـا تـشـاء كـفـيـل
إن الـتـي رام الـدّمـسـتـق حـربـهـا لـلّـه فـيـهـا صـارم مـسـلـول
نامت ملوك في الحشايا وانثنت كـسـلـى وطـرفـك بـالـسـهـاد كـحـيـل
تـلـهـيـك صـلـصـلـة الـعـوالـي كـلـمـا ألـهـت أولـئـك قـيـنـة وشـمـول

الحياة العلميّة والفكريّة

وفيما قاله الدكتور محمد كامل حسين يتضح لنا الجانب الآخر من الصورة الفاطمية. فاذا كان الفاطميون قد اقاموا الوحدة بعد التجزئة وانشأوا الجيش الضخم والأسطول الفخم فحموا بذلك العالم الإسلامي من أكبر كارثة كانت ستحل به، فانهم إلى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الاولى لحكمهم خطة هي أن يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة، وخططوا، كما نقول اليوم، لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على انشاء جامعة كبرى ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده فلا يشغلهم شاغل العيش عن الانصراف إلى العلم ولا يلهيهم الفقر عن التوسع في البحث والدرس فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم، ثم ارسلوا يستدعون العلماء من الخارج. وقد اشتد هذا المنهج واتسع وقوي بعد اقامة الوحدة بضم البلاد الاخرى إلى مصر وانشاء القاهرة واقامة الازهر وقد تم ذلك على الشكل الآتي:

١ ـ خصّصوا لكل مذهب من المذاهب الإسلامية في جامعتهم الكبرى، الأزهر، كرسياً لتدريس ذلك المذهب. وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد القريبة منها، وقد عرفنا من عدد الحلقات التي كان ينضم إليها الطلاب مقدار انتشار كل مذهب من تلك المذاهب؛ وعندما يكون عدد حلقات المالكية خمس عشرة حلقة ومثلها عدد حلقات الشافعية، وعندما تكون الحلقات الحنفية لا تتجاوز الثلاث، وعندما نفتقد الحلقات الحنبلية فمعنى ذلك أنه كان للمذهبين المالكي والشافعي الأغلبية يليهما بفارق كبير المذهب الحنفي، وأن المذهب الحنبلي لم يكن له وجود.

٢ ـ كان العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي يعانون محنة الفقر وكانت حياتهم مأساة مفجعة فأرسل الفاطميون يستدعونهم إليهم ويضمنون لهم العيش الكريم. وكأمثلة لما كان يجري نورد أسماء محدودة من كل عصر إذ يضيق المجال عند ذكر الجميع، والذي يدعو إلى الإعجاب بالفاطميين أن جميع العلماء الذين استدعوهم أو وفدوا

إليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين.

فمن تلك الاسماء اسم عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة الذي وفد إلى مصر فأقام فيها أربعين سنة يلقي تعاليم مذهبه. ومنها اسم القاضي أبو الفضل محمد البغدادي إمام الشافعية الذي وفد هو الآخر إلى مصر وأخذ يملي من مذهبه ما شاء اللّه أن يملي حتى مات سنة ٤٤١هـ.

وكذلك أبو الفتح سلطان بن إبراهيم الفلسطيني (٥١٨هـ) وأبو الحجاج يوسف الميروقي (٥٢٣هـ) ومجلي بن جميع المخزومي (٥٥٠هـ) والقاضي علي الموصلي الخلعي (٤٤٨هـ) وأبو محمد عبد اللّه السعدي (٥٦١هـ) وهؤلاء كانوا ممن ولي القضاء للفاطميين على أنهم شافعيو المذهب.

ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعّال الذي كانت إليه الرحلة في مصر. وكانت حلقته في الأزهر تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه.

وهناك قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي أحد الأئمة المجتهدين في المذهب، والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم يرَ في المالكية أفقه منه. لقد ضاقت به دنيا العرب والإسلام فكاد يموت من الجوع في بغداد فلم يجد إلّا مصر الفاطمية يحتمي بها فلما جاءها تدفق عليه المال وأمروه بالانصراف إلى علمه وبحثه ولكن الأمر لم يطل به فأصيب بالفالج فقال: «لا إله إلّا اللّه، عندما عشنا متنا (٤٢٢هـ) وعبد الجليل مخلوف الصقلي (٥٤٩هـ) وأبو بكر الطرطوشي (٥٢٥هـ) وغيرهم العديد الوافر.

وقال القلقشندي في **صبح الاعشى**، ج٣ ص٥٢٤، عن الفاطميين:

«كان من سيرهم في رعيتهم استمالة قلوب مخالفيهم، وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويُمَكّنونهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ولا يمنعون من اقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مُخالفة معتقدهم في ذلك».

وقد حرصنا على أن نختار واحداً فقط من كل فترة تاريخية لنبين أن الأمر قد استمر ولم ينقطع.

ومن أشهر العلماء الذين لجأوا إلى مصر في عهد الحاكم بأمر اللّه أبو الفضل جعفر وكان مكفوفاً فأعجب به الحاكم وخلع عليه ولقبه عالم العلماء.

على أننا ونحن نشير إلى بعض العلماء الذين احتضنتهم مصر الفاطمية فإن أشهر واحد منهم هو ابن الهيثم استدعاه الحاكم بأمر اللّه وخرج لاستقباله بنفسه.

وكان الحاكم يأمر بإحضار جماعة من المتخصصين في كل علم، بعضهم من أهل الحساب والمنطق، وبعضهم الفقهاء والأطباء للمذاكرة بين يديه، فكانت تحضر كل طائفة على انفراد ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم.

ومن أبلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابن أبي أصيبعة: «إنه لما وصل المهذب ـ وكان فاضلاً في صناعة الطب ـ إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وانعام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما أرباب العلم والفضل، فتوجه إلى مصر فوهبت له الاموال وأقام فيها مكرماً».

لقد تفرد الفاطميون بإنشاء دور الكتب الكبرى في الإسلام وبلغت تلك الدور حداً عجيباً واجتمع فيها ما يثير اليوم دهشتنا. ويكفي أن مكتبة القصر وحدها مثلاً كانت تضم ستمائة ألف وألف كتاب، (٦٠١٠٠٠)، ولتسهيل المطالعة على المراجعين كانوا يقتنون من أُمهات الكتب الكبرى التي تكثر حاجة الناس إليها كانوا يقتنون منها عشرات النسخ، فقد كان يوجد من **تاريخ الطبري** وحده ألف ومائتا نسخة منها نسخة بخط ابن جرير نفسه، ومن كتاب **العين** نيف وثلاثون نسخة منها نسخة بخط الخليل إلى غير ذلك من هذا وأشباهه.

وقد توسّع الحاكم بأمر اللّه بشأن دور الكتب العامة وحرص على تسهيل وصول جميع طبقات الشعب إليها، فقد قال المسبحي، وهو يتحدث عن مكتبات القصر، إن بعضها كان في خزائن القصر البرانية. ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه الخزائن (البرانية) هي التي أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ وسماها دار العلم وحمل إليها من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله قط مجتمعاً لأحد من الملوك وقد أباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم.

وننشر فيما يلي ملخصاً لبحث الدكتور محمد كامل حسين:

«ومن مآثر الفاطميين التي لا يزال المسلمون يستفيدون منها حتى اليوم جامعة الأزهر وقد شرع القائد الفاطمي جوهر في بناء الأزهر بأمر المعز عندما شرع في بناء مدينة القاهرة يوم السبت لستٍّ بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ وتم بناؤه في التاسع من رمضان سنة ٣٦٣هـ ثم جدد فيه العزيز باللّه والحاكم بأمر اللّه ثم جدده المستنصر باللّه والحافظ لدين اللّه. وكان هذا المسجد محل رعاية الخلفاء الفاطميين وعنايتهم فلم يقصروا في تجديده والزيادة فيه ووقفوا لمؤذنيه وخدمة وسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو مذكور في كتب التاريخ. والذي يهمنا الآن أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتحلق في

هذا المسجد واتخذوا منه جامعة علمية تعد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ. وفيه كان داعي الدعاة يعقد مجلساً للنساء يلقي عليهن من علوم أهل البيت»[٧].

ويقول القلقشندي إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق وبنى لهم داراً بجانب الجامع الأزهر[٨].

وقد ورد أنه سنة ٣٨٣هـ رُتِّبَ رجل جعفري للجلوس في الأزهر للفتوى على مذهب أهل البيت فشغب عليه الفقهاء من أهل الجامع (من غير الشيعة) فبلغ ذلك القاضي فقبض على بعضهم، فمن هذا النص نستطيع أن نتبين أنه كان بالجامع فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية وانهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم وعقيدتهم، فلما جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الجعفري شغبوا عليه فاضطر القاضي إلى أن يقبض على بعضهم. لقد شغبوا عليه ولم يتسامحوا معه مثلما تسامحت الدولة معهم.

أضف إلى ذلك أن مصر عرفت في العصر الفاطمي عدداً من فقهاء الشافعية والمالكية، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد بن بندار أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة[٩] يلقي تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين.

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا أن عدداً كبيراً من علماء مذاهب السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية.

وأنشأ الفاطميون ما عرف باسم المحول وهو أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث، وكان يؤم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس[١٠]. ولم يكتف الخُلفاء الفاطميون بأن يكون المحول جزءاً من قصرهم بل نراهم يهتمون اهتماماً خاصاً بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين؛ فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم في ذلك الوقت. ويقول المقريزي نقلاً عن ابن علي بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر: «ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا». ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار

(٧) الخطط للمقريزي.
(٨) الكندي.
(٩) النجوم الزاهرة.
(١٠) المجالس والمسايرات.

كتب أعظم من التي كانت في القاهرة بالقصر، ومن عجائبها أنّه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك، ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب[١١] ويقول المقريزي: ومما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد. ويُروى عن المسبحي أن عدد الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر وبعضها في خزائن القصر البرانية. وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم. ويقال إن العزيز باللّه ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خُزّان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفاً وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه. وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز خازنه فأُخرج له من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير... الخ[١٢]. ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللمحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم، وذلك تشجيعاً للعلم والعلماء. ولا غرو في ذلك فان مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل والاستزادة من جميع العلوم والآداب.

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون أصابها ما أصاب الفاطميين انفسهم.

وبعد أن يصف الدكتور محمد كامل حسين بدء النكبات، وكيف أن جلود هذه الكتب أخذها العبيد والإماء برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم وأُحرق ورقها، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصارت تلالا باقية تعرف بتلال الكتب[١٣]. وينتهي الدكتور إلى القول: أبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين، وكذلك ضاعت كنوز الفاطميين بيد التعصب الممقوت[١٤].

(١١) المقريزي، سبق الاستشهاد، ج ٢، ص ٢٥٥.
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) يقول الدكتور محمد الرميحي في مجلة العربي (العدد ٤٢٦ - أيار/ مايو ١٩٩٤ ص ٢٢): «كان اندفاع الفاطميين في مصر نحو عشق الكتاب غريباً... إلى أن يقول: وقد أنشأ خليفتهم العزيز باللّه في عام ٩٧٥م أوّل مكتبة شهيرة داخل قصره، وكانت من الضخامة بحيث إنها ضمّت ٦٠٠ ألف كتاب مخطوط مقسّمة إلى أربعين قسماً. ثم ما لبثت أن أنشئت أيضاً دار الحكمة القاهرية، وهي لم تكن أرففاً لاحتواء الكتب فقط ولكنّها كانت تضم داخلها جيوشاً من المترجمين والعلماء والنسّاخين، وكانت بذلك جامعةً متخصّصةً لإنتاج الكتب».

أما المكتبات التي عبر عنها المسبحي بـ«البزانية» فأُرجّح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ولعلها هي التي أنشأها الحاكم بأمر اللّه سنة ٣٩٥هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءاً من قصره. وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً قط لأحد من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر، فجلس فيها القراء وعلماء الفلك واصحاب النحو واللغة والاطباء وغيرهم فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلها، من اجراء الرزق الكثير لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافاتهم وفنونهم العلمية، فمنهم من يحضر لقرآءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والاقلام والورق[١٥]. فدار العلم إذاً كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم، وكثيراً ما كانت تقام المناظرات بين علمائها. من ذلك ما رواه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحاق علي بن سليمان المصري النحوي، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات. ويروي المقريزي عن المسبحي أنه سنة ٤٠٣هـ أمر الحاكم بأمر اللّه باحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد، وجماعة من الاطباء إلى حضرته، للمناظرة بين يديه، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم.

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل أعمى يقال له أبو الفضل جعفر، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ولقبه بعالم العلماء، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة[١٦] ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يقيما بدار العلم ويلقيا دروساً في المذهب المالكي[١٧].

ومثلما شهد العصر الفاطمي ازدهار المكتبات القاهرية شهدت نهاية هذا العصر انهيارها بفعل النهب والحرائق والاهمالات. هذا ما ذكره الدكتور الرميحي عن مكتبات الفاطميين، وهو لم يستطع التغلب على رواسبه لذلك لم يذكر اسم صلاح الدين الذي عمل على انهيار تلك المكتبات.

(١٥) الخطط للمقريزي.

(١٦) هو واحد ممن جذبتهم حرية الرأي وتكريم العلم إلى القاهرة عاصمة الفاطميين تلقى فيها هذه الرعاية.

(١٧) النجوم الزاهرة.

فهذا كله إن دلَّ على شيء فانما يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكتبتها، وفيها كل ما يحث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل. فالفاطميون كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي امتازت بها المدنية الحديثة في أيامنا هذه.

وبلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم.

وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب، وقد اوقفوا أرزاقاً ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهلوا أنفسهم له، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشؤون العلماء أسبق مما هو عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفّهم حقهم، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولاً، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول. وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بانشاء خزائن الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع الخليفة المعز يقول: «إننا لنسر بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسر بذلك في الولد». ففي ظل هؤلاء الخلفاء وعلى ضوء ما ذكره المعز، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ويحميهم من الفاقة بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف.

ويذكر المؤرخون عدداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والفاطميين بالخير.

فالقاهرة الفاطمية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الاخرى، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينقمون على الشيعة بعامة وعلى الفاطميين بخاصة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وأقرب مثل نقدمه لذلك هو الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه **القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهري** وغيرها ولكنه وفد على مصر الفاطمية في أواخر حياته ووضع فيها كتابه **مشكاة الأنوار**.

ويسترسل الدكتور محمد كامل حسين في الحديث معللاً هذا بقوله:

«ويخيل إلي أن السبب الذي من أجله شجّع الخلفاء الفاطميون العلم والعلماء أن المذهب الشيعي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء فلا غرو إن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذي هو دعامة من دعائم العقيدة الشيعية».

وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والالحاد. فالفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين وتوسعوا في دراسته، وقد اهتموا بالعلوم الفلسفية واصطنعوا كل من عرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة، وقد كاتب العزيز بالله جبرائيل بن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر[١٨]. وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب. وأرادوا حمل أبي العلاء المعري إلى مصر واعدين بأن يبنوا له دار علم يكون متقدماً فيها وسمحوا له بخراج معرة النعمان، ولكن أبا العلاء اعتذر. وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الاديان غير الإسلامية، فأبو الفتوح منصور ابن مقشر كان طبيباً للعزيز والحاكم بأمر الله ومن المقربين إليهما، وبعد وفاته استطبّ الحاكم اسحاق بن نسطاس وهما من غير المسلمين، ولكن الفاطميين أغدقوا عليهما وعلى غيرهما من الأطباء والفلاسفة الاموال والخلع والالقاب، وحفظ لنا التاريخ اسماء عدد كبير منهم.

واذا درسنا الحياة العقلية في العالم الاسلامي في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بالآراء الشيعية، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة. فابن حوقل كان متشيعاً لهم حتى قيل إنه كان من دعاتهم، والفارابي مثلاً في حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين[١٩] ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد. وابن سينا قيل إنه اسماعيلي المذهب وإن أباه كان أحد دعاتهم فنشأ متأثراً بعقائدهم[٢٠]. وجماعة إخوان الصفا الذين يُرجّح أنهم ازدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع[٢١]، وظهر في رسائل إخوان الصفا تشيعهم، وابن الهيثم كان متصلاً بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كنفه، وأبو العلاء المعري حكيم المعرة كان متأثراً تأثراً تاماً بهذه الآراء التي كانت تحيط به، فقد امتد ظل الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين، كما وانتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم؛ فترى في أشعار أبي العلاء وكتابته كثيراً من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر[٢٢]. ونذكر أحمد

(١٨) أخبار الحكماء للقفطي.

(١٩) الصحيح أن يقال: إنّه كان يتحدّث بلسان الشيعة، فالفارابي كان شيعياً صريحاً.

(٢٠) ابن سينا كان شيعياً كالفارابي.

(٢١) لا يصحّ أن يقال إن البويهيين كانوا يميلون إلى التشيع ـ كما ذكر هنا الدكتور محمد كامل حسين ـ بل إنّ البويهيين كانوا من أعرق الناس في التشيع.

(٢٢) شعر أبي العلاء يدلّ على نزعة شيعية متأصّلة فيه.

حميد الدين الكرماني فيلسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب **راحة العقل** وكتاب **المصابيح** وكتاب **الهادي والمهتدي** وكتاب **الأقوال الذهبية** وغيرها التي تدل على أن الكرماني فيلسوف ناضج التفكير، ونذكر المؤيد في الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها. وهكذا نستطيع أن نتتبع كثيراً من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الاسلامية وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين، فان هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة.

وهكذا نرى أن الفاطميين لم ينسوا العلوم الفلسفية، ونقصد بذلك جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى والتي تضمنتها **رسائل إخوان الصفا** من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلاهيات ومنطق وغير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألمّ بها جميعاً، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلاهيات من الطبيعيات، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين من اتقن هذه العلوم وبرز فيها.

ولعل أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الحسن ابن الهيثم الذي قال عنه الأستاذ محمد رضا مدور: «إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغالياً إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة إينشتين في عصرنا هذا».

ويقول عنه الأستاذ مصطفى نظيف: «إن ابن الهيثم[٢٣] قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علماً جديداً، هو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التي نراها الآن».

ولكن ذنب ابن الهيثم أنه كان في مصر الفاطمية فلقيت تعاليمه وآراؤه ما لقيت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين، فكل عالم من علماء الفاطمية يجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه، وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء.

(٢٣) لما استقدمه الحاكم بأمر الله إلى مصر وأقبل على القاهرة خرج الحاكم لاستقباله بنفسه مع كبار رجال دولته عند قرية على باب القاهرة كانت تعرف بالخندق، ثم أمر بإكرامه وأن ينزل في ضيافته. (راجع أخبار العلماء للقفطي) «ح».

وظهر في مصر في هذا العصر عدد كبير من الاطباء، والطب كما نعلم كان معدوداً في ذلك العصر من علوم الفلسفة، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع افقه وكثرة التآليف حوله. وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما اوقفوه لهم من مرتبات شهرية، مما حمل عدداً من الأطباء أن يفدوا إلى مصر من كل مكان كالطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي الذي جاء من القدس، والطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف باليبرودي الذي جاء من دمشق، والطبيب أبو الحسن المختار ابن الحسن المعروف بابن بطلان البغدادي الذي جاء من العراق وغيرهم. ومن أشهر من وفد على مصر من غير الأطباء الفيلسوف أمية بن أبي الصلت الاندلسي وكان إلى جانب علومه الفلسفية شاعراً فحلاً واديباً ممتازاً.

وهكذا نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر الفاطمي ازدهاراً لا نجد له مثيلاً في الأقطار الإسلامية الأخرى، بل نجد أنّ غير الفاطميين كانوا يميلون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية، وأن القائمين بها من العلماء زنادقة، ولكن الفاطميين كانوا أوسع افقاً في تفكيرهم[٢٤].

ويختم الدكتور محمد كامل حسين الكلام بقوله:

«ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وألوانها وفنونها، وتعددت مراكزها في مصر، وكانت حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتنيس في الشمال وفي أسوان وقوص وغيرها في الجنوب، كما كان أمراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء. وعن مصر الفاطمية أخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب.

وبعد أن يتحدث الدكتور حسين عن الحياة الأدبية يقول: ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية فضاع الشعر ولم يبق منه إلا اسم الشاعر أحياناً إن قدر لآسمه البقاء. ونحن لا نتردد في اتهام الايوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري لتعمّدهم أن يمحوا كل اثر أدبي يمت للفاطميين بصلة، فقد أحرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر».

(٢٤) هذا ما ذكره الدكتور محمد كامل حسين في هذه الناحية خاصة، وغني عن البيان أنه إذا كان هذا مقدار ازدهار مثل هذه العلوم عند الفاطميين، فإنّ العلوم الأخرى من لغة ونحو وتاريخ وأدب وشعر وحديث كانت على غاية ازدهارها وتضجها «ح».

ويقول الأستاذ حسن عبدالوهاب من مقال له في مجلة الكتاب، الجزء الثالث من السنة الثانية، الصفحة ٢٨١ عن العلم في عهد الفاطميين:

«في الوقت الذي خصّصوا (الفاطميون) فيه حلقة لدرس فقه الشيعة في الجامع الازهر، كان جامع عمرو بن العاص معقلاً للحديث والمذاهب السنية، فقد بلغت حلقات التدريس فيه في نهاية القرن الرابع مائة حلقة وعشر حلقات يتزعمها أئمة الفقهاء والقراء وأهل الادب».

ويقول عن الاسكندرية: «وكان بها في العصر الفاطمي علماء أعلام مُحدِّثون ناصروا السنة وكانت الرحلة اليهم».

ثم يُشير بعد ذلك إلى من ارتحل من خارج مصر إلى الاسكندرية فاستقر بها.

وقال الدكتور علي إبراهيم حسن في الصفحة ٢٤٠ من الجزء ٨ (س ١) من مجلة الكتاب: «في زمن الفاطميين بلغت مصر حالة من الثراء والرخاء أصبحت معها مضرب الامثال في سائر الاقطار».

ويقول حسن عبد الوهاب في الجزء الثالث من السنة الثانية عن الاسكندرية في عهد الفاطميين: «كان في الاسكندرية علماء أعلام ناصروا السنّة وكانت الرحلة إليهم. كما أن الحافظ السلفي دخل الاسكندرية وبها علماء أجلاء نشأوا فيها وآخرون رحلوا إليها واستوطنوها وكان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية فأخذ عنهم واخذوا عنه، منهم العلامة ابن مطر وابنه سمع عليهما خلف بن محمد الخولاني المتوفى سنة ٣٧٤هـ (٩٨٤م) ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية في النصف الاول من القرن الرابع الهجري وعبد الرحمن ابن عوف بن عمرو العلاف، سمع عليه عبيد بن محمد القرطبي المتوفى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م) وابن عباد الاسكندراني وكان من شعراء القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ومحمد بن الخمشي المتوفى في حدود الخمسمائة وابن مكنسة الاسكندراني اسماعيل بن محمد المتوفى في حدود الخمسمائة وكان شاعراً، وأبو منصور ظافر بن القاسم المعروف بالحداد المتوفى سنة ٥٢٩هـ (١١٣٤م) وابن الفحام عبد الرحمن بن أبي بكر بن عتيق بن خلف الصقلي المقرىء المجوّد وله مصنفات في التجويد والقرءات السبع، وكان من شيوخ القراء توفي في سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م)، وسند الاسكندرية ابن الخطاب محمد بن إبراهيم الرازي ثمّ المصري المعدّل الشاهد سند الديار المصرية وشيخ الاسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م)، والإمام الطرطوشي محمد بن الوليد بن محمد ابن خلف الصوفي المالكي، كان عالماً زاهداً، حوّل قسماً من داره إلى مدرسة فوفد عليه

العلماء والطلاب مدة حياته إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م)، وأبو القاسم بن مخلوف المغربي ثم الاسكندري أحد علماء المالكية تفقه به أهل الاسكندرية إلى أن مات سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م)، والحافظ المقدسي أبو الحسن علي بن أبي المكارم المالكي، كان فقيهاً فاضلاً من أكابر الحفاظ المشاهير في الحديث وعلومه توفي سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) وغيرهم».

ويقول علي مصطفى مشرفة في مجلة **المقتطف** م ١٠٦ ج ٤ ما يلي: «إنه يخالف ابن خلدون والسيوطي من أن الفاطميين ضغطوا على المذاهب الأخرى بما ذكره السيوطي نفسه من أن أبا بكر النعماني إمام المالكية كانت تدور حلقته في الازهر على ١٧ عموداً وكان للمالكية ١٥ حلقة وللشافعية مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط» ثم يورد شواهد كثيرة.

وعندما علم الفاطميون بما عليه الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي من الفقر في بغداد، وهو الذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بانه لم يُر في المالكية أفقه منه ـ عندما علموا بفقره المدقع ـ استدعوه إلى مصر كما كانت خطتهم باستدعاء العشرات أمثاله كما ذكرنا في المجلد الثالث».

يقول ابن خلكان واصفاً وداع البغداديين له عندما علموا بعزمه على الرحيل إلى القاهرة، ناقلاً ذلك عن ابن بسام في كتاب الذخيرة:

«وحُدِّثت أنه شيّعه حين فصل عن بغداد من أكابرها واصحاب محابرها جملة موفورة وطوائف كثيرة، وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت عن بلدكم لبلوغ امنية.

واجتاز في طريقه إلى مصر بمعرة النعمان فأضافه أبو العلاء المعري. وفي ذلك يقول:

والمالكي ابن نصر زار في سفر   بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكاً جدلاً   وينشر الملك الضلّيل إن شعرا»

الأسطول

مقدمة

الأسطول كلمة يونانية معربة ومعناها مجمع السفن. وأعظم أسطول إسلامي أو عربي كان أسطول الدولة الفاطمية الذي وصفه بعض المؤرخين بقوله: «بلغ ربابنة اسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خمسة آلاف ربان

وعدد سفنه مائتي سفينة، واضطر الافرنج إلى الانحياز بمراكبهم إلى الجانب الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا يبرحونه لأن هذا البحر يسيطر عليه الفاطميون».

تقول الدكتوره سعاد ماهر في كتابها **البحرية في مصر الإسلامية**:

«إن اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحله كان له أكبر الأثر في صيانة كيان الدولة الإسلامية عامة، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الأبيض المتوسط خاصة، ذلك أن الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيّما بعد استيلائهم على اقريطش (كريت)، فعولوا على الهجوم على إقليم الشام لكي ينتزعوا بيت المقدس منه. ففي سنة ٩٧٥م سار الأسطول الرومي إلى بلاد الشام واستولى على كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا، إلا أن قوات مدينة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الأسطول المصري (الفاطمي) لها[٢٥] من هزيمة الاسطول الرومي، وبذلك عاد فاشلاً إلى القسطنطنية، وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من أطراف الشام الشمالية».

وتقول أيضاً:

«... وتحققت مخاوف الفاطميين، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م إلى تأليب حكام صور وطرابلس على الفاطميين ومساعدتهم على شق عصا الطاعة عليهم، ولكن الأسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذين الميناءين وانزل بهم هزيمة منكرة».

وتقول أيضاً ما خلاصته: أرسل غليوم الأول صاحب صقلية اسطولاً نزل دمياط سنة ١١٥٥م (٥٥٠هـ) فعاث فيها فساداً ثم اتجه إلى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية. ولكنه سرعان ما فر هارباً عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي).

وفي وقائع الأسطول وهزيمته للصليبيين يقول المهذب بن الزبير:

وكأن بحر الروم خلق وجهه	وطفت عليه منابت المرجان
ولقد غزا الأسطول حين غزا بما	لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إليّ بها شواني أصبحت	من فتكها ولها المداة شواني

(٢٥) Iteven Runciman, *The First Crusade - A History of History of the Crusades*, vol. 1, p. 330.

شبهن بالغربان في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبان
فأتتك موقرة بسبي بنيهم أسراهم مغلولة الأذقان

ويقول طلائع بن رزيك في الانتصار على الصليبيين:

توالت علينا في الكتائب والكتب بشائر من شرق البلاد ومن غرب
بشائر تهدي للموالي مسرة وتحدث للباغين رعباً على رعب
ففي كبد من حرها النار تلتظي وفي كبد أحلى من البارد العذب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت عليها عتاق الخيل كالنفنف السهب
فقد أصبحت أوعارها وحزونها سهولاً توطا للفوارس والركب
ولما غدت لا ماء في جنباتها صببنا عليها وابلاً من دم سكب
وجادت بها سحب الدروع من العدا نجيعاً فأغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها ولكن بحار ليس تعذب للشرب
فقد عمها خصب به من رؤوسهم بها ولكم خصب أضر من الجدب
وقد رؤعتها خيلنا قبل هذه مراراً وكانت قبل آمنة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب

المتوسط بحيرة فاطمية

يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور طه شرف في كتابهما المعز لدين الله وهما يتحدثان عن القوى البحرية للمعز (ص ٤٨) الطبعة الثانية:

«ولا نغالي إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر الأبيض المتوسط بحيرة فاطمية، ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمن الناصر الأموي في عقر دارها في الأندلس، وانتصر على الروم حلفاء الأمويين في ذلك الحين حتى أرغمهم على طلب الهدنة، وكثيراً ما هجم أسطول المعز على إقليم قلوريا (كالابريا) جنوبي إيطاليا. وينبغي أن لا ننسى ذلك الدور الهائل الذي قام به هذا الأسطول في سبيل مساعدة مسلمي جزيرة أقريطش (كريت).

وقد ذكر النعمان المغربي قاضي المعز، أن المهدية كانت غاصة بالسفن حتى إن هذا الخليفة الفاطمي عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تخفف الضغط عن هذا الثغر، وقد وجد القاعدة المنشودة في سوسة.

ولهذا كانت المهدية وسوسة مراكز أساسية للأسطول الفاطمي الأفريقي. أما الأسطول الفاطمي الأوروبي فكانت سفنه رابضة في موانىء صقلية».

وقد خصَّ المؤرخان غربي البحر المتوسط في كلامهما المتقدم، لأنهما كانا يتحدثان عن الأسطول الفاطمي قبل فتح مصر والشام. أما بعد فتحهما فقد أضافا قائلين:

«أضف إلى ذلك أن المعز حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر الأبيض، ولا غرو فقد دخلت في حوزة المعز بعد أن فتح مصر والشام، البلاد الواقعة على البحر الأبيض من أنطاكية إلى سبتة، ووقعت في يده موانيء المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي أيضاً.

ومن ثم ملأ المعز كثيراً من موانيء الشام الهامة مثل صور وعكا وعسقلان بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع، وأهمها: الشلندمات والشواني الحربية والمسطحات والطرادات والعشاريات والجرافات. وقد رأينا موقف أسطول المعز من صور وسواها في حروبه مع الروم، كما رأينا كيف اتخذ جوهر من عكا وعسقلان مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام».

وهكذا يمكن القول إن البحر الأبيض غربيه وشرقيه أصبح بحيرة فاطمية. ثم يستطرد المؤرخان قائلين:

«وكذلك عني المعز بالأسطول التجاري لينقل البضائع المصرية إلى البلدان الأخرى ويعود محملاً بالسلع، من هذه البلدان. وقد أصبح للفاطميين أسطولان تجاريان: أحدهما في البحر الأبيض المتوسط، والآخر في البحر الأحمر، فكانت الإسكندرية ودمياط في مصر، وعسقلان وعكا وصور وصيدا في الشام من أهم الموانيء الفاطمية في البحر الأبيض. كما كانت عيذاب أهم موانيء البحر الأحمر، وكانت مزودة بأسطول حربي يقوم على حماية الأسطول التجاري والقضاء على اللصوصية في هذا البحر».

وقال مؤرخ واصفاً حال الأسطول الفاطمي يومذاك: «بلغ عدد ربابنة أسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خمسة آلاف ربان وعدد سفنه مائتي سفينة، واضطر الإفرنج إلى الانحياز إلى الجانب الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا يبرحونه لأن هذا البحر يسيطر عليه الأسطول الفاطمي من مضيق جبل طارق إلى بيروت».

ويقول الدكتور مرمول محمد الصالح في كتابه **السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب**:

جرّد الفاطميون حملاتهم العسكرية ضد الروم كلما وجدوا فرصة لذلك طيلة عهدهم في المرحلة المغربية. فقد جرد عبيد اللّه المهدي حملاته ضدهم في سنوات مختلفة كانت تنطلق من المهدية أو من صقلية. ففي سنة ٣١٥هـ (٩٢٩م) توجهت حملة بحرية من

المهدية بقيادة صابر الفتى عدتها أربعة وأربعون مركباً فاتجهت إلى صقلية ومنها شنت غاراتها على سواحل ومدن الروم فقتلت وغنمت وعادت إلى صقلية[٢٦]. ثم أعاد صابر الكرة في السنة الموالية من صقلية أيضاً فافتتح عدة أماكن رومية واستولى على ما فيها وأجبر أماكن أخرى على مصالحته بأموال وديباج وثياب وعاد بجيشه إلى صقلية مركز انطلاقه[٢٧]. ثم كرر هجومه البحري في سنة ٣١٧هـ (٩٣١م) أيضاً فالتقى في البحر بسبعة مراكب للروم وهو في أربعة مراكب فهزم خصومه وفتح وسبى سبياً كثيراً ورجع إلى المهدية[٢٨]. وبذلك سن المهدي لمن جاء بعده سنّة توجيه الحملات البحرية من المهدية أو من صقلية ضد موانىء وسواحل الروم. وقد كان ولاة صقلية يساهمون مساهمة فعالة في هذا المجال نظراً لمركز ولايتهم الاستراتيجي وإمكانيات أسطولها البحري، وذلك مثل الحملة التي قادها يعقوب بن إسحاق في آخر حياة عبيد الله المهدي ففتحت جنوة وسردانية[٢٩].

وقد قال ادم أيضاً عن صولة الأسطول الفاطمي، بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط منذ عهد عبيد الله المهدي وسيطرته على مياهه ما نصه: «ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي، فقد كان بحراً عربياً (فاطمياً)، وكان لا بد لمن يريد أن يغشي لنفسه أمراً أن يخطب ودّ العرب (الفاطميين) كما فعلت نابولي وغيته وأمالفي.

ففي سنة ٣٢٢هـ (٩٣٥م) استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوى وأن تفعل مثل ذلك بمدينة بيزا في عامي ٤٠١ ـ ٤٠٤هـ (١٠١١ ـ ١٠١٤م) فهذا يبين لنا ثقل وطأة الأسطول الفاطمي على أساطيل أوروبا وتحكمه في لجج البحر المتوسط، وأن سلطة الفاطميين في المغرب تمثل قمة المجد البحري الإسلامي في البحر المتوسط».

لقد بقي الاهتمام متواصلاً وكبيراً بشأن الأسطول في عهد أبي القاسم محمد القائم وزاد شأنه أكثر من السابق واستفحل خطره على الأساطيل البيزنطية حيث ضاعف من غاراته عليهم من موانىء وثغور المغرب ومن صقلية أيضاً. ولعل قلة الثورات الداخلية في بداية عهده تركت له مجالاً للاهتمام بحروب الروم والعناية بالأسطول أكثر من أبيه.

(٢٦) ابن عذاري، ١، ١٩٢
(٢٧) المصدر نفسه، ١٩٣
(٢٨) المصدر نفسه، ١٩٤
(٢٩) هي إحدى جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط وتأتي في الأهمية بعد صقلية واقريطش (كريت) فتحها المسلمون سنة ٩٢هـ

ويقول ابن خلدون بهذا الصدد: «وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوى فتنقلب بالظفر والغنيمة... كما وقع في أيام بني الحسن القائمين في صقلية بدعوة العبيديين (الفاطميين). وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي... وأساطيل المسلمين (الفاطميين) قد ضريت ضراء الأسد على فريسته وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً، فلم تسبح فيه للنصرانية ألواح»[٣٠].

فهذا النص يبين لنا مدى الدور العظيم الذي لعبه الفاطميون في الدفاع عن المغرب الإسلامي والمتمثل في رد غزوات الروم.

إن الاهتمام بالأسطول البحري يقتضي الاهتمام بلوازمه أيضاً، كمراكز بناء السفن، ومصانع السلاح. ومن أهم مصانع السفن والأسلحة بونة (عنابة) والمهدية وغيرهما. وقد أشاد الشعراء بأسطول أبي القاسم ووصفوه بغرر شعرهم[٣١] ولكن نشاط الأسطول لصد الروم قلّ في عهد المنصور وذلك بسبب آثار ثورة صاحب الحمار الخطيرة[٣٢]. بينما واصل عمله في عهد المعز الأمر الذي جعل الروم يستنجدون في بعض الأحيان بسلك القسطنطينية، لرد غزوات المعز البحرية كما حدث في سنة ٣٤٥هـ (٩٥٧م) حينما جرد المعز عليهم حملة بحرية انطلقت من صقلية بقيادة حسن بن علي بن الحسين فاستغاث الروم بالملك قسطنطين السابع ٣٢٩ - ٤٣٧هـ (٩١٢ - ٩٥٩م) فأنجدهم بالعساكر براً وبحراً والتقت في البحر مع جيش حسن بن علي وذلك في شهر شوال. ورغم قلة عدد سفن الفاطميين فإنها انتصرت انتصاراً كبيراً وبلغ عدد ما حز من رؤوس الأعداء عشرة آلاف رأس[٣٣].

هذا ولم تكن صقلية فقط مركزاً لنشاط الأسطول الفاطمي بل هناك عدة جزر أخرى

(٣٠) المقدمة ص ١٥٠ - ١٥١.

(٣١) قال علي بن الإيادي في ذلك:

أعجب لأسطول الإمام محمد	ولحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر	يبدو لعين الناظر المتعجب
من كلّ مشرفة على ما قابلت	إشراف صدر الأجدل المتنصب
دهماء قد لبست ثياب تغنّج	تسبي العقول على ثياب ترقب

انظر: بساط العقيق لحسن حسني عبد الوهاب، ص ٥٠ - ٥١؛ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٩٩ للمؤلف نفسه. ومحمد اليعلاوي: «شعراء أفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية»، حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٠ ص ٩٥ وما بعدها سنة ١٩٧٣م.

(٣٢) هي ثورة أهلية أثارها الخوارج على المنصور الفاطمي فشغلوه عن مواجهة الروم

(٣٣) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، والقسم الخاص بالمغرب تحت عنوان: تاريخ المغرب في العصر الوسيط ص ١٢٣.

كانت مركزاً لنشاط ذلك الأسطول ومن بينها جزيرة اقريطش (كريت) التي كان الصراع فيها بين المسلمين والروم قائماً على أشده من قبل عهد الفاطميين، ولكن كانت وطأة الفاطميين عليها أشد وقاوموا الروم مقاومة عنيفة لا سيما في عهد المعز. قال ابن الأثير في أحداث سنة ٣٥١هـ (٩٦٣م): «وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة اقريطش فأرسل أهلها إلى المعز لدين الله العلوي صاحب افريقية يستنجدونه فأرسل إليهم نجدة فقاتلوا الروم فانتصر المسلمون وأسر من كان في الجزيرة من الروم».

كما أن هناك جزراً أخرى كانت أهدافاً لنشاط الأسطول الفاطمي مثل جزيرة مالطة وقبرص وسردانية وقوصرة.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا مدى أهمية صقلية وغيرها من بعض الجزر بالنسبة لأسطول الفاطميين. ولذا حرصوا أشد الحرص على الاحتفاظ ببقاء نفوذهم فيها لأغراض عسكرية واقتصادية لأنهم كانوا يهدفون إلى إنشاء امبراطورية قوية على الساحل الجنوبي للحوض الغربي للبحر المتوسط، الأمر الذي جعل من صقلية قاعدة بحرية هامة لأسطولهم وذلك لرد غارات الروم عن السواحل الافريقية، هذا بالاضافة إلى أهميتها الاقتصادية فهي خصبة بمنتوجاتها الزراعية ويكثر فيها أيضاً الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها من المعادن[٣٤].

ويتضح مما تقدم أن الأسطول الفاطمي سيطر سيطرة كاملة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وانفرد بالسيادة عليه وضيق الخناق على الاساطيل الرومية حيث كان سلطانه مرهوباً، ثم امتدت سيطرته ما بين جبل طارق إلى بيروت[٣٥] وبلغ عدد سفنه المئات. وكان مرسى المهدية وحده يسع أكثر من مئتي سفينة[٣٦] واستعملت قطعه لأغراض عسكرية وتجارية.

عوامل تعزيز البحرية الفاطمية

عني الخلفاء الفاطميون عناية كبيرة بأمور البحرية، ولكن عناية المعز بها كانت أكثر، وذلك لقلة الاضطرابات الداخلية في عهده بسبب سياسة اللين والتفتح التي سلكها مع الثائرين، ولذا وجد المجال متسعاً للاهتمام بالأسطول[٣٧] واتخذ من مدينة المهدية وسوسة

(٣٤) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٠٠؛ ابن حوقل صورة الأرض، ص١١٧ وما بعدها.
(٣٥) مختار العبادي، وآخر، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٧٦ ـ ٧٧.
(٣٦) البكري، المغرب، ص ٣٠؛ مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهاد، ص ٦٧، ٧١، ٧٢؛ Calvin, p. 91.
(٣٧) مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهاد، ص ٧٢.

ومرسى الخزر وغيرها مأوى لقطع هذا الاسطول . ولا ننسى أن الفاطميين استفادوا في هذا المجال من موقع جزيرة صقلية الممتاز لما فيه من موانيء واحواض على غاية من الأهمية، ولا نغالي إذا قلنا إن المعز استطاع أن يجعل من غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية[٣٨] لأن أسطوله أخذ زمام المبادرة دائماً على الروم وأجبرهم على طلب الهدنة وإعطاء الجزية وتقديم الهدايا حيث أوفدوا إليه بطريقاً من بطارقتهم لهذا الغرض فقبل منهم ذلك[٣٩]. وكان أسطوله الأوروبي مرابطاً بموانيء صقلية تحت إشراف أسرة الكلبيين. أما أسطوله الأفريقي ففي حالة تحفز واستعداد بالموانيء المغربية وفي مقدمتها المهدية وسوسة وتونس وبونة وغيرها، وجعل في أهم الموانيء داراً لصناعة السفن والسلاح كما كان يأمل أن يصل المنصورية بالبحر بواسطة قناة، فقد نقل من كتاب المجالس والمسايرات قوله: «لئن امتد المقام هنا ـ أي في المنصورية ـ لنجرين البحر بحول الله وقوته إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا»[٤٠]. ولا شك أنّ هذا يدل على مدى عنايته أكثر من أسلافه بالجيش البحري حيث أراد أن يجعل من المنصورة ميناء ثالثاً من حيث الأهمية بالنسبة إلى المهدية وسوسة. ولا غرابة في ذلك فللأسطول وحده يرجع الفضل الكبير في انتصارات الفاطميين البحرية. كما أن الفضل يعود إليه في تزويد جوهر بالإمدادات أثناء فتحه لمصر. ونلاحظ أيضاً أن تقدماً ملموساً حصل في قوة الأسطول الفاطمي في عهده أكثر من السابق بصفة خاصة ومن ضمن ذلك القطع البحرية العاملة بالمغرب الأوسط (الجزائر)[٤١].

ومن خلال ما تقدم يتجلى لنا أن أسطول المغرب الإسلامي في عهد الفاطميين ازداد قوة وتمكناً في العدد والعدة وأمسك بناصية الحوض الغربي للبحر المتوسط وهدد الروم. ويعتبر بناء عبيد الله المهدي لمدينة المهدية على ساحل البحر عاصمة له مظهراً من مظاهر التحول الأساسي في سياسة هذه الخلافة التي عملت من أول عهدها على أن تكون دولة قوية بجيشها البري والبحري، وبالفعل أصبحت لها قوات بحرية عظيمة إلى جانب قواتها البرية.

ويمكن أن نلخص أهم العوامل التي ساعدت على نمو اسطولها وقوته بما يلي:

١ ـ صلاحية الموقع الجغرافي في بلاد المغرب وكثرة موانئه ووجود أحواض لبناء السفن مثل المهدية وسوسة وبونة (عنابة) ومرسى الخزر والقالة وبجاية وغيرها، وتوفر المواد

(٣٨) كان هذا قبل فتح مصر وبلاد الشام. أمّا بعد ذلك فقد ساد الأسطول الفاطمي غربي البحر المتوسط وشرقيه.
(٣٩) حسن إبراهيم حسن وآخر، المعز لدين الله، ص ١٥٤، حوليات الجامعة التونسية عدد ٢، ١٩٦٥.
(٤٠) حسن ابراهيم حسن وآخر، سبق الاستشهاد، ص ١٨٥
(٤١) البحرية الجزائرية، نشر المكتبة الوطنية الجزائرية، ص ١٨٥.

اللازمة لبناء السفن مثل الأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن، وكذلك الحديد الذي يوجد بصقلية وبلاد المغرب في بونة وبجاية والإربس، وكذلك توفر المواد الأخرى من قطران وحبال[٤٢].

٢ ـ وراثة الفاطميين لأسطول قوي عن الأغالبة يعود تاريخ نشأته إلى عهد حسان بن النعمان (٧٥ ـ ٧٨هـ /٦٩٥ ـ ٦٩٨م) حيث عملوا على تنميته، وتطويره، ولم يبدؤوا من منطقة الصفر في هذا المجال.

٣ ـ وجد الفاطميون بين أهل المغرب إطارات كفوءة عارفة بمبدأ الملاحة والأمور البحرية ولها خبرة ودراية في هذا المجال منذ عهد الفينيقيين. فكان هذا أحد عوامل قوة بحريتهم ونجاحها.

٤ ـ يعتبر موقع صقلية البحري الهام من العوامل التي ساعدت على قوة الأسطول وتحكمه في مياه الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد أصبحت محطة بحرية هامة للمسلمين منذ أن فتحت سنة ٢١٢هـ (٨٨٧ م).

٥ ـ يمكن أن نعتبر تأصل فكرة الجهاد عند الفاطميين وتطلعهم إلى التوسع شرقاً وغرباً، وخوفهم من الخطر الخارجي المتمثل في الروم بصفة خاصة، من أهم الحوافز التي جعلتهم يعتنون أشد العناية بأمور الأسطول حتى تكون لهم قوة بحرية قادرة على تحقيق آمالهم في توسيع رقعة دولتهم ورد الخطر الخارجي الرومي.

٦ ـ اعتناء المعز بالأسطول أكثر من أسلافه لأنه كان يهدف إلى تكوين قوة بحرية قوية يسيطر بها على حوضي البحر المتوسط الغربي والشرقي على السواء ويقارع بها.

٧ ـ ومما زاد من قوة الأسطول في عهد المعز وراثته لأسطول الاخشيديين وبعد فتحه لمصر وجد بين المصريين أيضاً إطارات كفوءة في ميدان الملاحة النهرية والبحرية معاً، وبعد فتح مصر والشام، حقق ما كان يطمح إليه في هذا المجال حيث امتد نفوذه البحري من سبتة غرباً إلى أنطاكية شرقاً، بالإضافة إلى الموانىء المطلّة على المحيط الأطلسي وبذلك بلغ الأسطول في عهده قمة مجده.

٨ ـ تنظيم الأسطول وامتيازات رجاله: لقد حظي رجال الأسطول الفاطمي في مصر بامتيازات سخية وتقاضوا مرتبات عالية. وزيادة على مرتباتهم فإن الخليفة الفاطمي كان يقطعهم الإقطاعات ولكي يشجعهم فإنه كان يترك لهم ما غنموه من أموال وثياب ومتاع،

(٤٢) مختار العبادي وآخر، سبق الاستشهاد، ص ٧١، ٧٢ ـ ٧٦.

بينما تأخذ الدولة السلاح والأسرى. كما كان يشاهد بنفسه رحلة رجال الأسطول ويودعهم عند انطلاقهم إلى الحرب ويدعو لهم بالتوفيق والنصر كما يحضر لاستقبالهم وإلى جانبه كبار رجال دولته. وقد بلغ من اهتمام الفاطميين بالأسطول في مصر أن اتخذوا منظرة على النيل بمكان يعرف بالمقس يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله، وعرفت حفلة التوديع هذه بـ(الموادعة). وقبل أن ترحل المراكب تقوم بمناورات بحرية أمام الخليفة كما تفعل في حال القتال ويوزع الخليفة النفقة على رجاله ويخلع على قواده. وللأسطول أمير يدعى قائد القواد ويسمى بذلك لأنَّ تحت إمرته عشرة قواد ولعلهم أشبه ما يكونون بأركان حربه ويتولون قيادة الأسطول بالتناوب. ولم يكن البحارة يتقاضون مرتباً واحداً فهناك من يتقاضى دينارين في الشهر ومن يتقاضى ثمانية دنانير وهكذا إلى خمسة وعشرين ديناراً في الشهر حيث توجد ستة أصناف بين رجاله بحسب مرتباتهم. وأعلى رتبة فيه أميره أو مقدمه وهو من كبار الأعيان والأمراء.

قال المقريزي عن إقطاعات رجال الأسطول وتنظيماته في مصر: «ولهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة». وكان يُعيَّن من القواد العشرة واحدٌ فيصير رئيس الأسطول ويكون معه المقدم فإذا سار إلى الغزو كان هو الذي يقلع بهم فيقتدي به الجميع فيرسون بإرسائه ويُقلعون بإقلاعه. ويتولى النفقة في غزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير وكبار الشخصيات.

إن النص المتقدم يبين لنا بكل وضوح امتيازات رجال الأسطول وما يشترط في قائده، وعناية الخليفة الكبرى برجاله. ولا شك أن هذا النظام كان متبعاً في المغرب أيضاً.

لقد وجدت في عهد الفاطميين أنواع مختلفة من السفن منها التجارية ومنها الحربية فبعضها يستعمل في الملاحة البحرية، وبعضها في الملاحة النهرية، ومن السفن الحربية التي استعملها الفاطميون وغيرهم في البحر المتوسط:

١ ـ الشلنديات: ومفردها شلندي وهي سفن كبيرة الحجم استعملت لنقل المؤن، والعتاد، والجنود في آن واحد، وهي من المراكب البحرية المسطحة، حتى يتمكن جنودها من مقاتلة أعدائهم وهم على متنها وفي نفس الوقت فإن الجذَّافين من تحتهم يجذِّفون بهم، وتسمى هذه السفن في الأندلس بالأجفان الغزوية وتستعمل في حالتي الحرب والسلم.

٢ ـ الشواني، جمع شيني، أو شونة، وهي من السفن الكبيرة التي تستعمل لحمل الأبراج الكبيرة أيضاً وغيرها من العتاد الثقيل، ولعلها أشبه ما تكون بالبوارج الحربية الضخمة التي

تستعمل الآن لحمل العتاد الهجومي كالدبابات والمدرعات.

٣ ـ الحراقات، وتلي الشواني في الضخامة والأهمية وتستخدم في إحراق سفن العدو بواسطة المواد المحرقة كالنفط؛ ويجذف فيها نحو مائة جذاف، وقد ورثها الفاطميون عن الأغالبة، وكثيراً ما استخدمت في غزو بلاد الروم.

٤ ـ الطرادات، ومفردها طراد، وهي عبارة عن سفن صغيرة، قوية سريعة الحركة وتستعمل لحمل الخيل والمقاتلين، ومختلف المؤن، والأسلحة. ويمكن للواحدة أن تحمل أربعين فرساً ومائة فارس.

وبالإضافة إلى ما تقدم فهناك أنواع أخرى من السفن البحرية وجدت في عهد المعز بمصر، ولا شك أنها كانت موجودة بالمغرب ومنها البطس وهي مراكب كبيرة تتكون من عدة طوابق وتنقل عدداً كبيراً من المحاربين قد يصل إلى سبعمائة. وكذلك المراكب المسماة أغربة لأنها في شكلها تشبه الغراب وكذلك القراقر والسميرات، وغيرها.

ويستخدم المقاتلون في البحر عدة أسلحة وفي مقدمتها النفط الخاص بإحراق مراكب العدو كما يستخدمون الكلاليب الحديدية التي ترمى على سفن العدو بقصد إغراقها أو العبور إليها بواسطة ألواح خشبية وبسلالم. كما يستخدمون السيوف ومختلف الأسلحة الخفيفة. وقد بلغت قطع الأسطول الفاطمي في المغرب أزيد من ثلاثمائة سفينة. كما بلغت قطعه في عهد المعز بمصر أكثر من ستمائة قطعة. ولكن شأن الأسطول ضعف في آخر عهدهم حيث وصل إلى مائة وعشرين سفينة فقط.

ومما تقدم يتجلى لنا أن الفاطميين اعتنوا عناية كبرى بالأسطول ورجاله في المغرب وبعد رحيلهم إلى مصر، واحتل رجاله مكانة بارزة في ديوان الجيش ولا شك أن التنظيمات الخاصة بالأسطول في عهد المعز بمصر كانت أيضاً موجودة من قبل بالمغرب أيضاً.

المعز والأسطول

قال الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما **المعز لدين الله**:

وكان للبحرية الفاطمية في عهد المعز لدين الله شأن يذكر في بلاد المغرب ومصر. وقد اتخذ الفاطميون المهدية مرفأ رئيسياً ومن سوسه وغيرها من موانىء شمال افريقيا أماكن تأوي اليها سفنهم. ولا ننسى أن الفاطميين وخاصة المعز قد أفادوا من موقع جزيرة صقلية لما فيه من موانىء وأحواض للسفن.

ولا نغلو إذا قلنا إن المعز استطاع بفضل أسطوله القوي أن يجعل غربي البحر الأبيض بحيرة فاطمية، ولا غرو فقد هجم أسطوله على أساطيل عبد الرحمن الناصر الأموي في عقر دارها في الاندلس وانتصر على الروم حلفاء الأمويين في ذلك حتى أرغمهم على طلب الهدنة. وكثيراً ما هجم أسطول المعز على إقليم قلورية (كالابريا) جنوبي ايطاليا. وينبغي أن لا ننسى ذلك الدور الهائل الذي قام به هذا الأسطول في سبيل مساعدة جزيرة إقريطش (كريت).

وقد ذكر النعمان المغربي، أن المهدية كانت غاصة بالسفن، حتى إن المعز عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تُخفِّف الضغط عن هذا الثغر. وقد وجد القاعدة المنشودة في سوسة فيذكر أنه ظهر بدار الصناعة بمدينة سوسة «سبعة مراجل (قدور) أزلية الصنع متقنة ينفذ بعضها إلى بعض كانت مدفونة تحت الأرض إلّا أنها تحتاج إلى بعض اصلاح وإلى صهريج يجري عنه الماء إليها، وأنها (أي المراجل) متى امتلأت ماء استغنى بها أهل المدينة عما هو خارج منها وكانت ذخيرة للمراكب ولغير ذلك مما يحتاج إليه».

ويقول النعمان: «فرفعت ذلك إلى الإمام المعز لدين اللّه فسرّ بها وأمر بإصلاحها وإصلاح هذا الصهريج وأن يبنى مسجد هناك، وكان قبل ذلك قد ذكر له تضايق داري الصناعة بالمهدية بالمراكب وكثرتها وما زاد منها وإن الدارين قد غصتا بها، فذكر عمارة دار الصناعة بسوسة والإنشاء بها وكان وجود هذه المراجل من مقدمة الخير فيها».

وهكذا أصبح للمعز لدين اللّه في افريقيا ميناءان هامان، يعتمد على دور الصناعة فيهما في إخراج السفن وعلى أحواضها في إيوائها. وكان المعز يعمل على أن يجعل من حاضرته المنصورية ميناء ثالثاً من موانئه الرئيسية. يدل على ذلك قوله: «لئن امتد المقام هنا (في المنصورية) لنجرين البحر بحول اللّه وقوته إلينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا».[٤٣] وبهذا نرى أن المعز كان يهتم بتكوين أساطيل قوية، وأنه اتخذ من المهدية وسوسة مراكز أساسية لأسطوله الافريقي. أما أسطوله الأوروبي فكانت سفنه رابضة في موانيء صقلية.

وقد اتخذ المعز بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن، فأنشأ في المقس دار صناعة ضخمة وصفها المسبحي المؤرخ المصري المتوفى سنة ٤٢٠هـ بقوله: «إنه لم ير مثلها في البحر على ميناء». ويظهر أن المعز لم يهمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى «دار صناعة مصر» كما عني بإقامة دور صناعة السفن في موانيء مصر الهامة كالاسكندرية ودمياط.

(٤٣) المجالس والمسايرات للنعمان.

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً إلى خوف المعز من غارات الروم والقرامطة على مصر والشام فحسب، بل كان ذلك راجعاً أيضاً إلى رغبته في بسط نفوذه على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقاً يُغيرون منه على مصر. أضف إلى ذلك أنه حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر الأبيض ومن ثم ملأ المعز كثيراً من موانىء الشام الهامة مثل صور وعكا وعسقلان بالسفن الكثيرة المختلفة الأنواع وأهمها الشلنديات والمسطّحات والطرادات والعشاريات، (وهي من القوارب النهرية)، والحرّاقات.

وقد وصف المقريزي عناية المعز بالأسطول في هذه العبارة فقال: «لما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة، اشتد أمرهم بأخذ البلاد وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات، وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت في أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة».

وكان للأسطول أمير يدعى «قائد القواد» وقد سمي بذلك لأنه كان تحت إمرته عشرة قواد، كما كان يُطلق عليه أمير الجيش والمُشتوفي. وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول، أن الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه ويساعده وزيره أو من يقوم مقامه. ولم يكن بحارة الأسطول من رتبة واحدة، فهناك جماعة تتقاضى راتباً قدره ديناران وأخرى تتقاضى ثمانية دنانير وثالثة عشرة دنانير ورابعة خمسة عشر ديناراً وخامسة عشرين ديناراً وسادسة خمسة وعشرين ديناراً. أما أمير الأسطول أو «مُقدّمه» فكان من كبار الأمراء والأعيان.

كما كان الخليفة يُقْطِع رجال الأسطول إقطاعات عُرفت باسم «أبواب الغزاة» وكان قائد الأسطول يُشرف عليه ويتناوب القواد العشرة الإشراف العملي فيأتمر الجميع بأمر القائد الذي تؤول الرياسة اليه.

ولكي يُشجّع الخليفة رجال الأسطول أو الغزاة، كما كانوا يُسمّونهم، كان يترك لهم من الغنائم المال والثياب والمتاع، ولا يستبقي سوى الأسرى والسلاح. وكانت الفسطاط من أهم مراكز الاسطول. وكان الخليفة يُشاهد بنفسه حفلة النفقة على الأسطول عندَ خروجه ويبارك رجاله ويدعو لهم بالتوفيق كما كان يحضر حفلة استقباله عند عودته.

وقد بلغ اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول أنهم اتخذوا لهم منظرة بالمقس يحتفلون فيها بتوديع الأسطول واستقباله. ويتضح ذلك من هذا الوصف الذي أورده المقريزي حيث

يقول: «ويتولى النفقة في غُزاة الأسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير، فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة فيتقدم إلى النقباء بإحضار الرجال وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة وفيهم من هو خارج عنهما فيجتمعون. وكانت لهم المشاهرة والجرايات في مدة أيام سفرهم، وهم معروفون عند عشرين عريفاً، ويقال لهم النقباء، واحدهم نقيب».

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش. ولا غرو فإن صاحب ديوان الجيش وهو المستوفي كان أمير الأسطول. وبذلك وضع المعز لدين الله أساس نظام البحرية في مصر، ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء. وليس أدل على اهتمام المعز بالأسطول من اعتماده على «ديوان الجهاد» أو «ديوان العمائر» كما كانوا يُسمّونه، في تنظيم شؤون الأساطيل ووقف الأموال الضخمة للانفاق على الأسطول ورجاله، وكثيراً ما كان المعز يمد هذا الديوان بالأموال الكثيرة من بيت المال.

وكذلك عني المعز بالأسطول التجاري لينقل السلع المصرية إلى البلدان الأخرى، ويعود مُحمّلاً بالسلع من هذه البلدان.

وقد عني الخليفة المعز بـ«ديوان الإقطاع» الذي كان تابعاً لـ«ديوان الجيش» وكان عمل صاحبه مقصوراً على النظر في الإقطاعات التي أقطعها رجال الجيش وبخاصة من الممتلكات الكثيرة التي كانت تابعة للاخشيديين من قبل.

وبهذا نستطيع أن نقول: إن المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مباركة». (انتهى ما أورده الكاتبان).

والواقع أن المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد أمل العرب والمسلمين وكانوا يتطلعون إليه من كل مكان، حتى من الأرض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه. فعندما شعرت مثلاً جزيرة كريت بالخطر الداهم، ولاحت لها طلائع الغزو من بعيد كان همها أن توصل نداءها إلى الرجل المأمول. ويحدثنا الدكتور حسن ابراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب **المجالس والمسايرات** للنعمان فيقول: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصوّر ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

وابن هانئ يدرك ذلك ويدرك أن ممدوحه أهل لما علق عليه من آمال فيقول:

لا تيأسوا فالله منجز وعده   قد ان للظلماء أن تتكشفا

ولقد كان المعز جادراً بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الأيام، فلم يدع الوقت يذهب عبثاً وادرك للوهلة الأولى انه امام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الأشد. لذلك صرف جهده أول ما صرفه إلى إنشاء اسطول ضخم يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطىء الافريقية الشمالية من أي غزو متوقع، وبذل لهذا الأسطول أقصى ما يستطيع بذله حتى أصبح أسطوله سيد البحر المتوسط، وحتى صار مُهدِّداً للأعداء بعد أن كان الأعداء مهددين، وحتى صاروا يخشونه بعد أن كانت البلاد تخشاهم.

وقد كان هذا الأسطول أعظم ما يمكن أن يصل إليه اسطول في ذلك العصر، مجهزاً بأحدث الآلات الحربية والأدوات النارية. فأثار هذا الاسطول حماسة الشاعر ابن هانئ الأندلسي ورأى فيه المخرج من الأخطار والحماية من الدوازل، وهاج فيه اعتزازه وحميته، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد الشعر العربي، وهي التي يقول فيها:

لك البر والبحر العظيم عبابه   فسيان أغمار تخاض وبيد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلح، مخاطباً المعز مشيراً إلى ما كان من تغلغل الروم قبل ذلك في بلاد الشام:

فلا غرو إن أعززت دين محمد   فأنت له دون الأنام عقيد
غضبت له إن ثل في الشام عرشه   وعادك من ذكر العواصم عيد
وقلت أناس ذا الدمستق شكره   إذا جاءه بالعفو منك بريد
تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة   وبأتيك عنه القول وهو سجود
إذا أنكرت فيها التراجم لفظه   فأدمعه بين السطور شهود
ليالي تقفو الرسل رسل خواضع   وبأتيك من بعد الوفود وفود

ويمضي الاسطول الفاطمي في أداء رسالته، وتجوب قطعه البحر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر، وتعلن سفنه بنفسها عن نفسها، ثم تلتقي على غير موعد بسفن الأعداء فلا تلبث أن تصطدم بها، وتتهاوى الفريقان في نار الوغى ويتجالدون اعنف جلاد، تحفز الروم ثارات متأصلة وأوتار دفينة، وتحفز العرب اخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم إلى الوطن العربي العزيز ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الأرض الطيبة، إذا هم تزحزحوا عن موقفهم أو تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين وينطلقون مهللين فتنجلي المعركة عن نصرهم البحري الحاسم في معركة المجاز التي نأخذ شيئاً من وصفها عن ابن

الأثير. قال وهو يتحدث عن أحداث سنة ٣٥٤ هـ: «... ذلك أن أحمد بن الحسن والي المعز على صقلية أرسل يستمده فبعث إليه المعز المدد بالعساكر والاموال مع أبيه الحسن. وجاء مدد الروم فنزلوا عبر سهل مسيني وزحفوا إلى رمطة، ومقدم الجيش الفاطمي الحسن ابن عمارة وابن أخي الحسن بن علي. فأحاط الروم بهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت ايديهم بالغنائم والأسرى، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب فل الروم من صقلية وجزيرة ريو في الأساطيل ناجين بأنفسهم فاتبعهم الأمير أحمد وأصحابه في الماء وأحرقوا كثيراً من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد..».

ويكون ابن هانئ مع قومه بكل شعوره وكل جوارحه، متلهفاً لمعرفة الخبر الاخير.

ولما بلغ اذنيه نبأ الفوز انطلق مزهواً متغنياً بالبطولات:

يوم عريض بالفخار طويل ... لا تنقضي غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به ... ولقد تبل الترب وهي همول
قل للدمستق مورد الجمع الذي ... ما اصدرته له قنا ونصول
سل رهط (منويل) وأنت غررته ... في أي معركة ثوى منويل[٤٤]
منع الجنود من القفول رواجعا ... تبا له بالمنديات قفول
وبعثت بالاسطول يحمل عدة ... فأثابنا بالعدة الاسطول
أدى إلينا ما جمعت موفراً ... ثم انثنى باليم وهو جفول
ومضى يخف على الجنائب حمله ... ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل
لم يتركوا فيها بجعجاع الردى ... إلّا النجيع على النجيع يسيل
نحرت بها العرب الاعاجم إنها ... رمح أمق ولهذم مصقول

ثم يتحدث عن المعز:

وجلا ظلام الدين والدنيا به ... ملك لما قال الكرام فعول
متكشف عن عزمة علوية ... للكفر منها رنة وعويل
فلو أن سفنا لم تحمل جيشه ... حملت عزائمه صبا وقبول

(٤٤) بلغ من اهتمام الأمبراطور نقفور فوكاس بمحاربة الفاطميين، أنه أعدّ أسطولاً ضخماً ملأه بالمؤن والذخيرة، وأعدّ جيشاً يقرب من خمسين ألف رجل مجهّزين بأحسن آلات الحرب وأمّر عليه رجلين أحدهما منويل، وكان يمتّ إليه بصلة القرابة، فانهزم الجيش والأسطول هزيمة كاسحة.

يجلو البشير ضياء بشر خليفة ... ماء الهدى في صفحتيه يجول
لله عينا من رأى اخباته ... لما اتاه بريدها الإجفيل
وسجوده حتى التقى عفر الثرى ... وجبينه والنظم والإكليل
لو ابصرتك الروم يومئذ درت ... أن الإله بما تشاء كفيل
إن التي رام الدمستق حربها ... لله فيها صارم مسلول
نامت ملوك في الحشايا وانثنت ... كسلى وطرفك بالسهاد كحيل
تلهيك صلصلة العوالي كلما ... ألهت أولئك قينة وشمول

وتتكرر معارك الاسطول وتتكرر انتصاراته فيحرص الشاعر على الإشادة بالأسطول:

وسفن إذا ما خاضت اليم زاخرا ... جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب
تشب لها حمراء قان اوارها ... سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

ثم يشير إلى اعتماد عبد الرحمن الناصر الأموي حاكم الاندلس على الروم واستنصاره بهم على قومه وبني جنسه الفاطميين الذين كانوا يكافحون الروم كفاحاً مريراً، انضم فيه عبد الرحمن الناصر الاموي إلى الروم فيقول ابن هاني مخاطباً المعز:

لقيت بني مروان جانب ثغرهم ... وحظهم من ذاك خسر وتتبيب
وعار بقوم أن أعدوا سوابحا ... صفونا بها عن نصرة الدين تنكيب
وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوهم ... بحيث تجول المقربات اليعابيب
وجيشك يعتاد الهرقل بسيفه ... ومن دونه السيم الغطامط واللوب
يخضض هذا الموج حتى عبابه ... إذا التج من هام البطاريق مخضوب

وتلتقي جيوش الروم وأساطيلهم بجيوش الفاطميين البرية وأساطيلهم أكثر من مرة وتقع المعارك البرية والبحرية في أوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمى بانتصاراتهم ديار الاسلام والعروبة فيقول ابن هاني مشيراً إلى أن الروم كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط، تجوب فيه اساطيلهم وتصول بلا رقيب ولا منافس، وإلى أن جيوشهم البرية كانت كذلك:

لو كان للروم علم بالذي لقيت ... ما هنئت أم بطريق بمولود
ألقى الدمستق بالأعلام حين رأى ... ما انزل الله من نصر وتأييد
فقل له حال من دون الخليج قنا ... سمر واذرع ابطال مناجيد

ثم يخاطب المعز مشيراً إلى ما كان عليه الروم من تسلط على البحر، ثم ما آل إليه الأمر من سيطرة الأسطول الفاطمي:

ذموا قناك وقد ثارت أسنتها — فما تركن وريدا غير مورود

حميته البر والبحر الفضاء معا — فما يمر بباب غير مسدود

قد كانت الروم محذورا كتائبها — تدني البلاد على شحط وتبعيد

وشاغبوا اليم الفي حجة كملا — وهم فوارس قارياته السود

فاليوم قد طمست فيه مسالكهم — من كل لاحب نهج الفلك مقصود

هيهات راعهم في كل معترك — ملك الملوك وصنديد الصناديد

وقال الدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف في كتابهما **المعز لدين الله** بعد أن وصفا تحرش عبد الرحمن الناصر الأموي حاكم الاندلس بالفاطميين ثم هزيمته أمامهم: «وكان رد الناصر على جرأة المعز بطيئاً فلم يقدم على الانتقام كما أقدم المعز، بل قام في العام التالي (٣٤٥هـ) بمظاهرة بحرية على سواحل افريقية وعمل في الوقت نفسه على الاستعانة بالروم فتحالف معهم. حقيقة استغل الامويون عداء البيزنطيين للفاطميين فاتفق الناصر مع قسطنطين الثامن قبل ذلك الوقت (٣٣٨هـ) وعقدت معاهدة بين الفريقين. على أنه لا يبعد أن تكون هذه المعاهدة قد اشتملت على نص يتعلق بموقف كل من هاتين الدولتين من الدولة الفاطمية، بدليل أن الروم قد لبوا نداء الناصر (الأموي) وعملوا معاً على أن يحصروا الفاطميين: هؤلاء من الغرب وأولئك من الشرق وفي ذلك يقول النعمان في **المجالس والمسايرات**: «بعد أن كتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة وأهدى إليه هدايا وارسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك. وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أمية من الاندلس». وقد ذهب ابن عذارى إلى القول بأن الناصر استطاع أن يخرب إحدى موانيء شمالي افريقية وأمر بلعن الفاطميين على منابر الأندلس. ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يحقق ما كان يرمي إليه، إذ «خرج إليهم أهل تلك الناحية فقتلوا منهم بشراً كثيراً وهزموهم، فمات في البحر منهم أكثر ممن قتلوه، وغنموا ما كان معهم من السلاح»[٤٥].

وكذلك أخفق البيزنطيون في صراعهم مع الفاطميين. وقد صور النعمان في **المجالس والمسايرات** هذه الحروب بهذه العبارة: «وأقبل أسطول الروم فلقي أسطول أمير المؤمنين دون صقلية، ففتح الله لوليه على الروم فهزمهم في البحر وقتل رجاله منهم خلقاً عظيماً وولوا هاربين بين يدي اسطوله إلى مجاز رية[٤٦] ليحموا بلدهم، واتبعهم إلى ما هنالك

(٤٥) المجالس والمسايرات للنعمان.

(٤٦) هو الخليج الذي يفصل بين صقلية وإيطاليا.

فلقوه في البحر فهزمهم فنزل عسكر البر بأرضهم فأنكى بالقتل فيهم واحرق مواشيهم وبلغ غاية الأمل من النكاية. وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين بأموال عظيمة وهدايا جليلة ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض قلورية على مال قطعه على نفسه يؤديه عنهم، وأسرى من أسارى أهل المشرق يطلقهم في كل عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة فيها».

ويمضي الكاتبان قائلين:

وهكذا كان مصير ذلك الصراع أن أخفق الناصر الأموي من الناحيتين الحربية والسياسية، ولذلك لجأ ـ كما تقدم ـ إلى الحط من شأن الفاطميين في بلاده وسبهم من فوق المنابر حتى لا تضيع هيبته أمام سلطان المعز ونفوذه. وليس هذا كل ما قام به الخليفة الأموي الناصر في سبيل مناوأة الفاطميين، بل عمل على مهادنة مسيحيي الشمال ومصالحة ملك ليون حتى يتفرغ للصراع مع الفاطميين. ويقول الكاتبان بعد أن يتحدثا عن انتصارات الفاطميين على الروم في صقلية وقلوريا:

وهكذا انتهى الدور الأول من هذه الحروب التي شنها المعز لدين الله على الروم في صقلية وقلورية إلى هذا النصر المؤزر، وزال خطر الروم عن هذه البلاد إلى حين. على أن الامبراطور قسطنطين لم يقف مكتوف اليدين أمام المعز فاتفق مع عبد الرحمن الناصر الأموي على محاربة الفاطميين في صقلية ـ على ما رأينا ـ وعلى مهاجمة افريقيا نفسها من الشرق، في الوقت الذي يهاجمها فيه عبد الرحمن الناصر الاموي من الغرب. ولكن جيوش المعز استطاعت أن تحبط هذا المشروع الخطر وانتصرت على الروم في البحر الابيض كما انتصرت على الأمويين. واضطر الامبراطور البيزنطي إلى طلب الصلح بعد أن حلت به هذه الهزائم المتتالية.

ثم يقول الكاتبان: وقد بلغ من اهتمام الامبراطور نقفور فوكاس (٣٥٢ ـ ٣٥٩هـ / ٩٦٣ ـ ٩٦٩م) الذي أراد أن يتشبه بمن سبقه من الأباطرة البيزنطيين في الاتجاه نحو الغرب، ليشغل الفاطميين خاصة عن التطلع إلى بلاد المشرق، بلغ من اهتمام هذا الامبراطور بمحاربة الفاطميين أنه أعد أسطولاً ضخماً ملأه بالمؤن والذخيرة واختار له مشهوري قواده وأعد جيشاً يقرب من خمسين الف رجل مُجهّزين بأحسن آلات الحرب وأمر عليه رجلين احدهما مانويل وكان يمت إليه بصلة القرابة. وكان الروم يعتقدون أن النصر معقود لهم، ولا عجب فإن صقلية لم يدخلها من قبل جيش بلغت قوته قوة هذا الجيش البيزنطي، على ما ذكره ابن الاثير.

أما جهود المعز لدين الله وأنصاره في صراعهم مع نقفور فوكاس وأنصاره من أهل صقلية فتتجلى في إعداد احمد بن الحسن الكلبي والي صقلية الاسطول الصقلي (الفاطمي) اعداداً كاملاً وفي إعداد جيوشه البرية وتوزيعها على موانىء صقلية الشمالية والشرقية وفي ذلك المدد الذي أمد به المعز واليه على هذه الجزيرة. وقد وصل أسطول الفاطميين إلى الجزيرة في منتصف سنة ٣٥٣هـ (٩٦٤م).

ثم أطنب الكاتبان في وصف المعارك التي أشرنا إلى بعضها فيما تقدم.

ويقول الكاتبان عن العوامل التي حدت بالفاطميين إلى التقدم إلى بلاد الشام أن منها: أن المعز أدرك رغبة الروم في أن يرثوا الدولة العباسية التي دب اليها الوهن، فقد عبروا الفرات واستولوا على بعض مدن الشام، فعمل المعز على فتح هذه البلاد ليحول دون تقدم الروم جنوباً.

ثم يقولان: كان ذلك يرجع إلى رغبة الفاطميين بالوقوف في وجه الروم حتى لا تعود بلاد الشرق الأدنى وجميع شمال افريقيا إلى حوزة الروم. ولا نغالي إذا قلنا إن الروم الذين اتحدوا مع الأمويين في الأندلس واخفقوا في هجومهم على بلاد المغرب في عهد المعز (سنة ٣٤٤ هـ)، رأوا أنهم يستطيعون القضاء عليه بفتح بلاد الشام، واتخاذها جسراً يعبرون منه إلى المغرب، وهذا العمل من جانب المعز يدل على بعد نظره في السياسة لأنه يجعله يحرص على نفوذه في بلاد المغرب ومصر، وهو يحول دون تقدم الروم في بلاد الشام.

من وقائع الاسطول الفاطمي

وسجل ابن القلانسي في كتابه **ذيل تاريخ دمشق** بعض وقائع الفاطميين وبعض ما قامت به أساطيلهم خلال الاحتلال الصليبي لبلاد الشام. قال في احداث سنة ٤٩٦هـ: في أول شهر رمضان خرجت العساكر المصرية (الفاطمية) من مصر والأسطول في البحر مع شرف الدولة ولد الافضل شاهنشاه وكتب في استدعاء المعونة على الجهاد ونصرة العباد والبلاد بنفاذ العسكر الدمشقي فأجيب إلى ذلك وعاقت عن مسيره أسباب حدثت وصوادف صدفت ووصل اسطول البحر ونزل يافا آخر شوال وأقام أياماً وتفرق الاسطول والعساكر إلى الساحل وكانت الأسعار بها قد ارتفعت والأقوات قد قلت فصلحت بما وصل مع الاسطول من الغلة ورخص الاسعار إلّا أن غارات الافرنج كانت متصلة عليها.

وفي أحداث سنة ٥٠١هـ ذكر ما يلي:

وفي هذه السنة نهض بغدوين في عسكره المخذول من الافرنج نحو ثغر صيدا فنزل

عليه في البحر والبر ونصب البرج الخشب عليه ووصل الأسطول المصري (الفاطمي) للدفاع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية.

وفي أحداث سنة ٥٠٢هـ ذكر ما يلي:

... وصل عقيب ذلك الأسطول المصري (الفاطمي) ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل واهله. ووصل إلى صور في يومه الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها. وأقام بالساحل مدة وفرغت الغلة في جهاتها...

وفي أحداث سنة ٥٠٣هـ ذكر ما يلي:

وشرع الافرنج في عمل البرج ونصبه على سور بيروت فحين نجز وزحفوا به كسر بحجارة المنجنيق وأفسد فشرعوا في عمل غيره، وعمل ابن صنجيل برجاً آخر، ووصل في الوقت من أسطول مصر (الفاطمي) في البحر تسعة عشر مركباً حربية فظهروا على مراكب الافرنج وملكوا بعضها ودخلوا بالمسيرة إلى بيروت فقويت بها نفوس من فيها من الرعية. وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها إلى بيروت أربعون مركباً مشحنة بالمقاتلة فزحف الافرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال ونصبوا على السور برجين واشتدوا في القتال فقُتل مُقَدّم الأسطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الافرنج من ما تقدم وتأخر اشد من حرب هذا...

وفي احداث سنة ٥٤٦ هـ ذكر ما يلي:

في هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المصري (الفاطمي) إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العدد والعدة وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرجال. ولم يخرج مثله في السنين الخالية وقرب من يافا من ثغور الافرنج فقتلوا وأسروا واحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدة وافرة من مراكب الروم والافرنج ثم قصدوا ثغر عكا، وفعلوا فيه مثل ذلك وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية وقتلوا من حجاج وغيرهم خلقاً عظيماً وأنفذوا ما أمكن إلى ناحية مصر وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وفعلوا فيها مثل ذلك.

وفي أحداث سنة ٥٤٨هـ ذكر ما يلي:

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر (الفاطمي) إلى عسقلان وقويت نفوس من بها

بالمال والرجال والغلال وظفروا بعدة وافرة من مراكب الافرنج في البحر وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها والزحف بالبرج إليها.

إلى غير ذلك من الأحداث التي يتعذر تعدادها.

الشعر في معارك الظفر

ابن هاني الاندلسي شاعر الفاطميين

من حسن حظ الأدب العربي أنْ قد رافق معارك الظفر التي قادها سيف الدولة الحمداني والمعز لدين اللّه الفاطمي شاعران عبقريان. ولن نقول عن المتنبي شاعر سيف الدولة شيئاً، فهو مالىء الدنيا وشاغل الناس في عصره وفي كل العصور حتى هذا العصر. ولكن لا بد من كلمات قصار عن الشاعر الآخر شاعر المعز، محمد بن هاني الاندلسي الذي بلغ من تفاخر مواطنيه به، سواء في منبته بالأندلس أو في مهجره بشمال افريقية، أن سموه متنبي المغرب، كما سموا بعد ذلك ابن زيدون: بحتري المغرب، على عادتهم في محاولة مُماشاة المشرق في كل شيء.

ولقد رأينا فيما تقدم نموذجاً من شعر ابن هاني في وصف الأسطول، وكل قصائده في وصف المعارك لا سيما البحرية منها على هذا النسق المتألق المتوثب، حتى لقد كان جديراً بأن يحمل اسم متنبي المغرب. والموضوع الذي حلق فيه متنبي المشرق هو الموضوع الذي حلق فيه متنبي المغرب، وهو المعارك الظافرة والبطولة العربية الهادرة.

وكانت شهرة ابن هاني قد امتدت إلى المشرق حتى وصلت إلى المتنبي نفسه، وقيل إن المتنبي كان عازماً بعد فراق سيف الدولة على التوجه إلى المغرب فلما بلغته قصيدة لابن هاني مطلعها:

تقدم خطى أو تأخر خطى ... فإن الشباب مشى القهقرى

عدل عن عزمه وقال: لقد سد علينا ابن هاني طريق المغرب. ولم يحدد المؤرخون الذين رووا هذا القول زمن هذا العزم، ولم يوضحوا هل كان قبل ذهابه إلى كافور أو بعد مفارقته له.

ومهما كان من امر فإن القصة تدل على تهيب المتنبي من مجاورة ابن هاني. ومن المؤسف أن الحياة لم تطل بابن هاني. فقد اغتيل وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين، وكان اغتياله وهو يهم باللحاق بالمعز إلى القاهرة. ولقد خسر الشعر العربي خسارة كبرى بموت

ابن هاني قبل أن يصل إلى مصر، فلو وصلها ورافق المعز في حياته المصرية وما حفلت به من امجاد لترك تراثاً شعرياً رائعاً.

ولقد تألبت على ابن هاني قوى شتى عملت جاهدة على طمس اسمه وتشويه أمره وإخمال ذكره، ولقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ بعيد، ولست الآن في صدد الإشارة إلى هذه القوى.

إذا كان المدح قد فرض على الشعر العربي فأصبح الشاعر ولا حيلة له إلّا صوغ المدائح ليستطيع العيش فقد كانت حظوظ الشعراء في هذا السبيل مختلفة، مختلفة لأن شاعراً قد يوفق لممدوح لا يخجله مدحه لبطولة فيه أو سجايا حميدة، ومما لا يبدو معه الشاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضح الاستجداء...

كما قد لا يوفق شاعر آخر لمثل هذا الممدوح، وقد يكون في مجموعه أولى بالذم والتجريح منه بالثناء والمديح. ومع ذلك فالشاعر مسوق إلى مدحه مدفوع إلى الإشادة به لأن الرزق في يديه، والمال رهن كلمته.

على أن حظ الشاعر الواحد قد يختلف بين ممدوح وآخر، فحظ المتنبي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عند كافور. وإذا كانت قصائد المتنبي في سيف الدولة هي في أصلها مدحاً، فإنها أيضاً إعجاب ببطولة البطل العربي الصامد في وجه الغزو الأجنبي، المكافح عن الحمى الوطني. والمعارك التي شهدها المتنبي مع سيف الدولة جديرة بأن توحي إليه بمثل ما أوحت حتى ولو لم يكن المتنبي يقصد المدح أو لم يكن الكسب من غاياته.

والأمر مع المتنبي يجري على هذا القياس حتى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلك العصر مثلما كان يزري مدح كافور. فالمتنبي وهو يمدح عضد الدولة كان في موقف غير موقفه وهو يمدح سيف الدولة؛ واذا كان عضد الدولة من الملوك الذين لا مغمز فيهم، وله من المآتي ما يصح معه أن يكون ممدوحاً، فهو على كل حال ليس في وضع يشبه وضع سيف الدولة وهو لم يكن الجندي المقاتل للعدو الخارجي، ولا وضعته الاحداث في لهوات الحرب الوطنية فما يمكن أن يوحي به لشاعر كالمتنبي يستطيع أي أمير أن يوحي بمثله.

ومن هنا تراجعت قصائد المتنبي في مدح عضد الدولة عن قصائده في مدح سيف الدولة، وقد كان هذا التراجع واضحاً لكل ذي حس شعري، واعترف به المتنبي نفسه.

والواقع أن ما كان يهز المتنبي هو ما شهد في معركة الحدث مثلاً مع سيف الدولة فيتطلقه بهذا القول:

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعرف أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ... وجيش المنايا حولها متلاطم
وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضّاح وثغرك باسم
ومن طلب الفتح الجليل فإنما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

هذا ما أيضاً لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتز له المتنبي، وبالعكس من ذلك، عندما مست قلب المتنبي عاطفة جياشة فرأى جمال الطبيعة في شعب بوان، ثم لم يسمع في تلك المغاني لسانه العربي، عاد متأثراً لما يرى ويسمع، ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبدع ما أبدع.

ومن الشعراء الذين وُفِّقوا لممدوح جدير بمدحهم الشاعر محمد بن هاني الاندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي الذي أطلق عليه معاصروه لقب متنبي المغرب.

وربما كان ما يجعل ابن هاني جديراً بهذا اللقب هو أن مواضيع مدح ابن هاني للمعز هي عين مواضيع مدح المتنبي لسيف الدولة. فقد كانت ظروف كلا الممدوحين متشابهة، وكان كلاهما مندفعاً لمقاومة الخطر الخارجي المهدد للبلاد الإسلامية يومذاك بل إن مسؤولية المعز كانت أكبر، فهو مسؤول عن جبهة طويلة ممتدة على مدى شواطىء أفريقيا الشمالية كلها، ثم هو مسؤول عن الجزر الإسلامية المهددة وفي طليعتها جزيرة صقلية.

ولم يكن الوضع الإسلامي والوضع العربي يومذاك مما يقوي العزائم ويشحذ الهمم، بل كان شمل العرب والمسلمين ممزقاً واختلافاتهم مشتدة لا الهدف يجمعهم ولا الخطر يوحدهم.

وكان الأجنبي الطامع يعرف ذلك كله، وكانت نار الانتقام متأججة في نفوس البيزنطيين (الروم) الذين لم ينسهم تطاول الأيام ذكريات هزائمهم الماضية عن بلاد الشام وغيرها، وكانوا يحنون للعودة إليها من جديد. بل إن نقفور فوقاس الثاني كان يهدد بالاستيلاء حتى على المدينة ومكة واستطاع تحقيق الكثير من أمانيه وفي ذلك يقول ابن هاني:

أسفي على الأحرار قل حفاظهم ... لو كان يُجدي الحر أن يتأسفا
يا ويلكم أنما لكم من صارخ ... إلّا بثغر ضاع أو دين عفا

حتى لقد رجفت ديار ربيعة وتزلزلت أرض العراق تخوفا
فمدينة من بعد أخرى تستبي وطريقة من بعد أخرى تقتفي
والشام قد أودى وأودى أهله إلّا قليلاً والحجاز على شفا

هذه صرخة وطني مناضل يرى بلاده تتساقط أمام ضربات الأعداء، ويرى قومه متخاذلين، هذه صرخة وطني مناضل أكثر منها نغمة شاعر مداح.

والواقع أن المعز لدين الله كان في ذلك العهد أمل العرب والمسلمين وكانوا يتطلعون إليه من كل مكان، حتى من الأرض البعيدة عنه غير الخاضعة لسلطانه. فعندما شعرت مثلاً جزيرة (كريت) بالخطر الداهم، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيد كان همها أن توصل نداءها إلى الرجل المأمول. ويُحدّثنا الدكتور حسن إبراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب المجالس والمسايرات للنعمان فيقول: «وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصري الأموي على الروم في صراعه مع الفاطميين، وصور ما حل بالروم وحلفائهم أمام أساطيل المعز تصويراً رائعاً، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته. ولأول مرة نسمع أن مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم. ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين أهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت إليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ».

وابن هانئ يدرك ذلك ويدرك أن ممدوحه أهل لما عُلّق عليه من آمال فيقول:

لا تيأسوا فالله منجز وعده قد آن للظلماء أن تتكشفا

لقد كان المعز جديراً بالظرف الحرج الذي وضعته فيه الأيام، فلم يدع الوقت يذهب عبثاً وادرك للوهلة الأولى أنه أمام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الأشد. لذلك صرف جهده أول ما صرفه إلى إنشاء اسطول ضخم يتناسب مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطيء الأفريقية الشمالية من أي غزو متوقع، وبذل لهذا الاسطول أقصى ما يستطيع بذله حتى أصبح اسطوله سيد البحر المتوسط، وحتى صار مهدداً للأعداء بعد أن كان الأعداء مهددين، وحتى صاروا يخشونه بعد أن كانت البلاد تخشاهم.

وقد كان هذا الأسطول أعظم ما يمكن أن يصل إليه أسطول في ذلك العصر مجهزاً بأحداث الالات الحربية والأدوات النارية. فأثار هذا الأسطول حماسة الشاعر ورأى فيه المخرج من الاخطار والحماية من النوازل، وهاج فيه اعتزازه وحميته، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد الشعر العربي:

لك البر والبحر العظيم عبابه فسيان أغمار تخاض وبيد
وما راع ملك الروم إلّا اطلاعها تنشر أعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب كأنه لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها وسما لها بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشم لولا انتقالها فمنها قنان شمخ وريود
من الطير إلّا أنهن جوارح فليس لها إلّا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج كما شبّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق وأفواههن الزافرات حديد
لها شعل فوق الغمار كأنها دماء تلقتها ملاحف سود
تعانق موج البحر حتى كأنه سليط لها فيه الذبال عتيد

ثم يصف وصول وفود الروم متذللة تطلب الصلح، مخاطباً المعز مشيراً إلى ما كان من تغلغل الروم قبل ذلك في بلاد الشام:

فلا غرو إن أعززت دين محمد فأنت له دون الأنام عقيد
غضبت له إن ثل في الشام عرشه وعادك من ذكر العواصم عيد
وقلت أناس ذا الدمستق شكره إذ جاءه بالعفو منك بريد
تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة ويأتيك عنه القول وهو سجود
إذا أنكرت فيها التراجم لفظه فأدمعه بين السطور شهود
ليالي تقفو الرسل رسل خواضع ويأتيك من بعد الوفود وفود

ويمضي الأسطول العربي في أداء رسالته، وتجوب قطعه البحر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر، ويتهاوى الفريقان في نار الوغى ويتجالدون أعنف جلاد، تحفز الروم ثارات متأصلة وأوتار دفينة... وتحفز العرب أخطار منتظرة وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم إلى الوطن العربي العزيز ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الأرض الطيبة، إذا هم تزحزحوا عن موقفهم أو تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين وينطلقون مهللين فتنجلي المعركة عن نصرهم البحري الحاسم في معركة المجاز. ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه، متلهفاً لمعرفة الخبر الأخير ولما يبلغ أذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهواً بالبطولات:

يوم عريض بالفخار طويل لا تنقضي غرر له وحجول[٤٧]

رأينا فيما تقدم انهيار الدولة الحمدانية بعد سيف الدولة فتمهد الطريق أمام البيزنطيين ليتقدموا في شمال بلاد الشام ويحتلوا فيه المدن ويبسطوا سيادتهم على أجزاء منه كما سيطروا على كيليكيا، بل لقد غزوا شمال العراق وعبروا نهر دجلة. ولم يكن باستطاعة الفاطميين الاقوياء أن يعملوا شيئاً على الجبهة المشرقية، لأن بينهم وبينها أماداً واسعة لا سلطة لهم عليها. ثم إذا بهم على أبواب المشرق ثم يصبحون جزءاً منه، وإذا بهم وجهاً لوجه مع البيزنطيين في المشرق كما هم معهم في المغرب، فجعلوا همهم الأول استرجاع ما استولى عليه البيزنطيون من المدن الشامية. وحاولوا أول الأمر إجلاء البيزنطيين عن أنطاكية التي كان قد استولى عليها نقفور فوكاس سنة ٣٥٨هـ، ولكن القوى البيزنطية كانت أكثر كثافة مما قدّرت مُخابرات الفاطميين وكانت تفوق قواتهم عدداً واعداداً، فإن البيزنطيين عرفوا خطورة سقوط انطاكية فضلاً عن أنها مدينة البطاركة والقديسين، لذلك اعتبرت منافسة بيزنطية من الناحية الدينية. لهذا حشدوا للدفاع عنها قوى لم تكن في تقدير الفاطميين، ففشل الجيش الفاطمي في استردادها، واغتنم الامبراطور البيزنطي حنا زيمسكس هذا الفشل وتقدم بجيوشه سنة ٩٧٥م من أنطاكية إلى حمص ومنها إلى بعلبك، وخافت دمشق مغبة مقاومته فخضعت ودفعت له الجزية، كما سلمت له طبريا وقيسارية، وكان مصمماً على الوصول إلى القدس، وهكذا يكون هذا الامبراطور البيزنطي ثاني من يفكر من اباطرة بيزنطية، في استرجاع القدس من المسلمين، بعد المفكر الأول نقفور فوكاس الثاني، وهكذا تكون بيزنطية قد سبقت الصليبيين في التخطيط للنفاذ إلى القدس.

ويبدو جلياً من استعراض الأحداث أن الفاطميين أدركوا نية حنا زيمسكس وصمدوا له فتراجع عن محاولة الوصول إلى القدس وحول هدفه فاتجه إلى الساحل اللبناني مغتنماً فرصة حشد الجيوش الفاطمية في طريق القدس، فاستطاع الاستيلاء على صيدا وبيروت، ثم اتجه إلى طرابلس. وهكذا نرانا ونحن نقص هذا القصص، قد صرنا في صميم التاريخ اللبناني، وإن ما نقصه هو جزء من تاريخ هذا البلد الجريح.

لم يغفل الفاطميون عن نيات الامبراطور البيزنطي فاسرعوا لصده عن طرابلس والوقوف في طريق زحفه إليها، وعضدوا جيشهم البري المدافع عنها بأسطولهم الحربي، واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالبيزنطيين ورد حنا زيمسكس عن طرابلس وملاحقته حتى أخلى بيروت

(٤٧) تقدمت بقية الأبيات في بحث سابق.

وصيدا وكل ما استولى عليه من مدن الساحل اللبناني. وظلت الضربات الفاطمية تلاحقه حتى ردته إلى انطاكية.

ولما حاق به الفشل عاد آيباً إلى القسطنطينية مقهوراً حيث توفي في أوائل سنة ٩٧٦م.

هنا نفتقد المتنبي ونفتقد ابن هاني، هنا نفتقد الشاعر العربي الذي يتغنى بالظفر العربي ونتلفت فلا نجد في الساحة من يقول في حنا زيمسكس المهزوم المقهور اللائذ من بطولات الفاطميين بعاصمته ما قاله المتنبي في برفاس فوكاس حين فر من المعركة جريحاً في وجهه وترك ابنه أسيراً فيها ثم لاذ بالدير:

نجوت باحدى مُهجتيك جريحة وخلفت احدى مهجتيك تسيل
أتسلم للخطية ابنك هارباً ويسكن في الدنيا اليك خليل
بوجهك ما أنساكه من مرشة نصيرك منها رنة وعويل

أو ماقاله ابن هاني في نقفور فوكاس بعد معركة المجاز البرية البحرية:

يوم عريض بالفخار طويل لا تنقضي غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام ادمعها به ولقد تبل الترب وهو همول

أبو العلاء المعري

قلت إنا افتقدنا الشاعر العربي الذي يعيش بشعره المعارك العربية الظافرة، فلم نره بعد المتنبي وابن هاني، فهل كانت الساحة العربية خالية من عباقرة الشعر؟

الواقع أنها لم تكن خالية، فقد كان فيها أيام تلك الاحداث شاعر العرب الفريد أبو العلاء المعري، ولكن هل كان باستطاعة أبي العلاء أن يسد فراغ الشاعرين الحماسيين؟

إنه رهين المحبسين، سجين في سجنين رهيبين، وماذا عسى الشاعر الحبيس أن يفعل؟

إنه لم يكن مستطيعاً أن يمتطي الجواد ويجرد السيف ويمشي إلى جنب القائد فيشارك في المعركة ويراها عن كثب فينفعل برهجها، كما كان يحدث للمتنبي مع سيف الدولة... ولا كان مستطيعاً أن يواكبها في احداثها متتبعاً لها ساعة فساعة فيضطرم بأنبائها، كما كان يحدث لابن هاني مع المعز.

إنه كان في محبسيه... ولكن المعري الذي عاش هموم شعبه، فأنطقته هذه الهموم بالشعر الثائر المثير، هل كان يمكن أن يكون بعيداً عما يجري على حدود الوطن، أو في

قلب الوطن من صراع بين حرية الوطن واستعباده... بين الأجنبي المنقض على الوطن، وبين المواطن المنقض على هذا المنقضّ؟

لم يكن هذا من طبعه، لهذا كان، وهو في محبسيه يعيش مع المناضلين في ميادين الحرب، يعيش معهم بحسه وعواطفه ووطنيته، إن لم يستطع أن يعيش معهم بجسمه وعينيه.

لذلك كان المعري شاعر النضال العربي المسلح في تلك الفترة الحرجة من حياة الوطن العربي.

كان الصوت الذي تغنّى ببطولات المقاتلين، وتحمس لوقائعهم، وحرض على اعدائهم.

المعريُّ الهادىء الرقيق القلب الذي يشفق على الحيوان المذبوح فلا يأكل اللحم، هو نفسه الذي يقولُ وقد سمع بجولات فرسان العرب ذياداً عن وطنهم:

فوارس قوالون للخيل أقدمي ... وليس على غير الرؤوس مجال
لهم أسف يزداد إثر الذي مضى ... من الدهر سلماً ليس فيه قتال
بأيديهم السمر العوالي كأنما ... يشب على اطرافهن ذبال

ها هو المعري ينقلب بعد الرفق واللين أسداً هصوراً يستطيب مرأى الدم الفوار، ويستعذب تخيل الفوارس جوالة فوق الرؤوس المضرجة بالنجيع الأحمر!

ويأسف على أيام السلم الوادعة التي انطوت بلا قتال تزهق فيه النفوس وتطيح الهامات!

هل المعري هو الذي يتكلم؟ أجل هو المعري بلسانه العلق وبيانه الفياض!

إذا كانت الانسانية هي التي أوحت للمعري أن يقول للذين ذبحوا له (الفروج) وأنضجوه وقدموه له ليأكله في مرضه الذي أنحله: «استضعفوك فوصفوك... هلا وصفوا شبل الأسد...» ثم يمتنع عن أكله استفظاعاً لتخيل دمه المراق!

إذا كانت الانسانية هي التي رققت قلب المعري، فإن الوطنية هي التي قست ذلك القلب الرحيم، فجعلت الدم المراق عنده أجمل منظر وأعذب مرأى!

دم الأعداء الذين لم يتورعوا عن اقتحام وطنه واستباحة أرضه وترويع أهله وتشريد سكانه!

ثم يشتد في القول فيخاطب الغزاة مُهدّداً متوعداً بمواصلة الحرب:

بني الغدر هل ألفيتم الحرب مرة ... وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل طلعت سحم الليالي عليكم ... وما حان من شمس النهار زوال

وهل طلعت شعث النواصي عوابسا رعال ترامى خلفهن رعال
لها عدد كالرمل المبد على الحصا ولكنها عند اللقاء جبال
فإن تسلموا من سورة الحرب مرة وتعصمكم شم الأنوف طوال[٤٨]
خذوا الآن ما يأتيكم بعد هذه ولا تحسبوا ذا العام فهو مثال

ثم يعود إلى ذكر الدماء بعد أن يصف الخيل العربية واثبة بفرسان العرب، وإن تلك الخيول الظامئات لن يكون الماء موردها، ولن يرويها إلّا دماء الروم:

يردن دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال

وفي قصيدة أخرى يندد بالانهزاميين الذين يخوفون المواطنين بأس الروم ويحث قومه على الثبات:

أيوعدنا بالروم ناس وإنما هم النبت والبيض الرقاق سوام

ويذكر مواطنيه بانتصاراتهم السابقة على الروم وأن ما يوعدهم به الانهزاميون لن يكون مصيره بأفضل:

كأن لم يكن بين «المخاض» و «حارم» كتائب يشجين الفلا وخيام
ولم يجلبوها من وراء ملطية تصدع اجبال بها وأكام
كتائب من شرق وغرب تألبت فرادى أتاها الموت وهو توام
بيوم كأن الشمس فيه خريدة عليها من النقع الاحم لثام
كأنهم سكرى اريق عليهم بقايا كؤوس ملؤهنّ مدام
فاضحوا حديثاً كالمنام وما انقضى فسيان منه يقظة ومنام

ويبدو أن البيزنطيين (الروم) قد أرسلوا يفاوضون على الصلح وإنهاء الحرب مما لم يعجب المعري لأنه يريد أهداف أُمته كاملة ولو أدى الأمر إلى ما يمكن أن يؤدي إليه من الضحايا الكثيرة: قتلى وجرحى. وهنا نرى المعري داعية حرب لا هوادة فيها، حرب تسيل فيها الدماء أي مسيل؛ فهو يخاطب المفاوض العربي بهذا القول الصريح ويحدد له الموقف المطلوب:

وردوا اليك الرسل، والصلح ممكن وقالوا على غير القتال سلام
فلا قول إلّا الضرب والطعن عندنا ولا رسل إلّا ذابل وحسام
فإن عدت، فالمجروح توسى جراحه وإن لم تمد متنا ونحن كرام
فلسنا وإن كان البقاء محبباً بأول من اخنى عليه حمام

(٤٨) يقصد بها الجبال.

هذه صفحات من تاريخنا النضالي كان فيها الشعراء مع الفرسان جنباً إلى جنب في كفاح الغزاة، تاريخنا النضالي الذي أطلق شاعراً وديعاً رقيق القلب عطوف النفس من محبسيه وأعاده من الدعوة إلى الهدوء والحنان والتعاطف، إلى الصخب والقسوة والعنف، من داعية سلام إلى داعية حرب عنيف الدعوة صارمها.

وإذا كان إعجابنا بالمعري المسالم الهادىء العطوف عظمياً، فإن إعجابنا بالمعري المحارب الثائر الحاقد الدموي أعظم.

عمارة اليمني والقاضي الفاضل

شخصيتان أدركتا أواخر العهد الفاطمي وأوائل العهد الأيوبي، شخصيتان متناقضتان في الأخلاق وفي الشرف.

الأولى تمثل الخلق الكريم في أعلى مراتبه، وأولى تلك المراتب هي: الوفاء. والثانية تمثل الخلق اللئيم في أحط دركاته وهي الغدر.

عاش في مصر في ذلك الزمن الشاعر عمارة اليمني، ولم يكن على مذهب الفاطميين، ولكنه كان مُخلصاً للحق، معترفاً بالفضل لأهله، منصفاً للمخلصين. وقد رأى بأم عينيه فضائل الفاطميين، وما أسدوه لمصر وللعالم الإسلامي من خير، ثم شهد زوال دولتهم، وما جناه الطغاة من تعفية آثار الفاطميين، وما ارتكبوه فيهم من جرائم، فلم يتملّق الحكم الجديد، ولم يتنكر لفضل من بادوا[٤٩]. بل رثى الدولة الفاطمية اشجى رثاء فقال من قصيدة طويلة:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حسن الحلي بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فان   قدرت من عثرات الدهر فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا   ينفك ما بين قرع السن والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل   سعيت سهلاً أما تمشي على مهل
لهفي ولهف بني الآمال قاطبة   على فجيعتها في أكرم الدول
مررت بالقصر والأركان خالية   من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد   من الاعادي ووجه الود لم يمل
أسلت من أسف دمعي غداة خلت   رحابكم وغدت مهجورة السبل

(٤٩) هو القائل في الفاطميين:
أناضلهم في الناس أنضال شيعة   وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

أبكي على ما تراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طلل
والخيل تعرض في وشي وفي شية ... مثل العرائس في حلي وفي حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ ... أطباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم ... حتى عممتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من احسانكم نعم ... لمن تصدر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا فمعقلها ... منكم وأضحت بكم محلولة العقل
تاللّه لم أوفهم في المدح حقهم ... لأن فضلهم كالوابل الهطل
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت ... ما كنت فيهم بحمد اللّه بالخجل
واللّه ما زلت عن حبي لهم أبداً ... ما أخر اللّه لي في مدة الأجل

ويعلّق المقريزي في خططه، ج ١، في الصفحة ٤٩٦، على هذه القصيدة ناقلاً قول ابن سعد:

«وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه اللّه وتمحلت له الذنوب».

وقال ابن سعد عن القصيدة ـ كما نقل المقريزي ـ: «لم يُسمع فيما يكتب في دولة بعد انقراضها أحسن منها».

ولهذا الشاعر عمارة موقف آخر يدل على ما طبع عليه من نبل ووفاء. وذلك أن نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين عندما قدم من الشام إلى مصر انزله ولده صلاح الدين قصر اللؤلؤة، وكان قصراً من أحسن قصور الفاطميين فبقي فيه حتى مات. واتفق يوماً أن حضر عند نجم الدين أيوب كل من الشاعر أبي سالم يحيى الاحدب بن أبي حصيبة، والشاعر عمارة اليمني، فانشد ابن حصيبة نجم الدين أيوب:

يا مالك الأرض لا أرضى لها طرفا ... منها وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل اللّه هذي الدار تسكنها ... وقد أعدت لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها ... فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفاً والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا

فقال عمارة يرد عليه:

أثمت يا من هجا السادات والخلفا ... وقلت ما قلت في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفاً حلوا بلؤلؤة ... والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وانما هي دار حل جوهرهم ... فيها وشف فأسناها الذي وصفا

فقال لؤلؤة عجبا ببهجتها وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهم بسكناهم الآيات اذ سكنوا فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه من البرية إلا كلّ من عرفا
لولا تجسمهم فيه لكان على ضعف البصائر للابصار مختطفا
فالكلب يا كلب اسنى منك مكرمة لأن فيه حفاظاً دائماً ووفا

ويعلق المقريزي في خططه على ذلك قائلاً: «فلله در عمارة لقد قام بحق الوفاء ووفى بحسن الحفاظ كما هي عادته، لا جرم أنه قتل في واجب من يهوى كما هي سنة المحبين فالله يرحمه ويتجاوز عنه» (الخطط، ج ١، ص ٤٦٩، طبعة مكتبة الثقافة الدينية).

والشخصية الثانية المناقضة لشخصية عمارة هي عبدالرحيم بن علي البيساني الذي اشتهر بلقب القاضي الفاضل.

لقد كان غير فاضل، وهو من الوصوليين الانتهازيين المنافقين عبيد كل سلطة وعملاء كل حكومة، وممن يسيرون في ركاب كل من يدفع لهم، وهم مستعدون لتغيير عقائدهم تبعاً لمصالحهم.

بدأ أمره في عهد الدولة الفاطمية كاتباً عند قاضي الاسكندرية وناظرها ابن حديد، ثم إن الوزير الفاطمي العادل رزيك بن الصالح، طلبه من الاسكندرية وعينه عنده في ديوان الانشاء، وظل يعمل في ديوان الانشاء في عهد الخليفتين الفاطميين، الفائز والعاضد.

وكان مما كتبه في ذلك متبنياً عقيدة الفاطميين في الإمامة قوله:

«... والحمد للّه الذي وصل النبوة بالإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة». ثم ينتقل بعد ذلك إلى الصلاة على محمد «وعلى أخيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المخصوص بأخوته» وعلى: «والأئمة من ذريتهما مصابيح الظلمات ومفاتيح الشكوك والشبهات» ثم يقول عن الخليفة الفاطمي الذي يتحدث عنه إن اللّه سبحانه قد «كشف له ما أستجنَّ تحت استار الأقدار، ووقف الخير والنصرة على آرائه وراياته. فهو المستشار المستخار».

ثم يتبنى يوم الغدير وهو من أهم ما يتبناه الفاطميون قائلاً: «ويقتدي في ذلك بسيد المرسلين في يوم الغدير».

هذا الذي كتب هذا القول للسلطة القديمة التي رفعته من الحضيض إلى منصبه هو نفسه الذي كتب لعدوتها السلطة الجديدة، كتب لها عن السلطة القديمة ما يلي:

«... والعدلة في شيع الضلال شائعة، ومزقوا كل ممزق ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً...».

لقد وضع القاضي الفاضل نفسه في خدمة السلطة الجديدة عبداً من أحقر عبيدها، كما كان قد وضع نفسه في خدمة عدوتها السلطة التي سبقتها عبداً من أخسّ عبيدها.

الفاطميّون في مواجهة البيزنطيّين والصليبيّين

في مواجهة البيزنطيين

إذا كان العاهل البيزنطي، (هرقل)، قد وقف بعد معركة اليرموك وما تلاها، على قمّة من قمم طوروس وتطلع إلى سوريا التي تمزقت فيها جيوشه، وتنهد تنهد الأسيف وقال: وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده...

إذا كان هرقل قد أيس من العودة إلى سوريا فان الذين تلوه بعد ذلك بقرون لم ييأسوا من ذلك وظلوا متشبثين به هدفاً لا سيما بعد أن انفرط نظام الدولة الكبرى، دولة أعدائهم، وعادت دولاً مقسمة تتنازع وتتقاتل، في حين كانوا هم قد تقووا واستفحل أمر بعضهم استفحالاً رأى فيه نفسه جديراً بالعودة إلى سوريا تحت رايات الظفر المؤزر.

فقد جاء قسطنطين ليكابينوس، ثم تلاه الأخوان، برداس فوكاس أولاً ثم نقفور فوكاس، وكل من هؤلاء الثلاثة كان يجمع إلى المطامح البعيدة، القوّة التي يرتكز عليها لتحقيق هذه المطامح، وفي رأس هذه المطامح أعظمها، أعني العودة إلى بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) واسترداد السيادة البيزنطية عليها.

ولكن تشاء المقادير أن تخلق من ذلك التمزق العربي كتلتين، تتماسك كل منهما تماسكاً محكماً، ويقود كلاً منهما قائد يجمع إلى الاخلاص، الكفاءة التي تعوز مواجهة المطامع البيزنطية.

فقد قامت في شمال افريقيا دولة الفاطميين، وقضت هناك على الكيانات الانفصالية وجمعتها كلها في كيان واحد متلاحم. كما قامت في الوقت نفسه في شمال بلاد الشام دولة الحمدانيين، وضمت إليها ما استطاعت ضمه من الاشلاء ومضت تشق طريقها شجاعة طماحة.

فوقت كان يتعاقب على حكم بيزنطية مَنْ عَدَدْناهم من قبل، ووقت كان قسطنطين

ليكابينوس يُعربد مُهدِّداً متوعداً، كان على رأس الدولة الحمدانية سيف الدولة، لا ينتظر تقدم عدوه إليه، بل يتحداه في عقر داره.

ثم يأتي برداس فوكاس ويقود الجيوش مقتحماً الأرض العربية على سيف الدولة، ويصمد له سيف الدولة فلا ينال برداس منه منالاً، بل يفقد في كل معركة العدد الخطير من جيشه وقواده، حتى يحيق به المصير الرهيب في معركة مرعش سنة ٣٣٢هـ (٩٥٣م) فيُجرح في وجهه ويقع ابنه قسطنطين أسيراً فيمن يقع من الأسرى.

ويكبر الأمر على برداس ويبلغ به الحزن مداه على أسر ولده، فلا يجد ملاذاً لخيبته وأحزانه إلّا الترهب ودخول الدير.

ويأتي شقيقه نقفور فوكاس الثاني وهو أشرس الثلاثة وأعتاهم، وقد كانت مطامحه متوازية مع شراسته وعتوه. وقد سبق له قبل توليه الملك أن قهر العرب حين كان قائداً عاماً للقوات البيزنطية البرية والبحرية في الجبهة الغربية، فانتزع منهم جزيرة كريت سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م).

ثم ازداد طموحاً وثقةً بالنفس بعد أن تولى المُلْك سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) بتزوجه ثيوفانو أرملة الامبراطور رومانوس وإعلان نفسه امبراطوراً. كان شعاره الوصول إلى القدس، فلقد تقدم وفتح طرطوس وخطب من على منبرها قائلاً إن هذه البلدة هي التي كانت تعوقه عن الوصول إلى القدس.

يقول الدكتور حسن حبشي في كتابه **الحروب الصليبية** وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام:

«وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م ـ ٣٦٥هـ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسملت بعلبك، وأراق الأفتكين صاحب دمشق ماء وجهه إبقاء على ولايته».

إلى أن يقول الدكتور حبشي في الحديث عن الفتح البيزنطي:

«على أن موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والإمارات الإسلامية لم تلبث أن توقفت منذ أواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين الذين أمدّوا الإسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح...».

لقد اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين اللّه الفاطمي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) إلى استعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام ليقضوا بذلك على الأخطار التي تهدد نفوذهم في هذه البلاد، وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي جهز جيشاً كبيراً لاسترداد أنطاكية من

الروم، ولكن الحملات الفاطمية التي أرسلت لإجلائهم عنها، فشلت في تحقيق هذه السياسة.

وأخذ البيزنطيون يواصلون شن غاراتهم على بلاد الشام، فتقدم الإمبراطور حنا زيمسكس في سنة ٩٧٥م من انطاكية إلى حمص، ومنها إلى بعلبك. واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له، كما سلمت له طبريا وقيسارية. ولكنه ما لبث أن عدل عن التقدم جنوباً لانتزاع بيت المقدس، وسار شمالاً حيث استولى على بعض المدن الساحلية مثل بيروت وصيدا. ولما حاول الاستيلاء على طرابلس، أوقعت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمي الهزيمة بقواته. ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية، وعاد الامبراطور إلى القسطنطينية حيث توفي في أوائل سنة ٩٧٦م.

ظل النزاع قائماً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى عام ٣٧٧هـ (٩٨٧م) حيث قَدِمَت إلى مصر رسل الامبراطور باسيل الثاني، تحمل هدية للخليفة العزيز، وتطلب عقد صلح بين الدولتين، واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب، فأجاب الخليفة الفاطمي طلب هؤلاء السفراء، واشترط للصلح عدة شروط منها:

١ ـ أن يُطلق البيزنطيون سراح مَنْ عندهم من الأسرى المسلمين.

٢ ـ أن يُدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية في خطبة الجمعة.

٣ ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات.

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير في وقف الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين، لأن أمير حلب لما علم بتوغل الفاطميين في بلاد الشام استنجد بامبراطور الروم باسيل الثاني فأمده بحملة، والتقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاصي، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ، وعاد القائد الفاطمي إلى دمشق لنفاد الأقوات، فاستاء العزيز لذلك وأمره بفتح حلب، وأرسل إليه المؤن فسار إليها في العام التالي وحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطر أميرها إلى الاستنجاد بالامبراطور مرة ثانية، وكتب إليه يقول: «متى أخذت حلب، أخذت انطاكية، ومتى أخذت انطاكية، أخذت قسطنطينية...».

لما رأى باسيل الثاني الخطر الذي يُهدّد بلاده من جراء هجوم الفاطميين على حلب، عول على السير إليها بنفسه، فاستولى على حصن شيزر، ثم فتح حمص، وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس. ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام.

وعندما وقف العزيز على مدى تقدم البيزنطيين في بلاد الشام، استقر رأيه على أن يسير

بنفسه لصد قواتهم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره بإنشاء أسطول يسير بحراً إلى طرابلس. ولم يكد يتم إعداد هذا الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران في ميناء المقس، وأحرقت منه ستة عشر مركباً، فثار المصريون بالروم الذين كانوا يقيمون على مقربة من دار الصناعة بالمقس، واتهموهم بتدبير مؤامرة إحراقه. وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التي حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول، وأمر بإنشاء أسطول آخر. ولما تم بناؤه أبحر إلى انطرطوس. غير أن معظم سفنه سرعان ما تحطمت في البحر على أثر هبوب عاصفة عليها. وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصري. أما الحملة البرية، فخرج على رأسها الخليفة العزيز إلى بلبيس. لكن المرض اشتد عليه فجأة، فتخلف بها وتوفي سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م).

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين، فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر اللّه الفاطمي سنة ٣٨٨هـ بزعامة رجل ملاح يعرف بعلّاقة، اتخذ عملة جديدة، نقش عليها هذه العبارة: «عزّاً بعد فاقة، للأمير علاقة»، أرسل برجوان الذي كان يلي وقتذاك الوصاية على هذا الخليفة، حملة كبيرة إلى صور فتصدى علّاقة في بادىء الأمر لصدها، واستنجد بالامبراطور باسيل الثاني فبعث إليه بامدادات في البحر. ورأى برجوان من ناحيته أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول الفاطمي. فحوصرت المدينة من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بتسليم المدينة المحاصرة وسقوطها في أيدي القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علّاقة الذي أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل.

وعلى الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين في شمال الشام فإن برجوان عول على مهادنتهم ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية في مصر، فأرسل إلى باسيل الثاني يقترح عليه عقد الصلح، فرحب الامبراطور بهذه الدعوة وأنفذ سفيراً إلى الخليفة الفاطمي يتفق معه على شروط الصلح. وبينما المفاوضات تدور في القاهرة، غزا باسيل بلاد الشام لوقف زحف القوات الفاطمية إلى انطاكية. وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذي لحق الامبراطور في هجومه الجديد، فارتد مسرعاً نحو أرمينيا وآثر استتباب السلم في حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار.

استؤنفت على اثر ذلك المفاوضات في القاهرة بين رجال الدولة المصرية والسفير البيزنطي. ولما تم الاتفاق على شروط الصلح، انتدب برجوان أرسطيس بطريرك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطي في سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الامبراطور وإقرارها منه، فقام أرسطيس بهذه المهمة، وتم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين

مصر والدولة البيزنطية، تقرر فيها ما يأتي:

١ ـ تظل الهدنة قائمة بين مصر والدولة البيزنطية مدة عشر سنوات.

٢ ـ يتمتع المسيحيون الذين يقيمون في أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبنائها.

٣ ـ يتعهد الامبراطور باسيل الثاني بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

على أن الامبراطور البيزنطي لم يلبث أن قطع علاقته بالدولة الفاطمية حين وصلته أنباء سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى، وظل الحال على ذلك إلى أن توفي هذا الخليفة سنة ٤١١هـ (١٠٢٠م) وخلفه ابنه الظاهر، فحاولت عمته ست الملك، التي قامت بالوصاية عليه، توطيد العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية. وتنفيذاً لهذه الرغبة، أرسلت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر الصداقة بين الدولتين وليخبره بالاجراءات التي اتخذت في القاهرة لرفع الحيف عن النصارى، وتجديد بناء الكنائس. بيد أن هذه السفارة لم تأت بطائل، وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م).

عندئذ أنفذ الظاهر سفارة إلى الامبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح، فتم الاتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطاً، التزم تنفيذها كل من الخليفة الفاطمي والامبراطور البيزنطي، وفيما يلي هذه الشروط:

١ ـ أن يسمح للامبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس.

٢ ـ أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا التي حولت إلى جوامع.

٣ ـ أن يعين الامبراطور البيزنطي بطريقاً في بيت المقدس.

٤ ـ ألّا يقوم الفاطميون بأي عمل عدائي نحو حلب، حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام ٩٧٠م.

٥ ـ ألّا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية وخاصة أهل صقلية الذين هددوا هذه الدولة وعاشوا في جزر بحر الارخبيل. وكان الامبراطور البيزنطي يخشى انضمام الاسطول الفاطمي إلى هؤلاء، فيتعذر عليه اخضاعهم.

وفي مقابل هذه الشروط، يتعهد الامبراطور بما يأتي:

١ ـ أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية.

٢ ـ أن يُعيد بناء جامع القسطنطينية وكان قد هُدم رداً على هدم كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمر اللّه.

٣ ـ أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في قبضة الروم.

٤ ـ ألّا يقدم الامبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي.

لم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح سنة ٤٢٢هـ وانضموا إلى بعض أمراء العرب في الشام الذين كانوا يعادون الفاطميين، فساروا مع حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة الذي لجأ اليهم بعد أن هزمه جند الخليفة الظاهر الفاطمي عند طبرية، وأغاروا على أفامية وغنموا منها مغانم كثيرة، واستولوا على قلعتها وأسروا كثيراً من أهلها.

على أن هذا التوتر الذي ساد العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين لم يستمر طويلاً، فعقد الخليفة المستنصر باللّه الفاطمي هدنة مع الامبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ (١٠٢٧م) وسمح له إتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الامبراطور سبيل الاسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد هذه الكنيسة.

ولما ولي قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين فبعث إلى الخليفة المستنصر باللّه، سنة ٤٣٧هـ هدية عظيمة «اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية».

استغل الخليفة المستنصر باللّه الفاطمي، فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية في دولته، فأرسل إلى الامبراطور قسطنطين التاسع ـ على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ يطلب منه أن يمده بأربعمائة الف أردب من القمح، فأظهر الامبراطور استعداده لمعونة مصر.

ولكنه لم يلبث أن توفي وخلفته الامبراطورة تيودورا، فاشترطت لتقديم هذه المساعدة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد[١] غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط، فأجابت تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

(١) كان المقصود بهذا المعتدي السلاجقة، لرفض المستنصر الوعد بمساعدة البيزنطيين على السلاجقة. ولكن السلاجقة استغلّوا ذلك وتقرّبوا إلى تيودورا، فشتّان بين الموقفين.

أثارت سياسة هذه الامبراطورة غضب الخليفة المستنصر وعول على محاربتها، فجهز جيشاً تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، وما لبث هذا القائد أن نزل بالقرب من أفامية، ثم تجول في أعمال أنطاكية. فأرسلت الامبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ. وكان ذلك مما حمل الخليفة المستنصر على أن يعهد للقاضي عبد اللّه القضاعي بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، فلم تحفل الامبراطورة بوجوده، على حين رحبت برسول السلطان طغرلبك السلجوقي الذي قدم إذ ذاك من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس أن يصلي رسوله في جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك، فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر اللّه العباسي. ولما وقف المستنصر على سياسة الامبراطورة تيودورا العدائية إزاءه والاساءة التي لحقت بسفيره بعث يطلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها، فأرسلت إليه. وازداد بذلك التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين. وظل العداء مستمراً بين الدولتين إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام.

الزحف الصليبي(٢)

الراهب الفقير الزاهد بطرس، الفرنسي المولد الذي لبس الصوف الخشن وانقطع للعبادة في احدى المغارات، ثم عنّ له أن يترك ذلك كله ويقصد بيت المقدس لزيارة ما يعتقد أنه قبر المسيح ـ بطرس هذا يمكن أن يعتبر المحرِّك الحقيقي لما عُرف في التاريخ باسم الحروب الصليبية، فإنه لما وصل إلى القدس، ورأى بعينيه أنّ قبر المسيح في أرض تخضع لحكم غير نصراني، لم يكن من همه أن يتحقق عن حقيقة هذا الحكم، وعن التزامه باحترام المقدسات النصرانية، ورعايته لرجالها، بل كان همه الإصغاء بكل جوارحه إلى

(٢) الحروب الصليبية لم تلق من الباحثين العرب ما كان يجب أن تلقاه من الدراسات الموسّعة، ولم يُعْنَ المؤرّخون العرب بكتابة تاريخ مفصّل لها، على عكس الأوروبيين الذي كانت هذه الحروب موضع عناية باحثيهم ومؤرّخيهم وشعرائهم، سواء في القديم أو الحديث.

ومن أوسع ما كتب عنها في هذا العصر ما كتبه المؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه في كتابه: *Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem,* الذي نشره ما بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٨ في ثلاثة مجلّدات. ويمكن اعتباره أكبر موسوعة في هذا الباب منذ كتب: ويلكن Wilken وميشو Mihaud مؤلّفيهما الكبيرين في أوائل القرن التاسع عشر.

وقبيل الحرب العالمية الثانية تكونت لجنة من بعض أعضاء أكاديمية الدراسات الوسيطة الأميركية بالولايات المتحدة، لتنظيم مؤلّف كبير في خمسة مجلدات عن الحروب الصليبية، يشترك في تحرير فصوله جمهور كبير من الأخصائيين في تاريخ العصور الوسطى بأمريكا وأوروبا، ولكن حالت ظروف الحرب العالمية دون تحقيقه. ثم بُعِث المشروع من جديد بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وذلك تحت رعاية جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيا. وكان المقدّر أن يبدأ هذا الكتاب بالظهور سنة ١٩٥٠ ولم نعد ندري إلى أين انتهى أمره.

البطريرك سمعان وهو يحرضه على استنفار النصرانية في أوروبا لاسترداد قبر المسيح من سلطة المسلمين. فعاد إلى أوروبا قاصداً روما حيث قابل البابا أُربان الثاني، وأبلغه تحريض بطريرك القدس، واستثار في البابا كوامنه الحاقدة، فأمره البابا بالتجوال في أوروبا محرّضاً، داعياً.

امتثل بطرس لما أُمر به وركب بغله وحمل صليبه هاتفاً في المدن والقرى، في الشوارع والأزقة، في الأديرة والكنائس، في كل مكان يمكن أن يصل إليه ببغله، أو يدخله بقدميه، منادياً بالويل والثبور، غير مقتصر على الدعوة إلى إنقاذ المكان، بل إلى إنقاذ السكان، مصوراً حالهم بكل ما يمكن أن يسعفه به خياله من صور الإذلال والاضطهاد.

فنفر الناس إليه حيث كان يحل، مُقبّلين ملابسه، متوزعين للتبرك قطعاً من إكاف بغله، ونتفاً من شعرات الذيل والقوائم، مرسلين دموعهم مُصعّدين زفراتهم، معاهدين له بتقديم ما يملكون حتى حياتهم لإنقاذ أورشليم.

وإذا كانت الحروب الصليبية تُنسب إلى البابا أُربان الثاني، وإذا كان هو المنفذ الفعلي لها، فإن دور الراهب بطرس، الذي اشتهر باسم بطرس الناسك، هو الدور الأول فيها، وهو الذي استطاع إعداد النفوس وإثارة الحفائظ، مما سهّل أمر استجابة دعوة أُربان بعد مؤتمر كليرمون[٣] في فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م.

ومن الطرائف العجيبة أن بطرس الناسك هذا الذي أثار الناس ودعاهم إلى التضحية والفداء في سبيل المسيح وقبره، والذي يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبي الحركة الصليبية، إن بطرس هذا قد ولّى الأدبار منهزماً عند أول شدة نزلت بالصليبيين، وذلك عندما عنف عليهم حصار انطاكية سنة ١٠٩٨م، فتخلى عنهم بطرس وهرب.

على أنه لا بد من القول إن اندفاع البابا أُربان الثاني لم يكن اندفاعاً خالصاً لوجه النصرانية وحدها، بل لقد خالطته توجهات دنيوية، فإن البابا كان يتوجس من امتداد نفوذ النورمان[٤] فوجد طريقة للتخلص منهم وهي إثارة حماستهم الدينية وتوجيه هذه الحماسة إلى إنقاذ قبر المسيح. في حين أن الهوس الديني وحده هو الذي كان يسير بالراهب بطرس أنّى سار.

(٣) كليرمون: مدينة في جنوب فرنسا.

(٤) النورمان، أو رجال الشمال، أمة بحرية أصلها من النروج والدانمرك نزلت في القرن التاسع للميلاد على أوروبا الوسطى واستولت بالتدريج على قسم من فرنسا باسم نورمانديا، ثم انتصبت قهراً بجنوب ايطاليا وعلى الأخص في صقلية حيث أسست مملكة قوية مستقلة.

وبعد أن توثق البابا من نفاذ دعوة بطرس إلى القلوب، وأيقن من استحواذها على النفوس، دعا إلى مؤتمر كليرمون، ولكن الاستجابة إليه لم تكن بالقدر الذي قدّره البابا، فالأكليروس الألماني كان حضوره محدوداً، وحال ملك إنكلترا بين رجال الكنيسة وبين الذهاب إلى المؤتمر.

أما المتحمس القوي الحماسة لتلبية دعوة البابا فقد كان ملك فرنسا، إذ حث شعبه بكل طبقاته على حضور مؤتمر كليرمون. وكذلك تحمّس الجنويون البحريون للأمر وعرضوا تقديم السفن لحاجة الحملة العتيدة(٥).

ولم يكتف البابا أُربان بمؤتمر كليرون، بل تكررت دعواته متنقلاً في فرنسا من مكان إلى مكان عاقداً الندوات والمجامع، ملاقياً فيها الاستجابة. والتلبية، بعد أن شحنت النفوس بما شحنت به من استنهاض واستثارة وحقد.

وعلينا أن لا ننسى أنه كان هناك لطبقة معينة من الشعب دافع دنيوي مضافاً إلى الدافع الديني دعاها إلى أن تكون في طليعة المُلَبّين المُستجيبين.

هذه الطبقة هي التي كان يُلزمها نظام الإقطاع السائد يومذاك بملازمة أرض الاقطاعي، فرأت في مساهمتها بالحروب الصليبية تخلصاً من هذا الالتزام، وانعتاقاً مما تعانيه منه.

مضافاً إلى ذلك ما كانت قد عانته أوروبا كلها خلال عدة سنوات متتابعة من قحط نتجت عنه مجاعات وانتشار للصوصية، مما جعل المدن والقرى تضيق بأهلها، فأسرعوا للرحيل إلى البلاد التي قال عنها كتابهم المقدس إنها تدرّ سمناً وعسلاً.

وإذا كان جمهور المسارعين هو جمهور فرنسي، فقد جاءت جماعات من انكلترا والنمسا وإيطاليا وأسبانيا، ويجمع الجميع كونهم من الطبقة الدنيا الجاهلة الفقيرة.

وهنا لا بد من القول إنه تم للحركة الصليبية أمران كان لا بد لها منهما لنجاحها، فقد استطاع البابا أُربان أن يصوغ لها ما يمكن أن نطلق عليه اسم أيديولوجيا تحدد معالمها وتبلور أهدافها، ثم ما كان قد برز من طبقة الفرسان الإقطاعيين الذين كانوا قد تطوّروا وأضحت لهم خلال أحداث العصور الماضية مناقبية أخلاقية مشتركة عن الحدود السياسية سواء في الإقطاعيات أم الحكومات.

وكان البابا أُربان قد وجّه خطابه إلى هؤلاء الفرسان في كليرمون بما يشتركون فيه من

(٥) كذلك انضم إلى الجنويين أهل بيزا تحقيقاً لبعض المطامع، مما رأيناه، في حصار الأسطول لأرسوف وعكا.

سمات ونظم وأخلاق وظروف اجتماعية واقتصادية. وكان اعتماده عليهم، بل إنه لم يكن مطمئناً إلى جمهور العامة، ولم تكن به رغبة بتألبهم الجماعي على الاشتراك في الحملة، بل لم تكن تخطر له مسارعتهم الحاشدة التي تمت.

ويبدو ذلك جلياً في رسالته المؤرخة في ٦ تشرين الأول سنة ١٠٩٦م، الموجّهة إلى أتباعه في بولوني التي يجهر فيها بأن العامة الراغبين في الاشتراك في الحملة «... أشخاص غير مناسبين، لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب في هذه الحملة لأنهم يستطيعون كبح وحشية المسلمين...».

والسبب الذي جعل البابا أُربان غير راغب بالعامة هو ما كان يعرفه عن فقرهم وجوعهم، متوجساً من انشغالهم بالنهب والسلب في البلاد المسيحية التي سيجتازونها، هذا فضلاً عن أنهم لم يكونوا معدين للحرب، وهو يريد من تمرّسوا بالحرب، وكان ذلك موجوداً في الفرسان الإقطاعيين.

وقد كان الفرسان عند حسن ظن البابا بهم فاستجابوا له استجابة كاملة، مدفوعين إلى ذلك لا بالعامل الديني وحده، فقد كان لهم مثلما كان لغيرهم دوافع دنيوية. فالأزمة الزراعية في جنوب فرنسا وإيطاليا التي بدأت منذ سنة ٨٥٠م، ظلت تشتد حتى تفاقمت كل التفاقم سنة ١٠٠٠م إلى حد شهدت معه أوروبا مجاعات رهيبة.

ولم ينس البابا أُربان الثاني في كليرمون أن يذكر الفرسان بواقع الحال حين خاطبهم فيما خاطبهم فيه: «... هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال وتضيق بأعدادكم الكثيرة وهي لا تفيض بالثروات الكبيرة، وإنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها. وهذا هو السبب في أنكم تشنون الحرب بعضكم على بعض وتقتلون بعضكم بعضاً...».

وهكذا نرى أن البابا نفسه لم يلجأ إلى إثارة النوازع الدينية وحدها، بل جمع معها إثارة النوازع الدنيوية.

وقد كان فرسان الاقطاع في حال تؤثّر فيها إثارة هذه النوازع. ففي شمال فرنسا مثلاً كان حق الإرث محصوراً بالابن الأكبر، وفي إيطاليا وفرنسا جنوب نهر اللوار اعتمد عدم تقسيم الأرض بأشكال متنوعة من الملكيات الجماعية. هذا فضلاً عن أن طبقة الفرسان كان عددها يزداد باستمرار، ومهنة الفارس الاقطاعي الأساسية هي الحرب التي كان يتدرب على أساليبها منذ صباه.

وهكذا اجتمعت لهذا الفارس، الرغبة في ممارسة مهنته، والرغبة في تملّك الأرض في

البلاد المفتوحة، فأسرع إلى تلبية نداء المسيح كما صُوِّر له، جامعاً معه تلبية نداء المعدة!...

تقرر أن يكون انطلاق الحملة يوم الخامس عشر من آب سنة ١٠٩٦م، وكان الأصح أن نقول الحملات، لأنَّ الذين شاركوا لم يتجمعوا في مكان واحد انطلقوا منه، بل خرجوا على دفعات من أماكن متفرقة على أن يلتقوا في القسطنطينية ثم يمضوا في حملة واحدة.

والمدة بين انعقاد مؤتمر كليرمون في تشرين الثاني سنة ١٠٥٩م وبين تحديد موعد الانطلاق في شهر آب سنة ١٠٨٦م كانت مجالاً للبابا أربان الثاني للتجوال في غرب فرنسا وجنوبها متنقلاً من مكان إلى مكان داعياً للانضمام إلى الحملة المنتظرة عاقداً أحياناً المجامع، وملقياً أحياناً الخطب، مرسلاً الرهبان إلى كل ناحية دعاة لحملته.

وترددت أصداء الدعوة في الأراضي الواطئة وألمانيا وغرب إيطاليا، وهبَّ الفقراء الحفاة يدعون في كل مكان، فكان تأثيرهم في الجمهور أعظم وأكثر نفاذاً من تأثير الأساقفة وأمثال الأساقفة.

ومع طلائع ربيع سنة ١٠٩٦م عزمت الجموع على الزحف غير منتظرة الموعد الذي حُدِّد في شهر آب ١٠٩٦م فمضت أول جماعة بقيادة والتر فلم يكد يبلغ بجماعته بلغاريا حتى انطلقت هذه الجماعة في السلب والنهب، فقام البلغار يهاجمون القادمين ويقتلونهم حتى ألجأوهم إلى الغابات.

وكان بين الحملات الزاحفة حملة سار فيها فوشيه دو شارتر، وهو قسيس فرنسي استجاب لنداء تخليص القدس، وقد تفرد هذا القسيس بأنه سجل الكثير من وقائع رحلته، فاستطعنا بذلك التعرّف إلى الأحداث من وصف مشاهد لها. فهو حين يتحدث عن وصولهم إلى مدينة باري في إيطاليا، ثم عزمهم على ركوب البحر، واضطرارهم للتأخر حتى انقضاء فصل الشتاء تجنباً لمخاطر هيجان البحر، حين يتحدث فوشيه عن ذلك يقول فيما يقول: «في تلك الفترة وجد كثير من العامة أنفسهم بلا معين وخشوا من الحاجة في المستقبل، فباعوا سلاحهم وخلعوا ثياب الحج ورجعوا بنذالة إلى ديارهم، ولهذا حق عليهم احتقار الله وحل عليهم الخزي والعار».

وهكذا رأينا جماعة والتر، حين طال عليهم الطريق، يلجأون إلى السلب والنهب في بلغاريا المسيحية. ورأينا هنا، الجماعة التي فيها فوشيه تستبطيء الوصول إلى الغنائم فتسرع إلى بيع سلاحها، وخلع أرديتها المقدسة والعودة من حيث أتت.

استأنفت جماعة والتر سيرها حتى وصلت القسطنطينية، فلم يسمح لهم الامبراطور

البيزنطي بدخولها وأمرهم بالانتظار خارجها حتى وصول بطرس الناسك.

وكانت قد تجمعت حول بطرس هذا جماهير شعبية غفيرة، فقيرة بائسة فيها القليل من الفرسان المحاربين، وفيها العدد الأكبر من غير المحاربين رجالاً ونساءً وأطفالاً. ومضوا جميعاً من ألمانيا في ٢٠ نيسان سنة ١٠٩٦م يتقدمهم بطرس على حماره وخلفه الفرسان ثم العربات التي تجرها الثيران حاملة المؤن والأموال التي تبرّع بها الأثرياء استجابة لبطرس، ثم تلك الجموع العجيبة التي ضمّت فيما ضمت المجرمين والأفّاقين وبنات الهوى، وعندما وصلوا حدود المجر لم يعترض ملكها على عبورهم بلاده على أن لا يستفزوا أحداً. وعند حدود المجر مع بيزنطية في مدينة سملين أراق صليبيو بطرس الناسك دماء الألوف من أبناء سملين وعادت المدينة خراباً تغمرها الحرائق وتملأ شوارعها الجثث.

وبالرغم من أن نيكيناس القائد العسكري لمدينة نيش البيزنطية الحدودية كان حذراً من هؤلاء الحاملين شعار الصليب والمتسمين باسم هذا الصليب، فإن حذره لم يُنْجِ القرويين البيزنطيين من أن يحرق البطرسيون منازلهم بمن فيها من الناس، وأن يعملوا يد النهب والسلب. ولكن البيزنطيين كرّوا على جموع الناسك فقتلوا وأسروا واستطاعوا الاستيلاء على ما جمعه بطرس من تبرعات أغنياء غرب أوروبا، وآل أمر بطرس وجموعه إلى التشتت ثم عادت شراذمهم تتجمع متجهة إلى مدينة صوفيا، وفيها أبلغهم مندوب الامبراطور البيزنطي غضب الأمبراطور اليكسيوس كومينوس لما جرى، وطلبه بأن لا يمكثوا في أية مدينة بيزنطية أكثر من ثلاثة أيام.

وفي مطلع شهر آب سنة ١٠٩٦ م، كان ما تبقى من شراذم جيش بطرس الناسك قد وصل إلى أسوار القسطنطينية.

ولما تقابل الامبراطور البيزنطي وبطرس نصح الأول الأخير بعدم التوغل في البلاد الإسلامية قبل وصول الأمراء بجيوشهم، ولكن بطرس المتحمس أبى ذلك، ومضى بمن معه بعد أن فعلوا الأفاعيل في القسطنطينية سلباً ونهباً وحرقاً.

وفي آسيا الصغرى ساروا السيرة نفسها فكانت مذابحهم في مسيحييها مذابح مروّعة، ووصلت أخبار زحفهم إلى المسلمين فكان أن أعدوا لهم كميناً أوقعتهم فيه فوضاهم وجشعهم، فقتل والتر وهرب بطرس إلى القسطنطينية، وأجهز على الحملة كلها قرب مدينة قونية.

هكذا انتهى أمر ما عانى بطرس الناسك في جمعه وتكتيله مما يمكننا أن نطلق عليه: الحملة الشعبية، حملة الفقراء والفلاحين، انتهى أمرها إلى التمزق الكامل.

وفي هذا الوقت كانت أوروبا مشغولة بالإعداد لتتابع الحملات، وكان المتصدون للقيادة يجمعون حولهم طرازاً من الناس لا يختلف عمّا تجمع حول بطرس من الطبقات الشعبية الفقيرة والفلاحين، ولم يكن مصير هؤلاء بأفضل من مصير الحملة البطرسية، ولكن الإجهاز عليهم هذه المرة كان بأيدٍ مسيحية لا إسلامية. إذ أن ملك المجر (كومان) قرر الوقوف في وجه طغيانهم في بلاده فلم يثبتوا وتشتتوا.

راع أوروبا ما حلّ بالصليبيين الذين اعتبروا طليعة الزحف المقدس، وشمل الحزن جميع الأرجاء وكان ذلك باعثاً لا على الاستكانة، بل على التوعد بالثأر للذين تمزقوا بأيدي المسلمين تحت سماء الأناضول، وارتوت بدمائهم سهول آسيا الصغرى، فتقرر الزحف العام في الموعد الذي كان قد حدد له من قبل.

وفي أواخر صيف سنة ١٠٩٦م كانت جموع الفرسان متأهبة للمسير إلى فلسطين. وكانت جموعاً من نوع آخر غير نوع الجموع التي احتشدت حول بطرس الناسك، كانت مؤلفة من عدة جيوش مقسّمة إمّا بناءً على الجنس أو اللغة أو الروابط الاقطاعية.

فهناك الجيش الذي تولى قيادته غودفري دي بويون المؤلف من أبناء اللورين، وشمال فرنسا والألمان وشارك في قيادته بلدوين أخو غودفري.

والجيش الذي قاده روبرت كوتهوز ابن وليم الفاتح وأخو هنري الأول ملك ودوق نورماندي، ومعه زوج أخته ستيفن كونت بلوا، وكان فيه الفرسان القادمون من غرب فرنسا ونورماندي وبعض مناطق الشمال مضافاً إليهم الفرسان الانكليز من أتباع أخيه الملك، وكان في هذا الجيش أيضاً فوشيه الذي مرّ ذكره، والذي كتب وصفاً لرحلة هذا الجيش. والجيش الذي قاده ريمون السانجيلي كونت تولوز المؤلف من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال، وكان فيه اديمار أسقف لوبوي ممثل البابا.

والجيش الذي قاده هيو كونت فرماندبا شقيق ملك فرنسا فيليب الأول. وكان هذا الجيش أصغر الجيوش على أنه كان أولها وصولاً إلى بيزنطية، بعد أن كان أول الزاحفين، وخامس الجيوش كان الجيش الذي قاده بوهيموند النورمندي، والمؤلف من النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا.

أما الجيش الأول بقيادة غودفري فقد اتجه من ألمانيا براً إلى القسطنطينية، وسار الجيش الذي يقوده روبرت عن طريق إيطاليا مجتازاً جبال الألب، وفي مقاطعة لوكا لقيهم البابا وباركهم، ثم ساروا إلى بوليا للإبحار منها. وقد أثار مرور هذا الجيش في إيطاليا حماسة

الإيطاليين فانضمت إليه جموع منهم. وقد لقي هذا الجيش أهوالاً من عاصفة بحرية هبت عليه، ولم يصل منه إلى القسطنطينية إلّا شراذم.

وسار جيش ريمون السانجيلي من جنوب فرنسا مجتازاً جبال الألب وسهول لومبارديا متجهاً إلى الحدود اليونانية، وقد لقي هذا الجيش مصاعب جمة في دلماسيا، وكانت رحلته مضنية في البلقان، ويعد أكبر جيوش الحملة الصليبية الأولى.

أما جيش بوهيموند النورمندي فإنه ركب السفن في البحر الأدرياتيكي، ويبدو من وصف فوشيه للرحلة أنهم خرجوا من البحر إلى البر على بعد عشرة أميال من مدينة (دايرازو) ومنها مضوا براً عبر بلغاريا.

تلاقت الجيوش كلها على أبواب القسطنطينية، فاضطرب الامبراطور اليكسيوس كومينوس لمرأى هذا الحشد الكبير من المقاتلين الظامئين إلى الدم. وكان قد سبق له أن استنجد بأوروبا لتقيه من المد الإسلامي المتقدم في آسيا الصغرى، ولكنه لم يكن يحسب أن من يمكن أن ينجده سيكون بمثل هذه الكثافة والفظاظة، لذلك فقد عاد يفكر بمَنْ ينجده على من حسب أنهم سيكونون المنجدين[١].

فأول تدبير اتخذه كان أن منع القادمين من دخول القسطنطينية، وسمح لهم بإقامة المضارب خارجها، وأذن للقادة وبعض مرافقيهم فقط بالدخول إليها.

ثم إنه منعاً لاتفاق كلمتهم عليه، تعامل مع كل واحد من القادة على حدة، واختلف هذا التعامل باختلاف الشخص وظروفه، فأغدق الهدايا حيناً، ومنع المؤن حيناً، وبرز للقتال حيناً آخر.

وبذلك استطاع أن يحملهم جميعاً على أن يقسموا يمين الولاء لشخصه، وبالرغم من العداء المستحكم بين الأمبراطور وبين الزعيم النورماني بوهيموند فقد استقبل الامبراطور عدوه اللدود بكثير من الترحاب، ولم يلبث هذا الأخير أن أقسم هو الآخر يمين الولاء.

(١) بين المؤرخين خلاف حول استنجاد الأمبراطور البيزنطي بالغرب الكاثوليكي على المسلمين في أواخر القرن الحادي عشر، مثا يرى بعضهم أنّ هذا الاستنجاد أدّى إلى نهوض الحملة الصليبية الأولى. ويستند القائلون بوقوع الاستنجاد إلى الرسالة التي بعث بها الأمبراطور إلى روبرت كونت فلاندر (١٠٧١ ـ ١٠٩٣م) وإلى استنجاده بالبابا ضدّ السلاجقة. على أنّ الكونت ريان يشكّك في صحة هذه الرسالة فيتساءل مستكراً: أمن المعقول أن يطلب ألكسيوس النجدة من الغرب، وأن يطلبها بالذات من كونت فلاندر؟ وذهب في تحليل فكرة الرسالة إلى أبعد من هذا، فيرى إلى أنّ الأمبراطور لم يقصد بحال من الأحوال الاستغاثة بالغرب ضدّ الأتراك، وأنّ لفظ (الوثنيين) الوارد في رسالته إلى روبرت لم يعن به السلاجقة أبداً بدليل أنّ (حنة كومنين) ابنة الأمبراطور لم تسمّهم قطّ بهذا الاسم. ونكتفي هنا بما أوردناه دون الاسترسال في ذكر من يؤيّد هذا الرأي، أو يقف وسطاً بين الرأيين.

وكانت العقدة عند ريمون السانجيلي الذي كان يقود أكبر الجيوش، أنّه ومنذ دخوله الأرض البيزنطية لم يستقر الأمر بينه وبين الامبراطور على حال، حتى آل الوضع مرة إلى القتال ومرة إلى المفاوضة. وبتدخل القادة الصليبيين الآخرين أقسم ريمون على أن يحمي شرف الأمبراطور وحياته، ولكنه رفض أن يقسم يمين الولاء والتبعية كما فعل الآخرون.

على أن أهم ما في الأمر هو أن الامبراطور كان يطمح إلى عودة السيطرة البيزنطية على البلاد التي فقدتها، فوجد فرصته في وجود الجيوش الصليبية وحاجة هذه الجيوش إليه، فطالب القادة بأن يعدوه أن يعيدوا إليه جميع الأرض التي تسقط في أيديهم. فتعهدوا له بشرفهم ـ باعتبارهم فرساناً مسيحيين ـ وأقسموا بالأناجيل المقدسة برد كافة المدن والقلاع التي كانت من قبل تابعة لامبراطور القسطنطينية بمجرد استيلائهم عليها هي وبقية الأراضي التي تمتد حتى بيت المقدس.

ونريد هنا أن نستبق تسلسل الأحداث لنرى ما آل إليه أمر هذا التعهد عندما تم للصليبيين النصر.

لقد وصلتهم رسالة من الامْبراطور عندما كانوا لا يزالون في طريقهم إلى القدس، يقول فيها: «إنك تدري أنك وبقية الكونتات الإفرنج قد قطعتم يمين الولاء والاخلاص لي، وأنت يا بوهيمند أوّل من تنقضه باستيلائك على أنطاكية واللاذقية وغيرهما من المدن الأمبراطورية، فاخرج حالاً من هذه المدن إذا كنت راغباً عن إثارة حرب جديدة».

فأجابه بوهيمند: «إن الفرنجة لم ينقضوا عهدهم إلّا لأن ألكسيس نفسه قد أخلف عهوده معهم، ألم يقسم بمصاحبة اللّاتين في الحرب ومشاركتهم الخطر؟ لقد صادف المسيحيون العذاب في حصار أنطاكية دون أن ينهض الأمبراطور لمساعدتهم».

الشرق الذي كان يحلم هؤلاء الغربيون بالوصول إليه أصبحوا اليوم على أبوابه، ولم يبق بينهم وبين ولوجه إلّا خطوة واحدة. هذا الشرق الغامض المثير الذي كانت تتنازع نفوسهم في تذكره شتى النوازع؛ فمن دين ودنيا، ومن خيال وشعر، ومن أمجاد وسلطان، ومن كل ما يختلج في نفس الإنسان!...

ها هو الآن بين أيديهم، وها هي أقدامهم تتحفز لتدوس ترابه لأول مرة! وإذا كان هذا الشرق مطمح أبصارهم ومستودع أحلامهم، فلم يكن أقل من ذلك عند الأمبراطور البيزنطي، فهو لا ينسى أبداً أن راية بيزنطية هي التي كانت تظلله، وأن أسلافه القدامى هم الذين كانوا سادته، ثم هو الآن مرعوب من التقدم الإسلامي المنداح في آسيا الصغرى والذي يبدو أبداً متحفزاً للوصول إليه في عاصمته الكبرى.

لذلك فإنه بعد أن أمن شر الصليبيين واطمأن لقرب رحيلهم عنه، راح يهش في وجوههم ويبش، معانقاً لهم متقرباً إليهم، طالباً إليهم أن يكون من أهدافهم حمايته وبلاده من المسلمين، فوعدوه بأن يعيدوا إليه كل ما أخذه المسلمون من أرضه في آسيا الصغرى، وطلبوا إليه أن يتولى هو بنفسه قيادة الحملة الصليبية الزاحفة، ليظهر العالم الصليبي كله صفاً واحداً في الوصول إلى الهدف الأكبر: القدس.

ولكن الامبراطور اعتذر عن عدم قبول هذا الطلب وأمدهم بالمرشدين والأدلاء وببعض ضباط جيشه، وواصل إرسال المؤن والإمدادات إليهم.

ويجب أن لا ننسى بطرس الناسك الذي أهاب بجماهير العامة فاستجابت له، ثم أُبيدت أمام عينيه في سهول آسيا الصغرى، وكان من العجيب أن يسلم هو فلم يقتل في ذلك المعمعان الرهيب!

إن هذا الراهب كان يحسن الهروب، بقدر ما يحسن الإهاجة، فهو لم يكد يحس بالخطر الداهم حتى شمر عن ساقيه هارباً، لاجئاً إلى القسطنطينية تاركاً ساحة المعركة ملأى بجثث الذين أهاجهم وقادهم إلى هذا المصير المحزن، ثم سيكون أول الهاربين عندما يلمح اشتداد الأمر في أنطاكية. أما اليوم وقد رأى اجتماع الجيوش حول القسطنطينية، فقد عاودته الحماسة وارتدت إليه الشجاعة فسار مع تلك الجيوش.

يرى بعض المؤرخين أنه بالرغم من تبادل الود بين قادة الصليبيين وبين الامبراطور البيزنطي، وتهادي الوعود الجميلة على ألسنة الجميع، فإن الأمبراطور لم يكن في أعماق نفسه مطمئناً إليهم؛ وإنه لم يكن ليتمنى لهم النصر.

ويرى المؤرخ المصري سيد علي الحريري صاحب كتاب **الأخبار السنية في الحروب الصليبية** الذي طبع في القاهرة لأول مرة في شهر تموز سنة ١٨٩٩، يرى في الصفحة ٣٢ من الطبعة الجديدة التي صدرت سنة ١٩٨٨م «أن الامبراطور، كان الخوف لم يزل في نفسه، فلذلك أشار على غودفري بأن يكون مسير الجيش إلى آسيا من وراء البوسفور، وهكذا سافرت العساكر الصليبية من طرق وعرة أضاعت فيها زماناً طويلاً ذهب بحماستهم».

وفي السادس من شهر أيار سنة ١٠٩٧م كانت الجيوش الصليبية تشق آسيا الصغرى حتى وصلت أمام مدينة نيقية في هذا اليوم.

وكانت نيقية في ذلك الوقت عاصمة دولة سلاجقة الروم التي كانت في حوزة قلج أرسلان، وعند وصول الصليبيين إليها كان قلج أرسلان هذا غائباً عنها.

وإذا كانت نيقية محدودة عند البيزنطيين من صميم بلادهم، فقد كان جيش منهم مشاركاً للصليبيين في حصارها. ولما عاد قلج أرسلان إليها في الواحد والعشرين من الشهر نفسه، جمع قواته وهجم بها على المحاصرين، ولكن هجومه فشل، وفي ١٩ حزيران كانت المدينة تستسلم للجيش البيزنطي لا للصليبيين حذراً مما اشتهر عنهم من الوحشية والفظاعة.

وسواء استسلمت المدينة للصليبيين أم للبيزنطيين، فقد كان النصر في الواقع نصراً صليبياً شدّ من عزائمهم وقوى نفوسهم وحفزهم على السير قدماً إلى الأرض المقدسة التي ينشدون.

وقد راعى الأمبراطور البيزنطي استسلام المدينة لجيشه فحماها من النهب والسلب الذي كان يعد الصليبيون أنفسهم لهما، فأغدق على الصليبيين الهدايا والهبات تعويضاً لهم.

بعد نصر نيقية انقسمت الحملة الصليبية إلى قسمين: كان على رأس أحدهما بوهيموند ومعه تنكرد وروبرت أمير نورماندي، وعلى رأس القسم الثاني ريمون السانجيلي، ومعه أديمار مندوب البابا، وهيو، وروبرت كونت الفلاندر.

وبعد الهزيمة الإسلامية في نيقية تم تحالف بين قلج أرسلان وغازي بن الدانشمند، فاصطدمت قواتهما بالقوات الصليبية، فكان النصر للصليبيين. ولم يكن هذا النصر نصراً محدوداً، بل كان في الحقيقة نصراً حاسماً فتح الطريق أمام الصليبيين، وأنهى كل مقاومة منظمة.

وحين تستعرض البلاد الإسلامية، يومذاك، وترى المدى المترامي الذي تشغله، والعدد الجم من الناس الذين تحتويهم، تعجب للهوان الذي صارت إليه حتى لا تستطيع أن تجمع جمعاً يصد هذا الجمع المتدافع إليها، وهو بالنسبة إليها القلة أمام الكثرة!

ومهما كانت الحال فإنّ الواقع كان كما عبر عنه الدكتور قاسم عبده في كتابه **ماهية الحروب الصليبية** في الصفحة ١٢٤ حين قال: «ولكن الصليبيين من ناحية أخرى لم يكونوا في نزهة عسكرية، فقد كلّفتهم المقاومة التي اتخذت شكلاً يقترب من حرب العصابات كثيراً من الخسائر البشرية والمادية نتيجة هجمات الفرسان السريعة من رماة السهام، التي كانت تشيع الرعب في أوصال الصليبيين. أمّا المناخ فكان عدوهم الرئيسي، لا سيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام ونفاد المياه».

وقد وصف فوشيه الجيش الزاحف وتعدد أجناسه بقوله في الصفحة ٥١ من كتابه المترجم إلى العربية في طبعة ١٩٩٠: «فترى، من سمع خليطاً من اللغات في جيش

واحد كهذا؟ إذ اجتمع فيه الفرنجة، والفلمنجيون، والفريسيون، والجاليون، واللوبرجيون، واللوثارنجيون، والبافريون، والألمان، والنورمان، والإنكليز، والاسكتلنديون، والأوكتبانيون، والطليان، والداشيون، والأبوليون، والأسبان، والبريطانيون، والإغريق، والأرمن».

كانت وجهة الزاحفين أنطاكية. وبعد سقوط نيقية تم سقوط دوريلايوم (اسكي شهر) من السلاجقة. انفصل بلدوين عن الجيش الصليبي الرئيسي وتقدم نحو الرها واستولى عليها بالاتفاق مع حاكمها الأرمني توروس سنة ١٠٩٨م وأنشأ فيها أولى الدويلات اللاتينية. ومنها تقدم الفرنج إلى سميساط وسروج والبيرة وغيرها. فقامت لهم إمارة في حوض الفرات الأعلى بين مرعش في الشمال إلى منبج في الجنوب غربي الفرات، ثم تمضي شرقي الفرات فتشمل بهنسا والرها وسروج.

وكان تمركز بلدوين في الرها مما أعاق القائد السلجوقي كربوقا أمير الموصل عن الوصول في الوقت المفيد لنجدة أنطاكية التي كان يحاصرها الجيش الصليبي الرئيسي. ثم كان قيام هذه الإمارة تهديداً متواصلاً للموصل وما يتبعها مثل نصيبين وماردين وحران، وكذلك لديار بكر وما إليها من أعالي نهر دجلة، بل كان تهديداً أيضاً لشمال العراق كله. واعتبر بلدوين أنه حقق مهمته ونال بغيته فلم يعد يهمه ما يجري على الجيش الرئيسي الزاحف إلى أنطاكية.

وواصل هذا الجيش زحفه، وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول سنة ١٠٩٧ م، كان قد بدأ حصار أنطاكية، على أنها لم تكن لقمة سائغة فقد صمدت لهم صموداً طويلاً، فعادوا وكأنهم هم المحاصرون، وفي عيد الميلاد كانت المجاعة العامة بعض ما يشكون، فقرروا تشكيل فرق للسلب والنهب مما حولهم من القرى والدساكر والبلدات الزراعية. ولكن المسلمين من العرب والأتراك كانوا قد استعدوا للخطر فحصّنوا مناطقهم، وأحسنوا حراستها، فلم ينل الصليبيون منها منالاً، كما استطاع المسلمون أن يقضوا على فرق صليبية كاملة[٧]. وهنا بدأ الهروب، وكان في أول الهاربين ستيفن كونت بلو، وبطرس الناسك.

وإذا كان بطرس هذا قد ركب في تجواله التحريضي الطويل بغلاً أو حماراً على اختلاف الروايات ـ وإذا كان قد ركب الحمار وهو يزحف في طليعة المشاة المعدمين، ثم لا ندري ما ركب وهو يعاود الزحف مع الفرسان ـ فلا شك أنه لم يجد هنا عند أسوار

(٧) كان قوام كلّ فرقة من هذه الفرق يصل أحياناً إلى ما بين ثلاثمائة وأربعمائة فرد.

أنطاكية ما يركبه، فراح يطوي الأرض طياً على قدميه، ويركض ركضاً يتلفّت معه مذعوراً إلى الوراء!

صمدت أنطاكية وكان فيها بعض الأرمن، فاستطاع بوهيموند أن يتواطأ مع أرمني منهم على فتح البرج الذي يتولى حراسته من أبراج أنطاكية.

هذه رواية، ولكنها ليست الرواية الوحيدة، ونحن حفاظاً على الحقيقة التاريخية نورد ما ذكره المؤرخون من روايات غيرها: فابن الأثير في **الكامل** (ج ٨، ص ١٨٦) يذكر أن الخائن كان زراداً اسمه «زوربة»، وابن القلانسي في **ذيل تاريخ دمشق**، (ص ١٣٥ ـ ١٣٦) يذكر أن قوماً من أهل أنطاكية من حملة الأمير ياغي سيان من الزرادين «... عملوا على انطاكية وواطؤوا الفرنج على تسليمها لهم، لإساءة تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم...».

ويذكر ابن العديم في حوادث سنة ٤٩١ هـ (**زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ج٢، ص ١٣٣ ـ ١٣٤) أن ذلك الرجل كان يحمل ضغينة على ياغي سيان لأنه صادر أمواله. وفي الليل البهيم تمت الخطة فسقطت أنطاكية.

وهنا في اليوم الثاني أي في الرابع من حزيران سنة ١٠٩٨ م وصل كربوقا بجيشه.

هل كانت الخلافة الفاطمية قائمة عند دخول الصليبيين؟

من بين المصادر التي أعود إليها في الحديث عن الصليبيين كتاب **ماهية الحروب الصليبية** للدكتور قاسم عبده قاسم.

ومع أن هذا الرجل يعيش في اواخر القرن العشرين ويحمل دكتوراه جامعية فإنه لم يستطع التخلص من رواسب العصبيات، فهو يقول عند الحديث عن سقوط انطاكية ما هذا نصه: «وفي تلك الأثناء كانت تجري تغيرات هامة في الجانب الإسلامي إذ كانت الخلافة الفاطمية في مصر أفاقت من الصدمة التي سببتها الهجمات السلجوقية الأولى على أملاكها في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى ظن الفاطميون أن بوسعهم الافادة من الهجوم الصليبي. وكان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً للخليفة الفاطمي المستعلي، وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين، وهم أمام انطاكية، على اقتسام بلاد الشام ولم تثمر هذه المحاولة شيئاً».

وهذا القول هو بعض ما يقوله المفترون لا كله وهو من أخف ما يقولون، فما من أحد كتب في هذا الموضوع إلّا وحاول الدس والافتراء والبهتان.

ونحن نقول للدكتور قاسم ولمن سبقه ولمن سيلحق به هذا القول الموجز: هل

كان هناك خلافة فاطمية قائمة عندما وصل الصليبيون إلى أنطاكية، ثم دخلوها؟

إن الدكتور قاسم نفسه يجيب على هذا السؤال. إنه هو القائل فيما تقدم من كلامه: «كان صاحب السلطة الفعلية الأفضل بن بدر الجمالي وزيراً للخليفة الفاطمي المستعلي، وقد أرسل سفارة لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام».

إذاً باعتراف الدكتور قاسم أنه لم يكن للخليفة الفاطمي أية سلطة وأن صاحب السلطة الفعلية هو المتغلب الأفضل بن بدر الجمالي لا الخليفة المستعلي، وأن الافضل هو الذي أرسل السفارة. إذن لماذا حشر كلمة الخلافة الفاطمية في مفتتح القول وكلمة الفاطميين في ختامه.

فان كان هناك من مسؤولية فهي تقع على صاحب السلطة الفعلية مرسل السفارة، لا على الخليفة الفاطمي سجين قصره والمجرد من أية سلطة، على أن انتهاء سلطة الخلفاء الفاطميين كان قبل المستعلي، كان في أواخر عهد أبيه المستنصر. وإن من أفظع ما جاء في كلام الدكتور قاسم هو زعمه أن السفارة كانت لمفاوضة الصليبيين على اقتسام بلاد الشام.

هؤلاء الناس لا يخشون اللّه ولا الضمير ولا الاخلاق ولا شرف الكلمة، فيوغلون مدفوعين بعصبياتهم واحقادهم السوداء، يوغلون في الافتراء والتزوير فيختلقون ما طاب لهم الاختلاق، طمساً للحق واظهاراً للباطل!!

هكذا لخص الدكتور قاسم مهمة السفارة: (مفاوضة الصليبيين لاقتسام بلاد الشام)، هكذا لخصها، وجعل نفسه مسجلاً لمحاضر المفاوضات، وناطقاً باسم المتفاوضين معلناً أن المحاولة لم تثمر!!

هكذا وبكل بساطة قال ما قال، مدوناً في كتابه هذا الكلام الخطير، دون أن يقول لنا من أي مصدر استقاه، وعلى أي شيء اعتمد في هذا القول!!

إن المصدر الوحيد هو عصبيته...

وحقيقة مهمة السفارة هي ما قاله الدكتور محمد جمال الدين سرور، وهو ما ذكرناه في مكان آخر من الكتاب. والسفارة كانت من الأفضل الجمالي لا من الفاطميين.

عند مداهمة الخطر الصليبي للعالم الإسلامي، لم تكن هناك خلافة فاطمية في مصر، بل كان المسيطرون على الحكم هم من تغلبوا على الخلفاء وحجبوهم داخل قصورهم لا يملكون من الأمر شيئاً حتى في شؤونهم الخاصة.

لقد انتهت سلطة الفاطميين على مصر قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الإسلامي لا سيما بلاد الشام بربع قرن.

فإن بدراً الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦هـ وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠هـ، وسقطت انطاكية في أيديهم سنة ٤٩١هـ.

ويقول ابن الأثير عن سيطرة بدر: فلما كانت سنة ست وستين وأربعمائة ولي الأمر بمصر بدر الجمالي أمير الجيوش وقتل الدكز والوزير وابن كدية وجماعة من المسلمية وتمكن من الدولة إلى أن مات، وولي ابنه الأفضل (الصفحة ٨٧ من الجزء العاشر طبعة دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٦٦).

ويقول عن موته في أحداث سنة ٤٨٧هـ: توفي أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب الجيش بمصر وقد جاوز ثمانين سنة، وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه.

ثم يقول: ثم مضى أمير الجيوش إلى مصر وتقدم بها وصار صاحب الأمر (الصفحة ٢٣٥ من الجزء العاشر. طبعة دار صادر ودار بيروت سنة ١٩٦٦). على أن بدراً الجمالي لم يكتف بانهاء سلطة الخلافة الفاطمية والسيطرة على البلاد سيطرة كاملة تنتهي بموته، بل تعدى الأمر إلى ما يمكن أن نُسمّيه إنشاء اسرة مالكة جديدة إذا لم تحمل اسم الخلافة لاستحالة ذلك عليها، فقد كان لها جميع مظاهر وحقائق الاسرة المالكة من سلطة مطلقة واقامة ولاية عهد. فحين مات بدر الجمالي تولى بعده ابنه وولي عهده الأفضل الملقب شاهنشاه.

والمقريزي حين يتحدث عنه في خططه يقرّ هذه الحقيقة فيقول في ذلك: «فاستناب ولده شاهنشاه وجعله ولي عهده» (الصفحة ٣٨٢ من طبعة مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ).

ولنلاحظ تلقيبه باللقب الملكي شاهنشاه، وتسميته ولي عهد. ثم يواصل المقريزي الحديث عنه قائلاً: «وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبدّ بالامور».

ويقول: «وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر». ويقول عن إنهاء سلطة المستنصر والخلافة الفاطمية وقيام السلطة الجديدة سلطة بدر الجمالي: وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ست وستين وأربعمائة: وقيامه بسلطة مصر ما ذكر في ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة، فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجماً عن التصرف إلى أن مات سنة سبع وثمانين.

ثم يقول عن الأفضل بن بدر الجمالي: فلما مات المستنصر أقام الأفضل بن أمير

الجيوش الخلافة من بعده ابنه المستعلي باللّه أبا القاسم أحمد (الصفحة ٣٥٦ من الجزء الأول ولم يذكر تاريخ الطبع، نشر مكتبة الثقافة الدينية). ويقول في الصفحة ٤٢٣: لما مات المستنصر بادر الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي إلى القصر وأجلس أبا القاسم أحمد ابن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي باللّه (هو أصغر أخوته نزار وعبد اللّه واسماعيل).

وهكذا نرى أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي اختار الخليفة وأقامه مقام أبيه، لأنه هو الحاكم المسيطر.

وإذا كان بدر وابنه الأفضل لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين أنهما ألغياها عملياً، فلأنهما كانا يريدان غطاء شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ثم يقول المقريزي: ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة (الصفحة ٣٥٧ من الجزء نفسه).

وفي عهد المستعلي هذا الذي لم يكن له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى البلاد الإسلامية واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الأفضل. إذاً فلماذا تنسب أحداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟

إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين. ونكرر هنا ما قلناه من قبل من أننا لا نقول هذا لأننا نرى في تصرف الأفضل تقصيراً وضعفاً، أو شيئاً مما يؤاخذ عليه في موقفه من الصليبيين.

بل على العكس من ذلك نرى أنه قام بكل ما يستطيع القيام به في دفع الصليبيين عن الوطن الإسلامي. ووقف في وجههم بحزم وصلابة. فحاول أول الأمر دفعهم سلماً، بالمفاوضات كما نقول اليوم، ولما لم ينجح في ذلك قاتلتهم جيوشه أشد قتال وظلت تقاتل دفاعاً عن القدس سبعة أسابيع. وإذا كان الصليبيون قد تغلبوا عليها فقد تغلبوا على غيرها ممن هم أقوى منها.

أما الوسائل السلمية التي حاولها بدر الجمالي بعد سقوط أنطاكية وظهور الخطر الصليبي على أقوى صورة، وتهديد هذا الخطر للقدس وما في الطريق إليها من بلاد، أما هذه الوسائل فقد أوضحها الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق** (الصفحة٦٧).

قال الدكتور سرور: «ولما وصل إلى الحكومة الفاطمية[٨] في مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض في عقد اتفاق معهم يتضمن أن يتفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية على أن لا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم».

ومن هذا يتبين أنّ الأفضل بن بدر الجمالي لما رأى سقوط أنطاكية وانهزام قوى كربوقا أيقن أنّه لم يبق في طريق الصليبيين قوى إسلامية تستطيع التغلب عليهم والحؤول بينهم وبين الوصول إلى القدس، فحاول أن يقنعهم بالوقوف عند أنطاكية على أن تكون لهم حرية زيارة القدس أفراداً غير مسلحين وأن يغادرها من يزورها منهم في مدة أقصاها شهر.

وأحسب أن هذا أقصى ما كان يستطيع أن يفعله الأفضل من أجل القدس يومذاك، فأين هو موضع التجريح بهذا الرجل؟

ولما فشلت محاولته السلمية لايقاف الصليبيين عند أنطاكية استعد لحربهم، مع علمه بقوتهم وضعف قوته أمام حشودهم اللجبة، فقام واليه على القدس بتسميم الآبار وطم القنوات لئلا يستفيدوا من مائها، وأخرج النصارى من المدينة وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان. ويقول الدكتور حسن حبشي في كتابه **الحروب الصليبية** فيما يقول عن جيش الأفضل بن بدر الجمالي المدافع عن القدس: «وأدرك الصليبيون أنهم واجهوا هذه المرة خصماً يرى أن في ضياع بيت المقدس ضياعاً لهيبته السياسية وانتهاكاً لحرماته الدينية».

ثم يصف الدفاع البطولي عن القدس قائلاً: شرع الصليبيون في الهجوم مساء الأربعاء ١٣ يوليو ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) ووجدوا من الحاميات الإسلامية دفاعاً قوياً رغم ما استعدوا به من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وأخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الإغريقية». واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩م.

وبعد سقوط القدس واصل الأفضل قتالهم، وقاد حملة لاسترداد القدس في رمضان سنة ٤٩٢هـ (آب ١٠٩٩م) وصل بها إلى عسقلان، فلما بلغت أخبارها إلى جودفري في القدس

(٨) ينطلق الدكتور سرور مع رواسبه فينسب الأمر إلى الدولة الفاطمية، في حين أنّه هو نفسه ينسب الأمر بعد ذلك إلى الأفضل الجمالي.

أرسل على عجل رسولاً إلى تنكريد الذي كان في نابلس يستدعيه هو والقوات التي معه للمشاركة في دفع الخطر الداهم، كما استدعى بقية الأمراء الذين ساهموا في فتح بيت القدس يطلب إليهم الانضمام إليه للدفاع عن القبر المقدس هذه المرة، ولم يتخلف منهم أحد، على الرغم مما كان قائماً بينهم من خلاف يومذاك. وهكذا وحد الخطر بين جميع القوى الصليبية فتحشدت بأقصى ما تستطيع من تحشد ففشلت معركة استرداد القدس في تفاصيل ليس هنا مكان الخوض فيها.

لم يستسلم الأفضل بعد سقوط القدس للأمر الواقع ـ كما رأينا ـ بل ظل يقاتل الصليبيين ما وسعه القتال.

يقول المقريزي في خططه وهو يتحدث عن الأفضل: «وفي سنة اثنتين وتسعين ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس فخرج الأفضل بالعساكر وسار إلى عسقلان، فسار إليه الفرنج فقاتلوه وقتلوا كثيراً من أصحابه وغنموا منه شيئاً كثيراً وحصروه فنجا بنفسه في البحر وسار إلى القاهرة».

ويقول المقريزي أيضاً: وفي سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة.

ويقول ابن الأثير (ج ١٠ ص ٣٩٤، طبعة ١٩٦٦): سيّر الأفضل ولده شرف المعالي في السنة الحالية إلى الافرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم.

ويقول المقريزي في خططه (ج١ ص ٤٤٣): وكوتب الافضل بن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه إليهم، فلم يبق ممكناً من مال وسلاح وخيل ورجال واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بين يدي الخليفة مكانه وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج فوصل إلى عسقلان وزحف عليها بذلك العسكر ولكن الحملة لم تنجح.

وقال المقريزي أيضاً: (ص ٤٨٠ ج١): وذكر تجهيز العساكر في البر عند ورود كتب صاحبي دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك وركب الخليفة الآمر باحكام الله وتوجه إلى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة في اعلاه واستدعى مقدم الاسطول الثاني وخلع عليه وانحدرت الاساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والاسلحة.

وقال المقريزي: (ج١ ص ٢١٢): قال ابن المأمون البطائحي في حوادث سنة تسع وخمسمائة: ووصلت النجابون من والي الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى

اعمال الفرما، فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها ويسير الراجل من العطوفية وأن يسير الوالي بنفسه بعد أن يتقدم إلى العربان بأسرهم بأن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم في الليل قبل وصول العساكر إليهم فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي. فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان وطاردوا الفرنج وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة إليه وتحقق أن الاقامة لا تمكنه أمر أصحابه بالنهب والتخريب والاحراق وهدم المساجد فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد وعزم على الرحيل... إلى أن يقول: وأما العساكر الإسلامية فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان... ثم يقول: وتواصلت الغارات على بلاد العدو وأسروا وقتلوا...

وهذا ما يدل على أن الأفضل لم يهدأ، ولم يترك الصليبيين يهدؤون بل ظل يغير عليهم ويقاتلهم فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة، على حد تعبير المقريزي.

وإذا كانت القوى الصليبية المتدفقة من أوروبا هي أكثف وأقوى مما استطاع الأفضل حشده، وإذا كان لقوى الصليبيين إمداد دائم من الخارج، وليس للأفضل أي إمداد من العالم الإسلامي الواسع، فذلك ليس ذنب الأفضل بن بدر الجمالي.

وبالرغم من أن من جاؤوا بعد الفاطميين طمسوا كل ما يستطيعون طمسه من مآثر تلك العهود وما قيل فيها من الشعر والنثر فقد أمكن أن يصل إلينا بعض ما خلده الشعراء من مآثر الأفضل بن بدر الجمالي في جهاده للصليبيين؛ فمن ذلك قصيدة للشاعر أمية بن أبي الصلت يشير فيها إلى انصراف البلاد الاسلامية الأخرى عن مواجهة الخطر الصليبي، واقتصار تلك المواجهة على الأفضل وجيشه. وفيها يقول مخاطباً الأفضل:

جردت للدين والأسياف مغمدة ... سيفاً تفل به الاحداث والغير

ثم يشير إلى فشل حملة استعادة القدس:

وإن هم نكصوا يوماً فلا عجب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

العود أحمد والأيام ضامنة ... عقبى النجاح ووعد اللّه ينتظر

تدهور الدولة الفاطمية

أسباب التدهور

قبل الدخول في تفاصيل تولي الجمالي شؤون مصر لا بد من شيء من التعريف ببدء تدهور الدولة الفاطمية وتلاشي سلطة خلفائها. بدءاً من المستنصر الذي أخذت الخلافة في

القسم الأخير من عهده تضعف ثم انتهى امرها باستيلاء بدر الجمالي عليها.

طالت خلافة المستنصر ستين سنة واربعة أشهر؛ تحقق له في القسم الأول منها ما لم يتحقق لأحد من أسلافه، إذ خطب باسمه في بغداد بعد أن طرد منها الخليفة العباسي القائم بأمر اللّه واستمر ذلك سَنَةً في تفاصيل ليس هنا مكانها. كما أنه في أواخر عهده عند استبداد الناصر بن حمدان به، أقيمت الخطبة باسم القائم العباسي في القاهرة.

وفي القسم الثاني من عهده بدأ التضعضع بسيطرة بدر الجمالي، أو بما يمكن أن نسميه انتهاء العهد الفاطمي وحلول العهد الجمالي محله حكماً وسيطرة. فقد قامت فعلاً الدولة الجمالية، بكل ما للدول في تلك العصور من واقعية الحكم ومظاهره. وصار الخليفة سجين قصره محجوراً عليه بما نستطيع أن نطلق عليه بلغة العصر الحاضر اسم الاقامة الجبرية[٩].

ولم يكن في مصلحة الدولة الجديدة قتله أو طرده، بل كان من مصلحتها الاحتفاظ به اسيراً في يديها لاستغلال اسمه بما يمكن أن يستغل به.

الغلاء والوباء

يروي المقريزي في خططه (ج١ ص٣٣٥) قائلاً:

«إن السعر ارتفع بمصر في سنة ستّ وأربعين وأربعمائة وتبع الغلاء وباء فبعث الخليفة المستنصر باللّه أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين اللّه أبي الحسن علي إلى متملك الروم بقسطنطينية أن يحمل الغلال إلى مصر فأطلق أربعمائة ألف إردب وعزم على حملها إلى مصر، فأدركه أجله ومات قبل ذلك. فقام بالملك بعده امرأة وكتبت إلى المستنصر تسأله أن يكون عوناً لها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد فأبى أن يسعفها في طلبها فحردت لذلك وعاقت الغلال عن المسير إلى مصر فحنق المستنصر وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم، وسارت إلى اللاذقية فحاربتها بسبب نقض الهدنة وإمساك الغلال عن الوصول إلى مصر وأمدها بالعساكر الكثيرة ونودي في بلاد الشام بالغزو فنزل ابن ملهم قريباً من فامية وضايق أهلها وجال في أعمال أنطاكية فسبى ونهب فأخرج صاحب أنطاكية ثمانين قطعة في البحر فحاربها ابن ملهم عدة مرار وكانت عليه، وأسر هو وجماعة كثيرة في شهر ربيع الاول منها فبعث المستنصر في سنة سبع وأربعين ابا عبد اللّه القضاعي برسالة إلى القسطنطينية، فوافى إليها رسول طغرل بك السلجوقي من العراق بكتابه يأمر

(٩) يقول المقريزي (ص ٢٠٧): قدم بدر الجمالي إلى القاهرة فصار أمر الدولة كله راجعاً إليه.

متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة في جامع القسطنطينية فأذن له في ذلك فدخل اليه وصلى فيه صلاة الجمعة وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسي. فبعث القاضي القضاعي إلى المستنصر يخبره بذلك... إلى آخر ما جرى.

وتلخص الواقعة بالآتي: إن أزمة غذائية حدثت في مصر واشتد الغلاء، واضطر المستنصر لطلب استيراد القمح من القسطنطينية، فوافق ملك القسطنطينية على ذلك بشروط، ولكنه توفي قبل تحقيق ذلك، فتولت الحكم بعده ملكة اشترطت لانفاذ صفقة القمح أن يحالفها المستنصر عسكرياً وأن يمدها بالمقاتلين.

ولما كان الصراع المفترض أن يقوم هو بين السلاجقة المسلمين وبين البيزنطيين، كان معنى إمداد المستنصر لملكة القسطنطينية بالمقاتلين هو أن يحالفها على السلاجقة. ومع أن السلاجقة هم في الوقت نفسه مزاحمو الفاطميين على بلاد الشام وغيرها، فإن وطنية المستنصر وحميته الاسلامية رفضت هذا الحلف مع القسطنطينية على السلاجقة، مع شدة اضطرار المستنصر للقمح الذي كان موعوداً به من القسطنطينية، فلجأ إلى إعلان الحرب على البيزنطيين واشتبك معهم براً وبحراً. فاغتنم السلاجقة ذلك للتقرب إلى البيزنطيين والتحالف معهم على الفاطميين فأرسل ملكهم طغرل بك رسوله إلى القسطنطينية وأحكم أمره معهم.

الأزمة الغذائية وارتفاع الأسعار اللذان تبعهما وباء، واللذان وقعا سنة ٤٤٦هـ وأشرنا إليهما فيما تقدم من القول كانا إعلاناً ببدء تدهور الدولة الفاطمية.

ثم اشتد الغلاء وكثر الوباء وامتد ذلك إلى سنة ٤٥٤هـ وهي السنة التي يمكن أن نعتبرها سنة زوال سلطة الخلفاء في القاهرة ابتداء من المستنصر ووصولاً إلى من بعده من الخلفاء.

وقد بدأ الأمر بفتنة بين الاتراك والعبيد السود يروي المقريزي أمرها كما يلي (ج١ ص ٣٣٥ ط مكتبة الثقافة الدينية):

بين العبيد والأتراك

لما خرج المستنصر على عادته في كل سنة على النجب مع النساء والحشم إلى أرض الجب خارج القاهرة جرد أحد الأتراك سيفاً وهو سكران على أحد العبيد، فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه. فحنق لقتله الأتراك وساروا بجميعهم إلى المستنصر وقالوا إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة، وإن كان من غير رضى أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك، فتبرأ المستنصر مما جرى وأنكره، فتجمع الأتراك لمحاربة العبيد وكانت بينهما حروب

شديدة بناحية كوم شريك قتل فيها عدة من العبيد وانهزم من بقي منهم. فشق ذلك على أم المستنصر فإنها كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر، وذلك أنها كانت جارية سوداء، فأحبت الاستكثار من جنسها واشترتهم من كل مكان وعرفت رغبتها في هذا الجنس فجلبت الناس إلى مصر منهم حتى يقال إنه صار في مصر إذ ذاك زيادة على خمسين الف عبد اسود. فلما كانت وقعة كوم شريك أمدت العبيد بالأموال والسلاح سراً.

وكانت أم المستنصر قد تحكمت في الدولة وحقدت على الأتراك وحثت على قتلهم مولاها ابا سعد التستري فقويت العبيد لذلك حتى صار الواحد منهم يحكم بما يختار. فكرهت الأتراك ذلك وكان ما ذكر، فظفر بعض الأتراك يوماً بشيء من السلاح والمال قد بعثت به ام المستنصر إلى العبيد تمدهم به بعد انهزامهم من كوم شريك، فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وأغلظوا في القول، فحلف أنه لم يكن عنده علم بما ذكر، وصار إلى أمه فأنكرت ما فعلت.

وخرج الأتراك فصار السيف قائماً ووقعت الفتنة ثانياً، فانتدب المستنصر أبا الفرج بن المغربي ليصلح بين الطائفتين فاصطلحا على غل. وخرج العبيد إلى شبرا دمنهور فكان هذا أول اختلال أحوال أهل مصر ودبت عقارب العداوة بين الفئتين إلى سنة ٤٥٩هـ فقويت شوكة الأتراك وضروا على المستنصر وزاد طمعهم فيه وطلبوا منه الزيادة في واجباتهم وضاقت احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال السلطان واستُضعف جانبه، فبعثت أم المستنصر إلى قواد العبيد تغريهم بالأتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج إليهم الأتراك ومقدمهم الناصر حسين بن حمدان فاقتتلا عدة مرار ظهر في آخرها الأتراك على العبيد وهزموهم إلى بلاد الصعيد. فعاد ابن حمدان إلى القاهرة وقد عظم أمره وقوي جأشه وكبرت نفسه. واستخف بالخليفة فجاءه الخبر أنه قد تجمع من العبيد في بلاد الصعيد خمسة عشر الف فارس فقلق وبعث بمقدم الأتراك إلى المستنصر فأنكر ما كان من اجتماع العبيد، وجفوا في خطابهم وفارقوه على غير رضى منهم، فبعثت ام المستنصر إلى من بحضرتها من العبيد تأمرهم بالايقاع على غفلة بالأتراك فهجموا عليهم وقتلوا منهم عدة، فبادر ابن حمدان إلى الخروج ظاهر القاهرة وتلاحق به الاتراك وبرز اليهم العبيد المقيمون في القاهرة ومصر[١٠] وحاربوهم عدة أيام، فحلف ابن حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى

(١٠) مصر يراد بها هنا ما عرف أولاً باسم الفسطاط. قال المقريزي في خططه ص ٢٨٥، ج ١ ما يلي: الفسطاط اختطّ في الإسلام بعدما فتحت أرض مصر وصارت دار إسلام. وحين اختطّ المسلمون الفسطاط انتقل كرسي المملكة من مدينة الإسكندرية، بعدما كانت منزل الملك ودار الإمارة زيادةً على تسعمائة سنة، وصار من حينئذ الفسطاط دار إمارة ينزل به أمراء مصر فلم يزل ذلك حتى بني العسكر بظاهر الفسطاط فنزل فيه أمراء مصر وسكنوه،

ينفصل الأمر إما له وإما عليه. وجدّ كل من الفريقين في القتال فظهرت الأتراك على العبيد والخنوا في قتلهم وأسرهم فعادوا إلى القاهرة، وتتبع ابن حمدان من في البلد منهم حتى أفنى معظمهم.

هذا والعبيد ببلاد الصعيد على حالهم وبالاسكندرية أيضاً منهم جمع كثير، فسار ابن حمدان إلى الاسكندرية وحاصرهم فيها مدة حتى سألوه الامان فأخرجهم وأقام فيها من يثق به، وانقضت هذه السنة كلها في قتال العبيد.

ودخلت سنة ٤٦٠هـ وقد خرق الأتراك ناموس المستنصر واستهانوا به واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر ٤٠٠ الف دينار بعد ما كان ٢٨ الف دينار. ولم يبق في الخزائن مال، فبعثوا يطالبونه بالمال فاعتذر إليهم بعجزه عما طلبوه فلم يعذروه وقالوا بع ذخائرك، فلم يجد بداً من إجابتهم وأخرج ما كان في القصر من الذخائر فصاروا يُقوّمون ما يخرج اليهم بأبخس القيم وأقل الأثمان ويأخذون ذلك في واجباتهم.

وتجهّز ابن حمدان وسار إلى الصعيد يريد قتال العبيد وكانت شرورهم قد كثرت وضررهم وفسادهم قد تزايد، فلقيهم وواقعهم غير مرة والأتراك تنكسر منهم وتعود إلى محاربتهم إلى أن حمل العبيد عليهم حملة انهزموا فيها إلى الجيزة، فأفحشوا عند ذلك في أمر المستنصر ونسبوه إلى مُباطنة العبيد، وما زالوا يُلحّون في قتالهم حتى انكسرت العبيد كسرة شنيعة وقتل منهم خلق كثير وفر من بقي فذهبت شوكتهم وزالت دولتهم.

ورجع ابن حمدان وقد كشف قناع الحياء وجهر بالسوء للمستنصر واستبد بسلطنة البلاد.

ودخلت سنة ٤٦١هـ وابن حمدان مستبد بالأمر مُجاف للمستنصر، فثقل مكانه على

وربّما سكن بعضهم الفسطاط. فلمّا أنشأ الأمير أبو العباس أحمد بن طولون القطائع بجانب العسكر سكن فيها واتّخذها الأمراء من بعده منزلاً، إلى أن انقرضت دولة بني طولون، فصار أمراء مصر من بعد ذلك ينزلون بالعسكر خارج الفسطاط، وما زالوا على ذلك حتّى قدمت عساكر الإمام المعزّ لدين الله أبي تميم معد الفاطمي مع كاتبه جوهر القائد، فبنى القاهرة فصارت دار خلافة، واستمرّ سكنى الرعيّة بالفسطاط. وبلغ من وفور العمارة وكثرة الخلائق ما أربى على عامّة مدن المعمور حاشا بغداد. ومازال على ذلك حتّى تغلب الفرنج على سواحل البلاد الشامية ونزل مري، ملك الفرنج، بجموعه الكثيرة على بركة الحبش يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة لعجز الوزير شاور ابن مجير السعدي عن حفظ البلدين معاً فأمر الناس باخلاء مدينة الفسطاط واللحاق بالقاهرة للامتناع من الفرنج، وكانت القاهرة إذ ذاك من الحصانة والامتناع بحيث لا ترام، فارتحل الناس عن الفسطاط وساروا بأسرهم إلى القاهرة وأمر شاور فألقى العبيد النار في الفسطاط فلم تزل به بضعاً وخمسين يوماً حتّى احترقت أكثر مساكنه، فلمّا رحل مري عن القاهرة.واستولى شيركوه على الوزارة تراجع الناس إلى الفسطاط ورموا بعض شعثه، ولم يزل في نقص وخراب إلى يومنا هذا، وقد صار الفسطاط يعرف في زمننا بمدينة مصر.

الأتراك وتفرغوا من العبيد والتفتوا إليه وقد استبد بالأمور دونهم واستأثر بالأموال عليهم وفسد ما بينهم وبينه وشكوا منه إلى الوزير خطير الملك فأغراهم به ولامهم على ما كان من تقويته وحسّن لهم الثورة به فصاروا إلى المستنصر ووافقوه على ذلك فبعث إلى ابن حمدان يأمره بالخروج من مصر ويهدده إن امتنع، فلم يقدر على الامتناع منه لفساد الأتراك عليه وميلهم مع المستنصر، فخرج إلى الجيزة وانتهب الناس دوره ودور حواشيه، فلما جن الليل عليه عاد من الجيزة سراً إلى دار القائد تاج الملوك شادي وترامى عليه وقبل رجليه وسأله النصر على الدكز، والوزير الخطير فانهما قاما بهذه الفتنة فأجابه إلى ذلك ووعده بقتل المذكورين، وفارقه ابن حمدان.

فلما كان من الغد ركب شادي في أصحابه وأخذ يسير بين القصرين بالقاهرة، وأقبل الوزير الخطير في موكبه، فبادره شادي على حين غفلة وقتله، ففر الدكز إلى القصر والتجأ بالمستنصر، فلم يكن بأسرع من قدوم ابن حمدان وقد استعد للحرب فيمن معه فركب المستنصر بلامة الحرب، واجتمع إليه الأجناد والعامة. وصار في عدد لا ينحصر، وبرزت الفرسان، فكانت بين الخليفة وابن حمدان حروب آلت إلى هزيمة ابن حمدان وقتل كثير من أصحابه. فمضى في طائفة إلى البحيرة وترامى على بني سيس وتزوج منهم، فعظم الأمر بالقاهرة ومصر من شدة الغلاء وقلة الأقوات لما فسد من الأعمال بكثرة النهب وقطع الطريق حتى أكل الناس الجيف والميتات ووقف أرباب الفساد في الطريق فصاروا يقاتلون من ظفروا به في أزقة مصر، فهلك من أهل مصر في هذه الحروب والفتن ما لا يمكن حصره وامتد ذلك إلى أن دخلت سنة ٤٦٣هـ، فجهز المستنصر عساكره لقتال ابن حمدان بالبحيرة فسارت اليه ولم توفق في محاربته فكسرها كلها واحتوى على ما كان معها من سلاح وكراع ومال فتقوّى به وقطع الميرة عن البلد ونهب أكثر الوجه البحري وقطع منه الخطبة للمستنصر ودعا للخليفة القائم بامر اللّه العباسي بالاسكندرية ودمياط وعامة الوجه البحري، فاشتد الجوع وتزايد الموت بالقاهرة ومصر حتى إنه كان يموت الواحد من أهل البيت فلا يمضي يوم وليلة من موته حتى يموت سائر من في ذلك البيت ولا يوجد من يستولي عليه. ومدت الأجناد أيديها إلى النهب فخرج الامر عن الحد ونجا أهل القوة بأنفسهم من مصر وساروا إلى الشام والعراق، وخرج من خزائن القصر ما يجل وصفه.

ويسترسل المقريزي في وصف الحال إلى أن يقول، عن ابن حمدان: وبعث رسولاً إلى الخليفة القائم بامر اللّه بإقامة الخطبة له وسأله الخلع والتشاريف فاضمحل أمر المستنصر وتلاشى ذكره...

الدولة الجمالية

بدر الجمالي

هو مملوك أرمني الأصل، وإذا كانت قد قامت للمماليك بعد ذلك دولة في مصر تطاول بها الزمن، فيمكن اعتبار دولة هذا المملوك أول دلولة مملوكية تقوم في مصر.

والمماليك الذين حكموا بعد ذلك هم من أصول مختلفة تعود إلى جذور غير إسلامية، وشأن هذا المملوك شأن غيره ممن حكموا بعده في مصر وغير مصر[١١] فإذا كان فيهم من أبناء القرم والقفجاق والروم والروس وبعض المناطق الأوروبية الاخرى ممن ولدوا غير مسلمين ثم اسلموا، فهو مثلهم[١٢]. ولم يكن بدر هذا المملوك الوحيد من أصل أرمني

(١١) إذا كان المعروف أنّ دولة المماليك في مصر تبدأ في نظر المؤرخين بتولّي عزّ الدين أيبك عرش مصر (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ/١٢٥٠ م) فإنّنا نستطيع القول بأنّ الحكم المملوكي لمصر يعود إلى زمن أبعد من هذا الزمن، يعود إلى عهد قيام الدولة الطولونية التي كانت في واقعها دولةً مملوكيةً، فإنّ أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة سنة ٢٥٤هـ ابن مملوك تركي أُسِر في إحدى الغزوات في تركستان أهداه نوح بن أسد الساماني إلى الخليفة العباسي سنة ٢٠٠هـ مع ما أهداه من الرقيق والهدايا.

ويبدو أنّ أحمد هذا حنّ إلى أصله فأكثر من شراء المماليك حتّى بلغ عدد من اشتراهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك، وأربعين ألفاً من السود.

وإنّ دولة يقوم على رأسها ابن مملوك يحوطه ستون ألف مملوك هم عدّته في حكمه، هي في واقع الأمر دولة مملوكية.

ثم جاء الأخشيديون وكان مؤسّس دولتهم محمد بن طغج الملقب بالأخشيد (٢٦٨ - ٣٣٤هـ/ ٨٨٢ - ٩٤٦م) من أصل تركي ومن أبناء المماليك، فزاد على أسلافه الطولونيين، وأنشأ جيشاً من المماليك الأتراك والديلم، قيل إنّه بلغ عدده في مصر وبلاد الشام أربع مئة ألف جندي عدا حرسه الخاصّ الذي بلغ ثمانية آلاف مملوك.

وإذا كنّا قلنا عن دولة أحمد بن طولون إنّها دولة مملوكية لأنّها ارتكزت في حكمها على ستّين ألف مملوك، فكيف بنا أمام الدولة التي ترتكز على أربعمئة ألف وثمانية آلاف مملوك.

(١٢) لا بدّ لنا من أن نوجز التعريف بالمماليك وكيفية انتشار أمرهم في مصر بتلك الكثافة التي عرفتها تلك العصور.

تتألّف الأكثرية من مجموع المماليك الذين أخذ الأيوبيون، ثمّ من بعدهم سلاطين المماليك، بإحضارهم إلى مصر من أبناء القوقاز وشبه جزيرة القرم والقفجاق وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر وبعض المناطق الأوروبية، فهم بذلك لا ينتمون إلى أصل واحد.

وتعدّت تجارة الرقيق تجار الشرق، إذ أغرت أرباحها غيرهم، فرأينا نخّاسي أوروبا يدخلون السوق متاجرين بالرقيق حتّى قبل قيام دولة المماليك، لا سيّما البنادقة والجنويون الذين وصلوا إلى شواطىء البحر الأسود شارين للرقيق، حاملين لتبانه إلى مصر حتّى قيل إنّ ما كان ينقله هؤلاء إلى مصر يبلغ كلّ عام نحو ألفين، وفيهم المغول والشراكسة والروم والألبانيون والصقالبة (السلاف).

سبقهم إلى ذلك قبل قرون الجرمانيون الذين باعوا أسراهم من الصقالبة إلى المسلمين في اسبانيا.

وكانت مساهمة التجّار الأوروبيين في شراء الرقيق وإرسال ما يرسلونه إلى مصر بما فيها من انتقال هؤلاء إلى الدين الإسلامي - كانت هذه المساهمة حافزاً لبعض ملوك أوروبا وباباواتها على التدخّل للحدّ من نشاط التجّار الأوروبيين

الذي حكم مصر، فقد جاءت بعد ذلك شجرة الدر المملوكة الارمنية الأصل فحكمت مصر.

كان أبو النجم بدر الجمالي مملوكاً لجمال الدولة بن عمار فلذلك عرف بالجمالي، ويقول عنه المقريزي في خططه:

«ما زال يأخذ بالجد في زمن سبيه فيما يباشره، ويوطن نفسه على قوة العزم ويتنقل في الخدم حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر ثم سار منها كالهارب، ثم وليها ثانية فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان فثار العسكر وأخربوا قصره، وتقلد نيابة عكا، فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن والاحوال بالحضرة قد فسدت والأمور قد تغيرت وطوائف العسكر قد شغبت والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهي، والرخاء قد أيس منه، والصلاح لا مطمع فيه، ولواتة قد ملكت الريف، والصعيد بأيدي العبيد، والطرقات انقطعت براً وبحراً إلّا بالخفارة الثقيلة. فلما قتل بلدكوش ناصر الدين حسين بن حمدان كتب المستنصر إليه يستدعيه ليكون المتولي لتدبير دولته»[١٣].

سيطرة الجماليين

لقد صور لنا المقريزي في الكلام الذي تقدم ذكره الفوضى التي وصلت إليها البلاد حتى اضطر المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالي من خارج مصر ليضبط الامور ويُعيد للدولة هيبتها ويبسط سلطتها، إذ كان معروفاً عن بدر حزمه وكفاءته، فكان في نظر المستنصر الرجل المؤمّل لتلك المهمة العسيرة.

ويصف لنا المقريزي في خططه ما جرى قائلاً: «كتب المستنصر إليه (بدر) يستدعيه ليكون المتولي لتدبير دولته فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر ولا يبقي أحداً

المسيحيين في هذا الميدان، ومنهم من بيع ما يبيعونه إلى المسلمين وإلى البنادقة، لأنّ ما يصل إلى أيدي البنادقة سينتقل حتماً إلى أيدي المسلمين.

وعندما يقال إنّ السلطان المملوكي لاجين هو من أصل ينتمي إلى شواطىء بحر البلطيق، وإن أنس والد السلطان برقوق هو من فلّاحي الدانوب، فهذا يعني الإشارة إلى ما قلناه من أن نخّاسي أوروبا ساهموا في نقل الرقيق إلى مصر.

ويمكن القول إنّ أهمّ الأسواق التي كان يُشترى فيها المماليك من أوروبا هي أسواق الساحل الشمالي من البحر الأسود وبحر آزوف.

وممن ساهم في تكثيف جمهور المماليك في مصر الأتراك الذين كانوا يرسلون أسراهم المحربيين لبيعهم في مصر.

وكان المماليك بعد شرائهم من مختلف المناطق يباعون في مصر ويشترط فيهم أن يكونوا في أوائل اليفاعة من أعمارهم وأن لا يتجاوزوا هذه السن.

(١٣) الخطط، الجزء الأول، ص ٣٨١.

من عسكر مصر، فأجابه المستنصر إلى ذلك، فاستقدم معه عسكراً وركب البحر من عكا في أول كانون وسار بمئة مركب بعد أن قيل له إن العادة لم تجر بركوب البحر في الشتاء لهيجانه وخوف التلف، فأبى عليهم وأقلع، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوماً حتى كثر التعجب من ذلك وعد من سعادته. فوصل إلى تنيس ودمياط. واقترض المال من تجارها ومياسيرها. وقام بأمر ضيافته وما يحتاج إليه من الغلال سليمان اللواتي كبير أهل البحيرة. وسار إلى قليوب فنزل بها وأرسل إلى المستنصر يقول: لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على بلوكوش، وكان أحد الأمراء، وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة الجنود. فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس وستين وأربعمائة. فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة. وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الامراء علم من استدعائه، فما منهم إلّا من اضافه وقدّم إليه، فلما انقضت نوبتهم في ضيافته استدعاهم إلى منزله في دعوة صنعها لهم وبيّت مع أصحابه أن القوم إذا أجنّهم الليل ندبتهم فإنهم لا بد يحتاجون إلى الخلاء، فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك. ووكل بكل واحد واحداً من أصحابه وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال وإقطاع وغيره، فصار الأمراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين. فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء وصارت رؤوسهم بين يديه، فقويت شوكته وعظم أمره، وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقدر وقلده وزارة السيف والقلم. فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده، وزيد في ألقابه: أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين.

وتتبّع المفسدين فلم يبق منهم أحداً حتى قتله. وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة. ثم خرج إلى الوجه البحري فأسرف في قتل من هنالك من لواتة واستصفى أموالهم وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل. وصار إلى البر الشرقي فقتل منه كثيراً من المفسدين، ونزل إلى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد فحاصرها أياماً من المحرم سنة سبع وسبعين واربعمائة إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة. ثم سار إلى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الاموال ما لا يعرف قدره كثرة فصلح به حال الإقليم بعد فساده».

... إلى أن يقول: «فلما كان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى منها وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط. وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة، قتل

من مصر خلائق لا يحصيها إلّا خالقها. منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين الف إنسان إلى غير ذلك من أهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر. إلّا أنه عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها. وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة. وكانت له محاسن منها: أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت احوال الفلاحين واستغنوا في أيامه. ومنها حضور التجار إلى مصر لكثرة عدله بعد التزاحهم منها في ايام الشدة، ومنها كثرة كرمه.

وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة. وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر.

إلى أن يقول: «وقام بعده بالامر ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل بن أمير الجيوش».

وكان المقريزي قد قال من قبل عن الأفضل وهو يتحدث عن أبيه بدر: واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولي عهده، كما مر.

وبتسميته ابنه (وليّاً للعهد) يكون قد أكمل إعلان قيام الحكم الملكي الجديد على أنقاض الحكم الفاطمي المنهار. وتكون دولة جديدة قامت في مصر هي الدولة الجمالية وهي وحدها المسؤولة عما جرى في عهدها من احداث ومنها الاحداث الصليبية.

مصير الدولة الجمالية

كما سيطر الأفضل على الدولة أيام المستنصر كذلك سيطر عليها أيام المستعلي؛ وبعد المستعلي وقيام عهد الآمر استمرت سيطرته مُحْكَمَةً كما في السابق. ويقول المقريزي عن موت المستعلي وتولي الآمر: «فلما مات المستعلي أقام الأفضل من بعده في الخلافة ابنه الآمر بأحكام اللّه (ج١ ص٣٥٧) وهكذا فإن استبداد الأفضل في شؤون الحكم قد وصل إلى أنه هو الذي ينصب الخلفاء ويقيمهم. وجاء في كتاب **أدب مصر الفاطمية** للدكتور محمد كامل حسن، ص ٥٢، نقلاً عن المقريزي وهو يروي بعض الأحداث ما نصّه: «وكان لإغلاق هذه الدار العلمية وقع الصاعقة على الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام اللّه، ولكن الخليفة كان مسلوب الإرداة مع وزيره فصبر على مضض».

على أن الآمر قرر التخلص من السيطرة الجمالية والقضاء نهائياً على هذه الدولة التي قامت إلى جانب الخلافة الفاطمية فحرمتها من سلطتها وحجرت على خلفائها واستبدت بالأمور دونها. فرأى أن أفضل طريقة للتخلص من الجماليين هي اغتيال الأفضل، وأن ذلك

يتم بأن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام، أو في الأعياد[١٤] فتذاكر في ذلك مع ابن عمه عبد المجيد فنهاه عن سلوك هذا الطريق في قتله؛ وأشار عليه بأن يتولى قتله غيرهم، وذكر أبا عبد اللّه بن البطائحي قائلاً: «والرأي أن تراسل ابا عبد اللّه بن البطائحي فإنه الغالب على أمر الأفضل والمطلع على سره، وتعده أن توليه منصبه وتطلب منه أن يدبر الامر في قتله».

وقد نجحت هذه الخطة بتفاصيل ليس هنا مكان ذكرها. ولما قتل ولي الوزارة بعده أبو عبد اللّه البطائحي فتحكم هو الآخر واستبد بالأمور، وأدى به الحال في النهاية إلى أن يتآمر على الخليفة الآمر فاغرى أخاه جعفراً بقتله وجعله خليفة بعده، واتّصل خبر المؤامرة بالآمر فكان هو الأسرع بالقضاء على ابن البطائحي.

إذا كان قد بدا أن الدولة الجمالية قد انتهت بقتل الأفضل، فإن الأمر لم يكن كذلك إذ أن مقتل الأفضل لم يكن هو الفصل الاخير في حياة هذه الدولة.

ومن أعاجيب الزمان، وغرائب تصاريف الاقدار أن عبد المجيد ابن عم الآمر الذي دبر مع الآمر قتل الأفضل عاد هو يتعاون مع ابن الأفضل.

انتهت حياة الآمر قتلاً بيد أتباع الحسن الصباح الذين كان قد انشق بهم الحسن عن حكم مصر وعرفوا في التاريخ باسم الاسماعيليين النزاريين[١٥].

وكان عمر الآمر حين اغتيل اربعاً وثلاثين سنة، ومدة خلافته تسعاً وعشرين سنة.

ولما قتل لم يكن له ولد بعد، فحلّ الإشكال بأن يتولى الحكم ابن عمه عبد المجيد الذي لقب بالحافظ على أن لا يُعطى لقب الخليفة، وإنما يتولى الأمر نائباً عن الخليفة العتيد، إذ ربما ظهر حمل للآمر، فإذا ظهر سلّم الحافظ الخلافة له.

والحافظ هذا المتآمر مع الآمر على الأفضل بن بدر الجمالي استوزر أحمد بن الأفضل ابن بدر الجمالي.

وإذا كان الافضل ومن قبله ابوه بدر قد اكتفيا في أمر المستنصر والمستعلي والآمر

(١٤) ابن الأثير، ج ١٠، ص ٩٠، طبعة ١٩٦٦.

(١٥) في أواخر عهد المستنصر كان الحسن الصباح في مصر، وشاهد بنفسه تفرّد الأفضل بن بدر الجمالي بالحكم واستبداده بالمستنصر، واقتنع بأنّ المستنصر كان مرغماً على صرف ولاية العهد عن ولده الأكبر نزار إلى ولده الأصغر أحمد الذي عُرف بعد ذلك بلقب المستعلي. فقرّر الحسن التمرد على ذلك ورفض، بعد موت المستنصر، الاعتراف بخلافة المستعلي وأعلن أنّ الخليفة بعد المستنصر هو نزار، وصمّم على الانفصال عن الخلافة المحكومة بالجماليين، وإنشاء حكم مستقلّ عنها. وبعد خطوب وأحداث، ليس هنا مكان ذكرها، أعلن حكومته المستقلّة في إيران واتّخذ من قلعة ألموت قاعدةً، وأنشأ حركة الفدائيين، وصار أعدى أعداء الحكم في مصر ومن أعمال فدائييه اغتيال الآمر.

بتجريدهم من السلطة وبإبقائهم بما يشبه الاقامة الجبرية، فإن أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي لم يكتف مع الحافظ بذلك، بل أضاف إلى الاستبداد بالأمر والاستئثار بالسلطة ـ أضاف إلى ذلك: الحجر على الحافظ وإيداعه في خزانة لا يدخل إليه إلّا من يريده هو.

ونقل أحمد بن الأفضل هذا كل ما كان في قصر الخلافة إلى داره من الأموال وغير الأموال.

ومما فعله أنه أسقط اسم الحافظ من الخطبة وأمر بأن يخطب له وحده بألقاب رنانة طنانة وزاد على ذلك بان مس العقيدة المذهبية للفاطميين في الصميم فصمم جماعة على قتله بعيداً عن رأي الحافظ الذي كان محجوراً عليه لا يصل إليه احد كما ذكرنا، ونفذوا التصميم وقتلوه.

وأُخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها وبويع هذه المرة لا باعتباره نائباً عن الخليفة المنتظر، بل بويع خليفة اصيلاً.

وهكذا انتهى أمر الجماليين في حكم مصر بقتل أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي.

المسؤولون عن الهزيمة

كربوقا[1] وخيانة المهمة

يحدثنا ابن الأثير في تاريخه (ج١٠ ص٢٧٦ طبعة ١٩٦٦) عن زحف كربوقا أمير الموصل لإنقاذ انطاكية كما يلي:

«جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام، تُرْكُها وعربها سوى من كان بحلب. فاجتمع معه دُقاق بن تتش وطغتكين اتابك، وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم، فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم.

وسار المسلمون فنازلوا أنطاكية، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك واضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال، وعزموا على اسلامه عند المصدوقة.

وأقام الفرنج بأنطاكية بعد أن ملكوها اثني عشر يوماً ليس ما يأكلونه، وتقوّت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان[2] ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجون إلّا بالسيف. وكان معهم من الملوك: بردويل وصنجل وكُندفري والقُمّص صاحب الرها وبيمُنت صاحب أنطاكية، وهو المُقدّم عليهم.

وكان معهم راهب مُطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه

(١) هو قوام الدولة أبو سعيد كربوقا أمير الموصل.
(٢) المقصود بطلب الأمان أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا خارجين بدون سلاح على أن يكونوا آمنين على أرواحهم فلا يقتل منهم أحد، ولا يكونوا أسرى، بل ينطلقوا راجعين إلى بلادهم.

ولقد كانت القيادة الصليبية كلّها في أنطاكية، كما عدّد رجالها ابن الأثير فيما تقدّم من القول، فطلبها الأمان واستسلامها كان معناه انتهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية وعودة رجالها إلى بلادهم شراذم حالمةً عارية.

السلام كان له حربة مدفونة بالقيسان الذي بانطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق.

وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفى أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة، ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لا تفعلوا(!) أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم. فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم.

فلما تكامل خروج الفرنج، ولم يبق بأنطاكية احد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، وثانياً من منعهم من قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم، وآخر من انهزم سليمان بن أرتق.وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين وانهزم كربوقا معهم.

فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال يُنهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم، وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلبا للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفاً، وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت اليهم قوتهم».

وعندما ينهي ابن الاثير كلامه هذا يشير إلى أن ما أتاحه تصرف كربوقا وخيانة القادة الآخرين هي التي رسّخت عزم الصليبيين على الزحف إلى القدس بعدما عراهم من اليأس والانخذال، فيقول:

ولما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ساروا إلى معرة النعمان».

كان ابن الأثير واضحاً في تحميل كربوقا والقواد الآخرين مسؤولية نجاح الصليبيين في اختراق بلاد الشام والوصول إلى القدس مع اختلاف نوع المسؤولية بين كربوقا وبين بقية الأمراء والقواد.

لقد استطاع كربوقا أن يجيّش الجيوش الاسلامية ويجمع جموعها من الموصل حتى بلاد الشام، وأن يحرك العرب والاتراك وكل من هو في طريقه الطويل من شمال العراق

حتى شمال الشام، وفي هذا المدى الواسع من القوى البشرية ما تتألف منه جيوش جرارة، وهذا ما كان، وما أكده ابن الاثير في عباراته الصريحة.

وهذا ما أدركه الصليبيون الذين كانوا يعانون الوهن وقلة الاقوات ـ كما يقول ابن الأثير ـ بعد تلك الرحلة الطويلة التي بدؤوها من قلب اوروبا وصولاً إلى أنطاكية.

ومما زاد في وهنهم وانخذالهم ما عانوه في حصارهم لانطاكية، حتى عادوا وكأنهم المُحاصَرون لا المُحاصِرون. وقد كانت المجاعة قد حلت بهم لانعدام موارد القوت فيهم، فلم يجدوا سبيلاً لاتقاء الجوع سوى التحول إلى عصابات تحاول نهب القرى والمزارع، ولكن أهل هذه القرى والمزارع عرفوا كيف يصدونهم ويفتكون بهم، فدب اليأس فيهم، وبدأوا يتسللون من جيشهم هاربين. وحين نعلم أنه كان في طليعة الهاربين الرجل الأول في الدعوة إلى إشعال الحرب الصليبية، وبطل جمع جموعها وتحريض الجماهير على الانضمام إلى جيوشها، أعني بطرس الناسك...

وحين نعلم أن الفرار من الجيش الصليبي الجائع الواهن قد تعدى العامة إلى القادة ففر أمثال ستيفن كونت بلوا...

حين نعلم ذلك، ندرك إلى أي مدى كان الصليبيون يائسين منخذلين واهنين جائعين وهم حول أنطاكية.

ولولا خيانة خائن كان داخل انطاكية لعجز الصليبيون عن دخول أنطاكية.

لقد دخلوها على وهنهم وجوعهم، وظلوا على هذا الوهن والجوع وهم داخلها، لأن أسباب الوهن والجوع كانت لا تزال قائمة، فلا مصادر للقوت تقيهم الجوع وتدفع عنهم الوهن.

وصلت حملة كربوقا إلى أنطاكية والصليبيون على تلك الحال، ووصلتهم أخبار عن ضخامة الجيوش التي أخذت تُحاصرهم لذلك قرروا الاستسلام ـ كما ينص على ذلك ابن الأثير...

وهذا يعني أن الحملة الصليبية قد فشلت وأن جيوشها وقوادها قد قرروا الاستسلام، وأن القدس التي كانت هدفهم قد سلمت، وانتهى أمرهم، ولم تعد تقوم لهم قائمة.

فماذا غيّر ذلك كله، وماذا أحال وهنهم إلى قوة وجوعهم إلى شبع. وماذا غيرهم من موقف طالب استسلام إلى المهاجم المنتصر؟

إن ابن الاثير يفصل لنا ذلك بعبارات مقتضبة، فهو يقول:

«... ولما سمعت الفرنج (بقدوم الجيوش الاسلامية الكثيفة) عظمت عليهم المصيبة وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الاقوات عندهم».

ثم يسترسل ابن الاثير قائلاً:

«وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان قتال وعزموا على إسلامه عند المصدوقة».

عوضاً عن أن تبعث كثرة الجند وضخامة الجيش في نفس كربوقا التواضعَ للّه على أن وفقه لقيادة مثل هذه القوة الكبرى، وعوضاً عن أن يحمد الأمراء على استجابتهم لدعوته ويتألفهم ويتواضع لهم، عوضاً عن ذلك، عاد إلى طبيعته فرأى في تلك الحشود الإسلامية مجرد أتباع له، وفي أولئك الامراء مجرد مأمورين له، فازدهاه ذلك فتكبر وتجبر وعامل الأمراء بمهانة أحفظتهم وغيرت نواياهم لا عليه وحده، بل على الموقف كله، فانقلبوا من متحفزين لنصرة الاسلام، إلى ناوين خيانة الاسلام.

ثم يصف بعد ذلك استئنافهم الزحف ووصولهم إلى معرة النعمان[٣].

فالأمر يلخص كما ذكر ابن الاثير كما يلي:

١ ـ كان الصليبيون داخل أنطاكية في منتهى الوهن والجوع.

٢ ـ قرروا الاستسلام بلسان قيادتهم الموجودة كلها في داخل أنطاكية.

٣ ـ رفض كربوقا استسلامهم وقرر دخول أنطاكية بالسيف.

٤ ـ بدأوا بالتسلل من انطاكية فرأى المسلمون مقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتهم تدريجياً، وبالفعل بدأ ذلك المسلمون فقتلوا كل من خرج، فرفض ذلك كربوقا وجاء بنفسه يمنع المسلمين من هذا.

٥ ـ كان كربوقا قد أساء معاملة الأمراء المنضمين إليه وعاملهم بمهانة.

٦ ـ حقد هؤلاء الامراء عليه وقرروا عدم القتال والانهزام من المعركة عند أول مواجهة مع العدو.

٦ ـ أصرّ كربوقا على منع جمهور المقاتلين معه من تصيد الأعداء وهم شراذم مما أغضب هذا الجمهور فقرروا ما قرره الأمراء من الانهزام دون قتال.

(٣) الجيش الذي طلب الاستسلام بقيادته المحاصرة معه هو نفسه الذي زحف بعد ذلك إلى معرة النعمان، ثم تابع الزحف بعدها وصولاً إلى القدس.

٧ ـ وجدت جماعة في الجيش الاسلامي رفضت ذلك فقررت الاستشهاد تقرباً إلى اللّه.

فأول ما يطال كربوقا من المسؤولية في ذلك هو تنفيره قلوب الأمراء منه والاستعلاء عليهم؛

وثاني ما يطاله ـ وهو الاخطر في الأمر ـ هو رفضه استسلام الصليبيين بلا قتال؛

وثالث ما يطاله ـ وهو ما لا يقل خطورة عن الثاني ـ هو رفضه طلب جمهور المقاتلين عدم السماح للصليبيين بالتجمع كتلة واحدة ومقابلتهم وهم شراذم تسهل إبادتها.

فلماذا فعل كربوقا ذلك؟

هنا يصعب علينا اتهام كربوقا بالخيانة، فإننا هنا لا ننسبها إليه، فتصرفاته كلها منذ أخذ يجيش الجيوش حتى وصوله إلى أنطاكية تدل على الإخلاص والعزم على محاربة الصليبيين.

ولكننا لا نتردد أبداً باتهامه بالانانية وحب الذات وتغليبهما على كل شيء، مهما تعارض هذا الشيء مع المصلحة العامة.

إن أنانيته وحبه لذاته جعلاه يحتقر الامراء الذين استجابوا لدعوته، ويحاول بذلك اثبات أنه هو وحده السيد المطلق الآمر الناهي، وأن هؤلاء الامراء مجرد أتباع لا شأن لهم.

وإن أنانيته وحبه لذاته وحرصه على مجده الشخصي جعلته يرفض استسلام الصليبيين بأمان بلا قتال وخروجهم من انطاكية ورجوعهم إلى بلادهم.

لأنه ـ وقد أيقن بوهنهم وحلول المجاعة فيهم ـ اعتقد أنه سيخوض معهم معركة سهلة يكون هو بطلها المنتصر، واستسلامهم بلا قتال سيحرمه من التباهي بالانتصار عليهم في معركة حاسمة.

وكذلك القول في منعه جمهور المقاتلين المسلمين من تصيد الصليبيين أفراداً وشراذم وهزيمتهم بهذه الطريقة فإن ذلك سيحرمه من المجد الشخصي والتفاخر بالانتصار.

وهكذا فإن الأنانية وحب الذات وطلب المجد الشخصي عند كربوقا وخيانة الأمراء وجمهور المقاتلين قد حالت بين المسلمين وبين إنهاء الحروب الصليبية عند أنطاكية، وعرضتهم لما عرضتهم من فجائع دخول الصليبيين للقدس فاتحين واستمرار الاحتلال الصليبي لبلاد الشام مئتي سنة، وما اقتضى ذلك من إذلال وسفك دماء.

وهذا في رأينا وفي رأي جميع المنصفين لا يقل جريمة في كربوقا عن تعمد الخيانة.

أما أولئك الامراء، وأما جمهور المقاتلين، فإنهم جمعوا إلى الصفات الذميمة التي كانت لكربوقا، جمعوا إليها الخيانة الصريحة...

هذا كله يتناساه مزيفو التاريخ ويتجاهلونه، ويفتشون عن بريء يتهمونه وبطل يخوّنونه.

وهذا ما تأسف أن يتمسك به في هذا العصر من يقولون إنهم أكاديميون وحملة دكتوراه وأساتذة جامعيون!

البويهيون والسلاجقة

في المحرم من سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) كان الملك السلجوقي طغرلبك يتحفز لاقتحام العراق والحلول محل البويهيين في السيطرة على حكم بغداد.

وكان قد أعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والسير إلى الشام ومصر والقضاء على الخلافة الفاطمية التي كان يمثلها يومذاك المستنصر.

وكان يمثل الحكم البويهي الملك الرحيم أبو نصر بن أبي كاليجار.

ولا نريد هنا الدخول في تفاصيل الأحداث لأن ذلك ليس من موضوعنا، وإنما نكتفي بالإلمام بها إلماماً يوصلنا إلى ربط الأحداث بما يتعلق بموضوعنا.

وتقدم طغرلبك عن طريق حلوان فالنهروان[٤] وفي يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) كان خطب له في جوامع بغداد بطلب من الخليفة القائم بأمر اللّه، وذلك قبل أن يدخل بغداد، إذ إنه دخلها يوم الاثنين لخمس بقين من الشهر.

وقد ثارت عليه بغداد. ومن العجيب أن البغداديين من غير الشيعة كانوا أصحاب هذه الثورة.

ويقول ابن الأثير في تاريخه (ج ٩، ص ٦١١، ط ١٩٦٦): وسمع الناس الصياح فظنوا أن الملك الرحيم (البويهي) وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك فارتج البلد من اقطاره، واقبلوا من كل حدب ينسلون يقتلون من الغُز (جنود طغرلبك) من وجد في محال بغداد. ويكمل ابن الأثير قوله: إلا أهل الكرخ (الشيعة) فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وحفظوهم.

ثم يقول ابن الأثير: وبلغ السلطان طغرلبك ما فعله أهل الكرخ من حماية أصحابه فأمر

(٤) النهروان بلدة اندرست وكانت على صدر نهر النهروان جنوبي بغداد.

بإحسان معاملتهم. فأرسل حميد الملك الوزير إلى عدنان بن الرضي نقيب العلويين[*] يأمره بالحضور، فحضر، فشكره عن السلطان، وترك عنده خيلاً بأمر السلطان تحرسه وتحرس المحلة.

مما يثير الاهتمام هنا أن زوال الحكم البويهي وحلول الحكم السلجوقي محله لم يقابل من السنيين بالترحيب، ولا من الشيعة بالنقمة.

فلدى وقوع سوء تفاهم بسيط بين جندي سلجوقي وبين بغدادي ـ كما يذكر ابن الأثير ـ صاح العامة بهم (بالجنود السلاجقة) ورجموهم وهاجوا عليهم.

وهنا اعتقد الجمهور البغدادي السني أن الملك البويهي (الرحيم) قد عزم على الانتقاض على طغرلبك، فهب هذا الجمهور لنصرته، وانثال على الجنود السلاجقة يقتلهم حيث وجدهم.

في حين أن سكان الجانب الشيعي من بغداد وهو الكرخ لم يشاركوا في هذه الثورة على السلاجقة وملكهم طغرلبك. بل عمدوا إلى تجميع الجنود السلاجقة عندهم وحفظوهم.

لا يستطيع المؤرخ المنصف أن يمر بهذا الأمر مروراً عابراً فلا يثير انتباهه ولا ينفذ إلى ما وراءه من معان كثيرة.

هذا يدل دلالة واضحة أن الحكم البويهي (الشيعي) لم يكن موضع استياء رعاياه السنيين، ولم يقابل منهم بالسخط، ولا قوبل زواله بالبهجة والاغتباط. بل إن الحال كان عكس ذلك تماماً، بدليل أن البغداديين السنيين قد استغلوا سوء التفاهم البسيط بين الجندي السلجوقي وبين أحد البغداديين ليصيحوا بالسلاجقة ويرجموهم ويهيجوا عليهم.

وأن الجمهور البغدادي السني بمجرد أن استنتج من هذا الصياح والهياج أن الملك البويهي (الرحيم) قد عزم على قتال طغرلبك، ارتج البلد بهم وأقبلوا من كل حدب ينسلون لنصرة الملك البويهي، واخذوا يقتلون جنوده أينما رأوهم.

وفي هذا دلالة قاطعة على أن البويهيين الشيعة لم يكونوا منحازين لفريق على فريق، ولا محابين لأصحاب مذهب على أصحاب مذهب آخر، بل كانوا حكاماً عادلين، فكان السنيون أكثر الناس أسفاً لزوال حكمهم، لذلك هبوا للثورة على أعدائهم ونصرتهم فيما حسبوه مقاومة منهم لهؤلاء الاعداء.

(*) هو أبو أحمد عدنان بن الشريف الرضي ولي النقابة بعد وفاة عمه الشريف المرتضى سنة ٤٣٦هـ واستمر حتى توفي ببغداد سنة ٤٤٩هـ.

أما الشيعة فلم يروا في زوال الحكم البويهي (الشيعي) خسراناً يجب الثورة على من سببه لأن هذا الحكم لم يكن يميزهم عن غيرهم في شيء بل كان حكماً يتساوى فيه الناس وهم من بعض هؤلاء الناس. لذلك حموا الجنود السلاجقة، ولم يشاركوا في الثورة على طغرلبك.

وهذا يناقض كل المناقضة ما اعتاد بعض الناس على اثارته في كل مناسبة يذكر فيها البويهيون من عدم العدل في المعاملة بين رعاياهم المختلفي المذاهب. ثم يصف ابن الأثير ما جرى قائلاً (ص ٦١١ وما بعدها):

وأما عامة بغداد فلم يقنعوا بما عملوا، حتى خرجوا ومعهم جماعة من العسكر إلى ظاهر بغداد يقصدون العسكر السلطاني (السلجوقي)، فلو تبعهم الملك الرحيم وعسكره لبلغوا ما أرادوا،لكن تخلفوا.

وهكذا نرى التصميم البغدادي السني على مقاومة الاحتلال السلجوقي، فالأحداث الأولى كانت مع الجنود السلاجقة الذين دخلوا بغداد قبل وصول طغرلبك إليها، أما الآن فإنه التصميم على قتال الجيش السلجوقي ومنعه من دخول بغداد. وقد استطاع الثوار أن يقنعوا جماعة من عسكر الحكم بالانضمام إليهم، ولكن الملك الرحيم البويهي لم ينضم مع عسكره إليهم. وفي رأي ابن الأثير أنه لو انضم الملك الرحيم مع قواته إليهم لأمكن صد السلاجقة عن دخول بغداد ولدام فيها الحكم البويهي.

وهنا لنا أن نتساءل عن السبب في عدم انضمام الملك البويهي إلى الثائرين مع ما بدا من اندفاع البغداديين من تصميم على قتال السلاجقة؟!

ربما كان فيما يرويه الراوندي في **راحة الصدور** (ص ١٦٩) العامل على عدم مشاركة الملك البويهي في قتال الملك السلجوقي. فالراوندي يقول إن تفاهماً كان قد تم بين القائم بأمر اللّه وبين الملك الرحيم على تسليم الأخير بالأمر الواقع والرضا بالدخول السلجوقي إلى بغداد والتعاون معه على أن يخطب بعد الخليفة لكل من السلجوقي والبويهي على أن يُبدأ باسم السلجوقي ثم البويهي.

وهذا الاتفاق لم يشر إليه ابن الأثير. فاذا صح أمره يكون هو المانع للملك البويهي عن المشاركة في قتال السلاجقة، فقد أراد الملك الرحيم أن يحافظ على وعده في مصافاة طغرلبك.

وقع الصدام الدموي خارج بغداد بين الثائرين وبين جيش طغرلبك، ولم يلبث هذا الجيش أن تغلب على الثائرين بعد مقتلة عمت الفريقين، فانطلق الجيش السلجوقي في

بغداد ينهب ويسلب كل ما يمر به من متاجر ومنازل، فأخذ الناهبون من الأموال ما لا يحصى، على تعبير ابن الأثير:

ثم يقول ابن الأثير: واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف وتعطلت الجمعات. هذا في بغداد نفسها، أما في غير بغداد فيقول ابن الأثير (ص ٦١٣):

وانتشر الغز السلجوقية في سواد بغداد فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل. ومن الشرقي إلى النهروان وأسافل الأعمال، وأسرفوا في النهب، حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قراريط إلى عشرة، والحمار بقيراطين إلى خمسة، وضرب السواد وأجلي أهله عنه.

وحين نعود إلى الخريطة العراقية ونرى المدى الواسع الذي تشمله المنطقة التي حددها ابن الأثير وسماها سواد بغداد وقال انها نهبت وخربت وأجلي عنها أهلها، حين نعود إلى الخريطة العراقية نرى عظم المحنة التي حلت بالعراق باستيلاء السلاجقة عليه، وما فعلوه في تلك المناطق الممتدة من تكريت في الشمال إلى الحلة في الجنوب. ومما يدل على استمرار الظلم على الناس دون انقطاع، قول ابن الأثير، وهو يتحدث عن أحداث سنة ٤٤٨هـ في بغداد: طال مقام السلطان طغرلبك ببغداد وعمّ الخلق ضرر عسكره وضاقت عليهم مساكنهم، فان العساكر نزلوا فيها وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا منهم كل محظور (ص ٦٢٦)، مع العلم أن الاحداث الأولى كانت سنة ٤٤٧هـ.

ثم يتحدث ابن الأثير عن اضطرار طغرلبك لمغادرة بغداد مع بعض قواته لمهمة عسكرية: «فلما بلغوا اوانا نهبها العسكر ونهبوا عكبرا وغيرها».

وإذا كان شيعة الكرخ لم يشتركوا في الثورة على طغرلبك السلجوقي بل حافظوا على جنوده وحموهم من القتل، فأمر طغرلبك بإحسان معاملتهم، وشكرهم على ما فعلوه، فقد كان ذلك إلى حين، إذ لم يلبث أن تدخل في شؤونهم العقائدية، وأرغمهم على فعل ما لا يرون فعله. يقول ابن الأثير وهو يتحدث عن استتباب الأمر لطغرلبك في بغداد، وعما بدأ من إجراءات جديدة؛ يقول: «وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم سحراً: الصلاة خير من النوم».

ثم زاد على ذلك بعد ذلك باحراق مكتبة الشيعة التي أنشأها أبو نصر سابور وزير بهاء الدولة البويهي وكانت من دور العلم المهمة في بغداد، بناها هذا الوزير الأديب في محلة في الكرخ سنة ٣٨١هـ وقد جمع فيها ما تفرق من كتب فارس والعراق، واستكتب تآليف أهل الهند والصين والروم ـ كما قاله محمد كرد علي في خطط الشام ـ ونافت كتبها على

عشرة آلاف كتاب من جلائل الآثار ومهام الاسفار، وأكثرها نسخ الأصل بخطوط المؤلفين.

قال ياقوت الحموي في **معجم البلدان** (ج ٢): وبها كانت خزانة الكتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة... إلى آخر ما قال...

وكان من جملتها مئة مصحف بخط ابن مقلة على ما ذكره ابن الأثير (ج ١٠).

وحيث كان الوزير سابور من أهل الفضل والأدب أخذ العلماء يهدون إليه مؤلفاتهم فأصبحت مكتبته من أغنى دور الكتب ببغداد.

وقد أحرقت هذه المكتبة فيما أحرق من محال الكرخ عند مجيء طغرلبك. وتوسعت الفتنة حتى اتجهت إلى العالم الكبير أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، الشهير بالشيخ الطوسي فأحرقوا كتبه وكرسيه الذي يجلس عليه للتدريس.

يقول ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٤٨هـ: وهرب أبو جعفر الطوسي ونهبت داره. ثم قال في حوادث سنة ٤٤٩هـ: وفي صفر من هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي كان يجلس عليه للكلام وأخرج إلى الكرخ وأضيف إليه ثلاث سناجق بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم اذا قصدوا زيارة الكوفة فاحرق الجميع.

يقول ڤاسيلي ديميروڤتش بارتولد في كتابه **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي** (ص ٤٥٥، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، ط ١٩٨١):

«لم يكن بوسع السلاجقة أن يشبهوا تماماً بالسامانيين والغزنويين لأنهم ظلوا حتى آخر أيامهم غريبين على أي ضرب من المدنية. هذا وقد وصلت الينا معلومات غاية في الثقة تؤكد أنه حتى السلطان سنجر آخر السلاجقة الكبار كان أمياً، وليس هناك ما يحملنا على الافتراض بأن أسلافه كانوا أكثر ثقافة منه».

ونقول: ما داموا كذلك، وما دام لا يمكن تشبيههم لا بالسامانيين ولا بالغزنويين، فكيف بهم أمام أسلافهم البويهيين؟!

مصير البويهيين والسلاجقة

قبض طغرلبك على الملك الرحيم وارسله مقيداً إلى قلعة السيروان ثم نقله إلى قلعة الري فتوفي فيها سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م).

وهكذا تمت السيطرة للسلاجقة بقيادة طغرلبك على بغداد وحلوا فيها محل البويهيين.

ولكن ما أمّله الخليفة العباسي القائم بأمر اللّه بتشجيعه طغرلبك على التحول نحو بغداد، ودعوته له إلى الوصول إليها، إن ما أمّله في ذلك من التخلص من سيطرة الآخرين على الخلافة، وتحكمهم في البلاد دون الخليفة لم يتحقق، فقد أحكم السلاجقة منذ أول ملوكهم في بغداد طغرلبك حتى آخر ملوكهم فيها طغرل الثالث، أحكموا قبضتهم على الحكم وعبثوا بالخلافة والخلفاء ولم يتركوا لهم أي نفوذ، مما لا مجال لتفصيله هنا.

وكل ما نقوله أن الأمر ظل هكذا حتى تولى الناصر لدين اللّه الخلافة بعد وفاة والده المستضيء بأمر اللّه سنة ٥٧٥هـ (١١٧٩م). فقد استطاع هذا الخليفة القضاء على الملك السلجوقي طغرل الثالث بتحريض الخوارزميين عليه، وإمدادهم بالجنود وإطماعهم بتملك البلاد. فساروا إليه والتقى جيشهم بجيشه سنة ٥٩٠هـ (١١٩٣م) فدارت الدائرة عليه وقتل في المعركة وأرسل الخوارزميون رأسه إلى الخليفة الناصر.

وبذلك استقل الناصر بالخلافة، ولما حاول الخوارزميون الحلول محل السلاجقة في بغداد رفض الناصر ذلك، فارسلوا جيشاً للاستيلاء على بغداد ففشل الجيش في تفاصيل ليس ذكرها من موضوعنا.

مواقف صلاح الدين

١/مع الناصر العباسي

سيكون اعتمادنا في كتابة هذا الفصل على ما دونه العماد الأصفهاني في كتابه **الفتح القسي في الفتح القدسي**، في الطبعة التي حققها محمد محمود صبح، وذلك لكي لا نظلم صلاح الدين في شيء، إذ إن العماد الأصفهاني كان عمله في ركاب صلاح الدين عمل جماعة الاعلام اليوم الذين يصطحبهم جماعة الحكم في تنقلاتهم ليذيعوا على الناس أخبارهم في وسائل الاعلام المكتوب منها أو المسموع أو المرئي.

لذلك فهو لا يُتهم فيما يسجله عن صلاح الدين، وإن اتهم بالمبالغة في المديح والتملّق.

والعماد هذا ولد في أصفهان ثم جاء إلى بغداد واتصل بالوزير ابن هبيرة[٦] فولّاه اعمالاً

(٦) هو عون الدين أبو المظفّر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، ولد سنة ٤٩٧هـ ببلدة الدور في العراق وزّر للمقتفي ثم للمستنجد، وتوفّي سنة ٥٦٠هـ .

حكومية. وبعد وفاة ابن هبيرة سجن ثم أفرج عنه، وضاقت أموره فرحل إلى دمشق فاتصل أولاً بنور الدين ثم بنجم الدين والد صلاح الدين ثم بصلاح الدين. وصار يرافقه في حله وترحاله، ويسجل ما يحلو له تسجيله، فكان من ذلك كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي**، وهو ما قلنا إننا نعتمد عليه في كتابة هذا الفصل.

يفاجئنا العماد في الصفحة ١٨٣ بوصول مبعوث من دار الخلافة ببغداد إلى صلاح الدين، هو تاج الدين أبي بكر حامد، أخو العماد الأصفهاني حاملاً رسالة يصفها العماد بأنها «في العتب على أحداث ثقلت وأحاديث نقلت ووشايات أثرت وأرثت[٧] وسعايات في السلطان عثت[٨] في الأحوال وشعثت».

وكان وصول هذا المبعوث ـ كما يذكر العماد ـ في شهر شوال سنة ٥٨٣هـ. وإذا علمنا أن فتح القدس كان في رجب من تلك السنة عرفنا أنه كان بين الفتح ووصول الرسول مدة قصيرة هي ثلاثة أشهر.

فماذا حدث بين الخليفة الناصر وبين صلاح الدين، ما أدى إلى أن تكون رسالة الناصر على هذا النحو من الشدة التي يحدثنا عنها العماد؟

وإذا تجاوزنا العبارات: «أحاديث نقلت و وشايات أثرت وأرثت و سعايات في السلطان عثت في الأحوال وشعثت».

إذا تجاوزنا هذه العبارات ـ على خطورتها ـ وعلى ما ترمز إليه من عمق الهوة بين الرجلين، واشتداد نقمة الناصر على صلاح الدين...

إذا تجاوزناها واقتصرنا على عبارة واحدة، وهي: «أحداث ثقلت»، فانه يتبين لنا أن هناك أحداثاً معيّنة أثارت غضب الناصر، فما هي هذه الأحداث؟ وقبل أن نجيب على السؤال لا بد من أن نشير إلى ما ذكره العماد من أن نصوص رسالة الناصر إلى صلاح الدين كانت عنيفة، فالعماد يقول تارة بأنها خشنة، شديدة؛ وتارة يقول بأن فيها غلظة. ويقول بأن صلاح الدين وصفها بأنها ألفاظ فظاظ وأسجاع غلاظ، وأنه علق عليها قائلاً: قد كان أمكن إبداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وارفق.

أما الأحداث التي أدت إلى ذلك فان العماد يوضحها لا على لسانه، بل على لسان من سماهم جماعةً من الأكابر اجتمعوا بالسلطان صلاح الدين. حيث إن صلاح الدين أراد أن يمهد في النفوس لتبرير تمرده على الخليفة، فتظاهر بالسكوت ولكنه راح يعرض رسالة

(٧) أوقدت نار الفتنة.

(٨) عثت الحيّة فلاناً عضّته.

الخليفة على من سماهم أكابر القوم ليكونوا هم البادئين بالتمرد، وليتظاهر بأنه محمول على التمرد.

إن العماد يذكر لنا أن أسلوب صلاح الدين قد نجح؛ فان أولئك الأكابر قالوا له تعليقاً على رسالة الخليفة: «وقد نسب حقك إلى البطلان ورميت بالبهتان ولمحت طاعتك بعين العصيان، فكيف خفت وما عفت وألفت وما أنفت ورغت وما غرت وصبرت وما سبرت وأغضبت لما أغضبت وأعتبت لما عوتبت وراقبت وما روقبت».

ثم يزيدنا ايضاحاً قائلاً: «ووجد الأعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقاً. واختلقوا أضاليل ولفقوا اباطيل. وقالوا: هذا يزعم أنه يقلب الدولة ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر، نعت الإمام الناصر، ويدل بما له من القوة العسكرية».

إذا كانت نتيجة معركة حطين هي فتح القدس، فإننا إذا استثنينا الميزة القدسية لمدينة القدس فهي مدينة ككل المدن الفلسطينية، لا يعدو فتحها فتح أية مدينة من تلك المدن، فاذا كانت القدس قد فتحت فإن القسم الكبير من فلسطين وغير فلسطين كان لا يزال محتلاً. فالوقوف عند فتح القدس وما نال فتحها من ابتهاج المسلمين وسرورهم وتمجيد الفاتحين، إن الوقوف عند هذا كان معناه التغاضي عما لا يزال محتلاً من البلاد، وعن وجود الصليبيين سادة لتلك البلاد.

لذلك عزم الخليفة الناصر الذي كان قد تخلص من سيطرة السلاجقة واستقل برقعة كبيرة من الأرض الإسلامية تشمل العراق وبعض ما يتصل به، والذي كان قد بنى جيشاً قوياً، عزم الخليفة الناصر على أن يرسل جيشه إلى فلسطين للتعاون مع جيش صلاح الدين على تحرير ما لم يتحرر من الأرض الإسلامية. وكان لا بد من استشارة صلاح الدين في ذلك، ولكن صلاح الدين وقف من الخليفة الناصر نفس الموقف الذي وقفه من قبل من نور الدين حين طلب إليه نور الدين أن يزحف من مصر، في حين يزحف نور الدين من الشام ويحصرا الصليبيين بين الجيشين مما يسهل القضاء عليهم، فأبى ذلك صلاح الدين لأنه اعتقد أنه إذا زال الصليبيون أصبح تابعاً لنور الدين، ولما أدرك أن نور الدين عازم على القدوم بنفسه إلى مصر ليؤدبه احتمى منه بالصليبيين، كما نص على ذلك ابن الأثير وأبو شامة وابن العديم وغيرهم مما ذكرناه في مكان آخر من هذا الكتاب.

هنا أيضاً وقف صلاح الدين الموقف نفسه من الخليفة الناصر فرفض قدوم جيش الخلافة لقتال الصليبيين والقضاء عليهم، لأنه اعتقد أنه سيصبح والياً من ولاة الخليفة تابعاً له.

ولما بلغ الخليفة هذا الرفض أرسل رسالته الشديدة المملوءة تعنيفاً لصلاح الدين، وهي الرسالة التي مر ذكرها.

ويبدو أنه بدرت من صلاح الدين في مجالسه بوادر تهديد ووعيد للخليفة، بلغ خبرها مسامع الخليفة، فرأينا العماد يقول فيما تقدم من قوله: «إنه يقلب الدولة ويغلب الصولة ويدل بما له من قوة عسكرية».

ولما كان اسم الخليفة أحمد، والناصر لقبه، واسم صلاح الدين يوسف، والناصر لقبه، فيبدو أن صلاح الدين تباهى بأنه إذا كان الخليفة: الناصر، فأنا أيضاً: الناصر، مما أشار إليه العماد.

وحيث إن صلاح الدين استشعر الشدة في رسالة الناصر، وقرر في نفسه التمرد على الخليفة إلى حد قتال جيشه إذا أصر على إرساله إلى فلسطين، رأيناه يمهد لذلك باستشارة (الأكابر) ليكونوا المتحمسين لقتال جيش الخليفة مما رأيناه فيما تقدم من القول.

ثم راح في مجالسه يمنّ على الخليفة العباسي بقضائه على الدولة الفاطمية، شاتماً الفاطميين ملقباً خليفتهم بالدعي، إلى غير ذلك مما يرويه العماد عن لسان صلاح الدين: «أما فتحنا مصر وقد باضت بها دعوة الدعي وفرخت، أما استأنفنا بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسداها أرخت، أما استخلصت اليمن وللدعي بها داع وللهدى فيها ناع وللضلال فيها راع».

وإذا كانت هذه هي أحاديثه في مجالسه الخاصة بين اتباعه وأكابره، وكلها استثارة وتهديد ووعيد، فقد رأى أن يؤخر الصدام بالخليفة، وأن لا يعجل في استفزازه قبل أن يهيىء وسائل المقاومة ويرتب المحالفات، لذلك كان جوابه على رسالة الخليفة جواباً غير شديد، بل هو أقرب إلى اللين والموادعة.

ثم يحدثنا العماد عن وصول رسول آخر من الخليفة الناصر إلى صلاح الدين، ولا يوضح لنا العماد حقيقة مهمة هذا الرسول، وإن كان قد ذكر (ص ٢٧٩) أنه أخبرهم بان الخليفة أعلن ابنه أبا نصر محمد ولياً لعهده.

ولا نحسب أن مثل هذا الخبر يقتضي إرسال رسول خاص، ولا شك أنه كانت لهذا الرسول مهمة أخرى إذا كان العماد لم يعلنها صراحة، فإنه قد أعلنها ضمناً خلال إيراده جواب صلاح الدين على رسالة الخليفة.

والحقيقة البارزة فيما يدونه العماد هي أنه يتعمد التعتيم على نصوص رسائل الخليفة في حين يبرز أجوبة صلاح الدين على تلك الرسائل إبرازاً كاملاً، ومع ذلك لا يقتضينا الأمر

جهداً لنكتشف حقيقة مضامين رسائل الخليفة من نصوص أجوبة صلاح الدين التي كان يكتبها له العماد نفسه.

وإذا كان قد ذكر في مواضع أخرى شيئاً من نصوص بعض رسائل الخليفة، فانه هنا لم يشر إلى شيء من ذلك.

وهذا يدلنا على أن في الرسالة أشياء خطيرة فضل العماد كتمانها، وهذه الأشياء تعود إلى إصرار الخليفة على إرسال جيشه إلى فلسطين. وقد بدت هذه الحقيقة من جواب صلاح الدين حيث راح في هذا الجواب يهون من أمر الاحتلال الصليبي، قائلاً: «فلم يبق به من المدن المنيعة إلا صور وطرابلس، ومعالم الكفر بهما في هذه السنة المحسنة بعون اللّه تدرس. وأما أنطاكية فإنها بالعراء منبوذة، وعند الاتجاه إليها مأخوذة. على أنها بوقم قومها عام أول موقوذة وحدود العزائم إليها عند انقضاء هدنتها مشحوذة. فإنها قد نقضت من أطرافها، ودخل عليها من أكنافها...»، إلى أمثال هذه العبارات التي يراد منها التقليل من شأن بقاء الصليبيين فيما بقوا فيه من مدن وأرباض، مما لا يستدعي إرسال جيش خليفي، وإنه مستطيع وحده اجلاء الصليبيين.

في مواجهة الحملة الألمانية

ثم جاءت الأخبار بقدوم حملة ألمانية كبيرة اجتازت القسطنطينية وشقت طريقها في الأناضول ودخلت مدينة قونية، فحالفها الملك السلجوقي قلج أرسلان. ويقول العماد عن ذلك (ص٣٩٠) «وتراسل هو (قلج ارسلان) وملك الألمان واتفقا في الباطن على ما كان بينهما من المواثيق والايمان، وحمل له الملك وفراً وافراً ووافقه على العبور إلى الأقاليم الشامية والبلاد الاسلامية»... إلى آخر ما قال.

هنا تنبه صلاح الدين إلى هذا الأمر وعلم أن أخبار هذه الحملة الضخمة ستصل إلى الخليفة الناصر، وسيكون ذلك حافزاً له على التأهب لدخول فلسطين ومصادمة الصليبيين القادمين أقوياء. لذلك استبق الأمور ولم ينتظر رسولاً من الخليفة، بل بادر مسرعاً إلى إرسال رسالة إلى الخليفة يهون له فيها أمر الحملة الصليبية الجديدة، ناسباً تقدمها إلى خيانة قليج ارسلان وأولاده قائلاً فيما قال:

«ثم ورد الخبر بأنهم (قلج أرسلان وأولاده) صالحوهم وصانعوهم وأخلوا لهم الطريق ووادعوهم ووسعوا لهم في المضايق وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق».

ثم يختم رسالته مطمئناً الخليفة الناصر قائلاً: «والخادم منفرد في عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض، وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه، وأن الذي يستبعد

من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله».

ويذكر العماد إرسال صلاح الدين رسولاً آخر إلى الخليفة الناصر (ص٣٣٢) ونستطيع استجلاء حقيقة مهمة هذا الرسول مما ذكره العماد عن رجوع هذا الرسول من بغداد ومقابلته صلاح الدين، ثم من الحوار الذي جرى بين صلاح الدين والأمراء الذين جمعهم متظاهراً بالتشاور معهم. يقول العماد: «ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ما قدمه وأعلمه بما علمه». ثم يكمل العماد حديث الرسول وإنه قال لصلاح الدين: «فكن للإمام يكن لك واقبل امره ليقبلك».

لقد كانت مهمة رسول صلاح الدين إقناع الخليفة بعدم إرسال جيشه إلى فلسطين، ما أغضب الخليفة، وما جعل الرسول يُندّم صلاح الدين على ما قدمه، وأن يقول له: «كن للإمام يكن لك واقبل امره ليقبلك».

ولم يكن أمر الخليفة إلّا دخول جيشه إلى فلسطين ومطاردة الصليبيين فيها وبغير إنفاذ هذا الأمر فعلى صلاح الدين أن لا يطمح برضا الخليفة.

وكان على صلاح الدين أن يبت في قراره وأن لا يطمح في الجمع بين رضا الخليفة وبين رفض تنفيذ أوامره. فإما هذا وإما هذا.

ووازن صلاح الدين بين الحالين فلم يتردد في اختيار غضب الخليفة بعدم انفاذ أمره. وذلك لأن وصول جيش الخلافة إلى فلسطين كان سيقضي على الصليبيين فيها، وبذلك تدخل فلسطين في حكم الخلافة الإسلامية، ويصبح صلاح الدين مجرد وال من ولاة الخلافة يتبع السلطة المركزية في بغداد. وهذا ما لا يرضى به صلاح الدين، ففضل بقاء الصليبيين فيما هم فيه من بلاد الشام فيكون مستقلاً فيما في يده منها وما في يده من غيرها.

وهنا عمد إلى أسلوبه الذي أشرنا إليه من قبل، وهو أن يجعل الرفض لا صادراً منه رأساً، بل نتيجة استشارات الامراء والقواد، في حين يكون قد أوحى لهم بما يريد من الرفض والقبول.

يقول العماد:

«جمع السلطان الأمراء على المشورة ووقفهم على المعنى والصورة. وقال لهم: قد وعدت الخليفة على لسان الشهرزوري بشهرزور[٩]، واستدعيت عسكره المنصور وربما قدم الينا الحضور فيكمل لنا النصر والحبور».

فهو هنا يتظاهر بقبول تنفيذ مطلب الخليفة، بل يعلن أنه هو نفسه استدعى عسكر

(٩) شهرزور مدينة كردية في أطراف العراق، يبدو أنّ الخليفة كان يطالب بها.

الخليفة، تاركاً للحاضرين أن يرفضوا الطلب مبرئاً نفسه من عصيان أوامر الخليفة والخروج عليه.

فكان من ردهم قولهم كما سبكه العماد بأسلوبه الخاص: «هذا رأي رائب وشأو شائب»[١٠].

فتسلح صلاح الدين برفض الأمراء وراح يمهد لإنهاء الحرب مع الصليبيين والتسليم باحتلالهم لما يحتلونه من أرض الوطن، لأنه خشي أن يصر الخليفة على إرسال جيوشه إلى فلسطين، فإن فعل فهو مصمم على قتال تلك الجيوش، ولأجل أن يتفرغ لقتالها عليه أن يصالح الصليبيين وينهي الاقتتال معهم ليتوجه بقوته كلها لقتال جيوش الخلافة الاسلامية المتوجهة إلى فلسطين.

أراد صلاح الدين أن يبرر أمام الخليفة تمرده عليه وأن يعلل تعليلاً غير مباشر سبب رفض الأمراء الذين شاورهم، رفضهم مواصلة قتال الصليبيين، وبالتالي رفض قدوم جيش الخليفة الذي لو قدم لكانوا مضطرين لمواصلة القتال الذي يرون أنهم لا يطيقونه، فأرسل إلى الخليفة الرسالة التالية التي تتضمن صورة موهنة للعزائم، تمثل انهيار القوى المقاتلة وتضعضعها، وعجزها عن الصمود بعد ما حل بها في المعارك السابقة، والرسالة مكتوبة بقلم العماد واسلوبه الثقيل، نأخذها هنا بنصها عن كتاب الفتح القسي وهي كما يلي:

«قد نهك العسكر طول البيكار[١١]، وأنضاه قتال الكفار بالليل والنهار، لا سيما في هذه السنين الأربع، فإنه لم يعرج فيها عن مباشرة الحروب ومغامرة الكروب على مصيف ولا مربع. ولا شتا ولا صاف، إلّا حيث صف العدو وصاف. وقد تكررت عليه الزحوف، وتعثرت به الحتوف، وتفللت منه السيوف، وتحلحلت به الصفوف، وتمخضت بآحاده الألوف، وتمحضت لجنى بيضه وسمره من ورق الحديد الأخضر القطوف. حتى سئم وملّ، وضجر وكلّ، وكم عقد عزمه وحلّ، وأنهل نصله من دم الكفار وعلّ، وأمل النصر فقال عسى ولعلّ.

وأما خيوله فقد أجهدها الجهاد، وأنضاها الطراد، وفرى جلودها الجلاد، وعزت فيها لكثرة الجراح الجياد، وأعادت شهبها كما حدود البيض الحداد. وحيث داخلها الرعب من خروج المجروح للمجروح؛ وتفريق السهام منها بين الجسم والروح، صارت تنفر من رنة الحنية، وأنة المبرية، كأنّ عندها للأوتار أوتاراً، ولطائرات النصال في لباتها أوكاراً، أو كأنها

(١٠) الرأي الرائب: الذي فيه شبهة وكدر. والشأو الشائب: الغاية غير السديدة.

(١١) البيكار: كلمة فارسية معناها الحرب.

لما رأت أنها تباريها في المطار، وتجاريها في المضمار، ثارت لإدراك الثار، وهذا سبب ما حدث من النفار، وما عادت الآن تدخل على راجل الكفار.

وأما العدد فقد فقدت بالكلية وعدمت، وتكسرت وتحطمت، وتقصفت وتقصبت وتقصمت، وقتلت قبل المقاتل بها وفي يد من استشهد استشهدت.

وأما النشاب فإنه قد فني، بعد أن اتخذ من أخشابه جميع ما وجد واقتني. وقد عدمت أشجاره في منابتها، وأعوزت أخشابه من مناحتها. ونفضت الكنائن، وأنقضت منه ومن كل ما يُذّخر الخزائن. وما تبرح الصناع في الممالك بمصر والشام، وما يجري معها من بلاد الإسلام، يبرون ويريشون، وينصلون ويعملون، ويكلمون ويحملون.

واحتيج في هذه السنين التي استمر فيها القتال، إلى أحمال كثيرة لا يفي بها الصناع ولا يرفعها العمال. وحسبها أن نصولها أعدمت من حديدها المعادن، وخلت من ذخائرها الأماكن. هذا والخادم قائم بأداء هذا الفرض وحده، مسترهف في قطع دابر المشركين غرب عزمه وحدّه. وما استمر على مساعدته، وموازرته ومعاقدته، إلّا صاحبا الموصل وسنجار، وكلاهما عن سنن الإسعاف والإسعاد ما جار. فهو يحضر تارة بنفسه وآونة بولده، ويستمر من جد الموازرة على جدده، ويواظب بعَدده وعُدده، ومدده في مطاولة مدده».

بهذه الصورة القاتمة صور صلاح الدين الموقف للخليفة ليثبط عزمه على إرسال جيش لقتال الصليبيين.

وصلاح الدين هذا الذي أرسل هذه الرسالة التي يعلن بها العجز عن الحرب كان في الوقت نفسه يعد لحرب لا على الصليبيين، بل على المسلمين.

وصلاح الدين الذي أبرز للخليفة جيشه بهذا المظهر الهزيل الضعيف العاجز عن القتال، كان يتشاور مع أهله ليغزو بهذا الجيش بلاداً إسلامية.

صلاح الدين الذي زعم في هذه الرسالة أن جيشه مل الحرب كان يعد لحرب جديدة ولكن لغير قتال الصليبيين ولغير تخليص البلاد منهم.

راح يفتش عن مكان آخر يقاتل فيه لأن إنقاذ الوطن الاسلامي من الصليبيين يحد من نفوذه ويقلل من هيمنته. أما القتال في مناطق أخرى فإنه يزيد من نفوذه ويكثر من هيمنته، فإذا ضمن ذلك فليبق الصليبيون في بلاد الشام.

ولو أن المناطق التي عزم على القتال فيها هي مناطق أجنبية يريد إدخالها ضمن المناطق

الإسلامية لهان الأمر، ولكن صلاح الدين الذي عزم على مسالمة الصليبيين وإنهاء الحرب معهم والتسليم بوجودهم... صلاح الدين هذا كان يخطط لغزو البلاد الاسلامية وسفك دماء المسلمين تحقيقاً لمطامعه الشخصية. عزم على ترك الصليبيين في أمان واتجه لترويع المسلمين الآمنين.

قال ابن الأثير وهو يتحدث عن وفاة صلاح الدين:

«كان قد أحضر قبل مرضه ولده الأفضل علياً وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل، وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأي جهة نقصد؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه. وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج أرسلان، وقال هي اكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً وهي أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فاذا ملكناها منعناهم من العبور فيها.

فقال: كلاكما مقصّر ناقص الهمة. بل أقصد أنا بلد الروم[١٢]، وقال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العساكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت اليكم وندخل منها آذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها. ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك وكان له وقال له فجهز واحضر لنسير. فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده».

وقال مثل ذلك ابن كثير في الصفحة ٢ من الجزء السابع.

يقول صلاح الدين: لقد تفرغنا من الفرنج، وليته كان قد تفرغ منهم باستئصالهم مستعيناً عليهم بجيش الخلافة، ولكنه تفرغ منهم بمصالحتهم وترك البلاد لهم وإعادة ما أخذه منهم اليهم، كما سيأتي بيانه.

لقد تفرغ منهم بذلك وراح يحاول الانشغال عنهم بالمسلمين.

الاتجاه إلى الصليبيين

أرسل صلاح الدين رسالته المقدم ذكرها إلى الخليفة الناصر، غير واثق من أن الناصر سيقنع بالعدول عن الزحف إلى فلسطين. وخوفاً من المستقبل المجهول، وحذراً من أن يصر الناصر على عزمه صمم صلاح الدين على الاتجاه إلى الصليبيين لايقاف الحرب معهم

(١٢) المقصود ببلد الروم هنا الأناضول التي كانت بلاداً إسلامية، وكان يحكمها يومذاك أولاد قلج أرسلان.

أولاً، ثم للتحالف معهم على قتال جيوش الخلافة إذا دخلت فلسطين.

ففي الوقت الذي كان يرسل رسالته إلى بغداد، كان يراسل الصليبيين لعقد الصلح معهم، وكان الوسيط بينه وبينهم أخوه العادل الذي تولى بنفسه الاتصال بالصليبيين متمثلين بملك الانكليز الذي يسميه العماد ملك الانكتير. ويصف العماد استجابة الملك الصليبي للصلح وجوابه للعادل على طلبه بأسلوبه المعهود.

ومن الطريف، وربما هو من المحزن أن العادل المندوب المفاوض، لم يكتف بزوجاته المسلمات، ولم يشغله الأمر الخطير القادم عليه، بل طار به الخيال إلى الجمال الأوروبي والانوثة الانكليزية، فرآها فرصة سانحة ليدخل في حريمه إلى جانب الكرديات والعربيات والتركيات غادة تيمزية، تلوّن له مفاتن الجمال فيجمع فيه بين السمرة والشقرة، وبين الزرقة والسواد...

لذلك حاول اغراء ملك الانكليز بأن يزوجه أخته، وجعل ذلك من مقومات عقد الصلح، وبهذه المصاهرة يصبح الانكليز من ذوي القربى فتتوحد المصالح وتتمازج الاهداف، هذه المصالح وهذه الاهداف التي كان عليها أن تتوحد وتتمازج لمواجهة الخطر المتوقع، خطر اقتحام فلسطين من جيوش الخلافة الاسلامية.

ويبدو أن ملك الانكليز قد منّى العادل أول الأمر وأطمعه ليزداد حماسة للتحالف بين الفريقين، ولما تيقن الملك الانكليزي من تهالك صلاح الدين على مصالحتهم والتحالف معهم، عاد يتأبى على العادل تحقيق مطلبه كما سنرى فيما دونه العماد الاصفهاني في **الفتح القسي**.

وإننا لنأخذ هنا نص ما ذكره العماد تظرفاً وتأسفاً معاً:

قال العماد:

«وصلت رسل ملك الإنكتير إلى العادل بالمصافحة على المصافاة، والمواتاة في الموافاة، وموالاة الاستمرار على الموالاة، والأخذ بالمهاداة، والترك للمعاداة. والمظاهرة بالمصاهرة، وترددت الرسل أياماً، وقصدت التئاماً، وكادت تحدث انتظاماً. واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الإنكتير، وأن يعول عليهما من الجانبين في التدبير. على أن يحكم العادل في البلاد، ويجري فيها الأمر على السداد. وتكون الامرأة في القدس مقيمة مع زوجها، وشمسها من قبوله في أوجها. ويرضي العادل مقدمي الفرنج والداوية والاسبتار ببعض القرى، ولايمكنهم من الحصون التي في الذرا. ولا يقيم معها في القدس إلّا قسيسون ورهبان، ولهم منا أمان وإحسان.

واستدعاني العادل والقاضي بهاء الدين بن شداد؛ وجماعة من الأمراء من أهل الرأي والسداد؛ وهم: علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وقال لنا: «تمضون إلى السلطان، وتخبرونه عن هذا الشان. وتسألونه أن يحكمني في هذه البلاد، وأنا أبذل فيها ما في وسع الاجتهاد».

فلما جئنا إلى السلطان عرف الصواب، وما أخر الجواب. وشهدنا عليه بالرضى، وحسبنا أنه كمل الغرض وانقضى. وذلك في يوم الاثنين تاسع عشري رمضان.

وعاد الرسول إلى ملك الإنكتير لفصل أمر الوصلة، وإزاحة الجملة وإزاحة العلة. واعتقدنا أن هذا أمر قد تم، ونشر انضم، وصلاح عم، وصلح أذم؛ وحكم مضى، واستحكم به الرضى، وأن الانثى تميل إلى الذكر، وتزيل وساوس الفكر؛ وأن بركوب الفحل، النزول على الذَّحل[١٣] وأن الشَّكر[١٤] يجلب الشُّكر، ويبدل بالعرف النكر؛ وأن الوقاع يؤمن من الوقائع، وأن القراع ينقضي بانقضاض القارح القارع. وأن الحرب بكسر الحاء وحذف الباء سلم، وأن غرم العرس في العسر يسر وغنم. وأن هذا الأخ لتلك الأخت كفو، وأن هذا العقد للخرق المتسع رفو، وأن الكدر يعقبه صفو؛ وأن التزويج ترويج، وتقويم لما فيه تعويج.

وشاع الذكر، وضاع النشر، وذاع السر، وبلغ الخبر إلى مقدميهم ورؤوسهم، فقصوه على قسوسهم، وعسروا على عروسهم. فجبهوها[١٥] بالعذل واللذع، وأنجهوها[١٦] بالقدع والقذع[١٧]. وقالوا لها: «كيف تفجئينا بأفجع ملم مؤلم. وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم. فإن تنصّر تبصّر، وإن تسرع فما تعسر، وإن أبى أبيناه، وإن أتى أتيناه، وإن خالف خالفناه، وإن حالف حالفناه، وأي وجهة هنا للائتلاف، ونحن لاختلاف الدين ندين بالخلاف.

فرهبت بعدما رغبت، وبطلت بعدما طلبت، وسلت بعدما سألت، ونزت بعدما نزلت، وكرهت وكانت شرهت، وكانت اكتحلت فودت أنها مرهت[١٨]، فأرسلت إلى الرسول، وأقبلت عليه بالقبول، ثم تصلبت في القسم، وأقسمت بالصليب، أنها مجيبة إلى التقرير

(١٣) الذحل: الثأر.
(١٤) الشكر: النكاح.
(١٥) جبهوها: فاجأوها، ردّوها عن حاجتها.
(١٦) أنجهوها: ردّوها أقبح ردّة، استقبلوها بما تكره.
(١٧) القدع: الجبن والانكسار. والقذع: القذر، الخناء الفحش.
(١٨) مرهت العين: فسدت وابيضّت بواطن أجفانها.

والتقريب، وأنها مسارعة إلى التمكين، لكن بشرط الموافقة في الدين، فأنف العادل وعدل عن استئناف الحديث، وأبى الله أن يجمع بين الطيب والخبيث.

اعتذر الملك بامتناع أخته، وأنه في معالجتها وتعرف رضاها في وقته[١٩].

خداع صلاح الدين

كان صلاح الدين في هذا الوقت يلعب لعبته المزدوجة، ففي وقت واحد كان يرسل رسولاً جديداً إلى الخليفة في بغداد يتظاهر فيه بالصمود ليبعد عنه شبهة الاستسلام للصليبيين فلا يفطن الخليفة لما يجري في الخفاء، وكان يرسل أخاه العادل للقاء الملك الصليبي للاسراع في إبرام اتفاق الاستسلام.

فالعماد يذكر في كتابه بدء المفاوضات مباشرة بين العادل والملك الانكليزي قائلاً بهذا النص: «وفي يوم الجمعة ثامن عشر شوال ضرب الملك العادل بقرب اليزك لأجل ملك الانكليز ثلاث خيام وأعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام. وحضر ملك الانكيتر وطالت بينهما المحادثة ودامت المثافنة والمنافثة. ثم افترقا عن موافقة اظهراها ومصادقة قرراها».

ثم يشير إلى إرسال صلاح الدين رسالة إلى الخليفة في بغداد يتجاهل فيها المفاوضات الجارية بينه وبين الصليبيين والتي بدت طلائع نجاحها كما يقول العماد.

لا يتجاهلها فقط، بل يتظاهر باستمراره في القتال، ويقول في رسالة مثل هذه العبارات: «وما ينقضي يوم إلّا عن نصرة تتجدد ونعمة تتمهد وجمع للعدو يتبدد وجمر لنكاية فيه يتوقد، وخد للسيف من حدة يوم الشرك يتورد، وفتح بكر من الحرب العوان بلقاح البيض الذكور يتولد...».

يكتب هذا وأمثاله للخليفة في بغداد، في نفس الوقت الذي كان فيه أخوه العادل يخطب اخت ملك الانكليز، وفي نفس الوقت الذي نصبت فيه خيمة المفاوضات وملأها مندوب صلاح الدين اخوه العادل بالفاكهة والحلاوة والطعام، وفي نفس الوقت الذي افترق فيه المفاوضان الكبيران عن موافقة اظهراها ومصادقة ـ كما يقول العماد.

ثم لا يبالي صلاح الدين بالتناقض بين رسالته هذه وبين رسالته التي أرسلها من قبل والتي يصف جيشه فيها بالوهن والتمزق وعدم القدرة على مواصلة الحرب.

(١٩) العادل هذا الذي تهمته العيون الإنكليزية وشغف حباً بالقدود البريطانية. العادل هذا شقيق صلاح الدين سلّم القدس للصليبيين وأعادهم إليها.

لقد اعتمد صلاح الدين في مواقفه الخداع، فهو عندما كان يهمه تثبيط عزم الخليفة على مواصلة الحرب عمد إلى وصف جيشه بما وصفه به من الضعف والانهيار.

وعندما بدأ مفاوضات الاستسلام والتحالف خشي أن تتسرب أخبارها إلى الخليفة في بغداد، فتظاهر بالقوة ومواصلة الحرب ليطمئن الخليفة الناصر.

الاستسلام

انتهت المفاوضات بالاستسلام الكامل للصليبيين، لا بإنهاء حالة الحرب بين الفريقين فقط.

هذا الاستسلام مرده إلى أن صلاح الدين كان بحاجة للصليبيين لمقاومة جيوش الخلافة إذا أصر الناصر على إرسال جيوشه، وعلم الصليبيون بهذه الحاجة فاشتطوا في مطالبهم ونزل صلاح الدين على مطالبهم، فكان أن أعاد إليهم معظم فلسطين ما عدا القدس.

لنستمع إلى عميل آخر من عملاء صلاح الدين هو قاضيه ابن شداد، ونحن لا نريد أن ندين صلاح الدين إلا بلسان عملائه الذين لم يستطيعوا انكار كل الحقائق.

يقول ابن شداد في كتابه **الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة**، يقول وهو يتحدث عن حيفا (ص ١٧٧ ـ ١٧٨): «لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولم تزل بعد في ايديهم».

ويقول وهو يتحدث عن الرملة واللد (ص ١٧٣ ـ ١٨٤): «ولم تزل في أيديهم (الفرنج) إلى أن ملكها وملك معها (لد) الملك الناصر صلاح الدين يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. ولم تزل في يده إلى أن وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين فنزل لهم عن البلاد».

ويقول وهو يتحدث عن يافا (ص ٢٥٦): «ولم تزل في أيديهم (الفرنج) إلى أن فتحها عنوة الملك الناصر صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على يد أخيه العادل وخربها وبقيت خراباً إلى أن تقررت الهدنة بين الملك الناصر (صلاح الدين) وبين الفرنج وشرطوا عليه إبقاءها في أيديهم».

أما المقريزي في **الخطط** (ص ٢٣٥ ج ١) فيحدد ما تركه صلاح الدين للصليبيين: من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وانطاكية.

ويقول الدكتور حسين مؤنس ـ وهو من المدافعين في هذا العصر عن صلاح الدين ـ يقول في مجلة العربي، العدد ١٤٩: «تنازل (صلاح الدين) للصليبيين عن جزء من الساحل يمتد من صور إلى حيفا».

وكعادة صلاح الدين في كل ما يقرره في الأمور المصيرية التي لا تتفق قراراته فيها مع صالح الأمة، بجعل هذه القرارات صادرة عن غيره وأن دوره هو في تبني ما يقرره الآخرون ـ كعادته هذه جمع فريقاً من صنائعه وعرض عليهم ما عزم عليه من قرار الاستسلام وأنه ينتظر رأيهم في ذلك.

وكان فيما قاله لهم ـ كما يذكر العماد (ص ٦٠٣) ـ: فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم في الأمر وأظهرهم على السر واستطلع ما عندهم من الرأي وسرد لهم الحديث من المبادىء إلى الغاي. فأجابوه كما ذكر العماد (ص ٦٠٤): «الصواب أن نقبل من اللّه الآية التي أنزلها وهي قوله: (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها)» إلى آخر ما ذكر العماد أنهم تكلموا به مما لا يخرج عن مضمون الآية.

ثم يقول العماد: «وأجيب ملك الانكليز إلى ما طلب»... ثم يقول: «وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر»... ثم يعترف بتنازل صلاح الدين للفرنج عن البلاد، فيقول: «وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور...».

رسالة إلى بغداد

كان لا بد لصلاح الدين من أن يبرر للخليفة ما أقدم عليه من الاستسلام للصليبيين، وأن يحاول التنصل من مسؤولية ذلك ملقياً بها على من يقول إنه شاورهم فقرروا الاستسلام.

لقد كان يعلم عظم الجريرة، وأن الأمر أكبر من أن يخادع به ولكن كان لا بد له من المخادعة ليجد مخرجاً أمام الخليفة.

لقد كان يعلم أن ما من أحد يصدقه فيما يدعي، وأن الناس كلها تعرف أنه هو صاحب قرار، وأن ما اتخذه مخرجاً لم يكن ليخرجه، ولكن كان لابد من أن يقول ذلك.

ومن العجيب أنه في كل ما ادعى أنه شاور به، لم يذكر اسم واحد من هؤلاء الذين يقول إنه شاورهم وشاركوه في تحمل مسؤولية الاستسلام.

وإذا كان هناك من مشاوَرين فهم أخوه وأولاده. وحتى هؤلاء لم يكن لهم رأي معه، كما رأينا فيما تقدم من القول حين صمم على الاتجاه بالقتال إلى غزو البلاد الإسلامية بعد

أن صافى الصليبيين واستسلم لهم وحالفهم فهو لم يستشر إلّا ولده الأفضل عليّاً وأخاه العادل أبا بكر. وعندما أبدى كل منهما رأيه رفض كلا الرأيين ولم يعمل بواحد منهما، فالرأي رأيه وحده. بعد أن أتم ما أتم وأقر ما أقر أرسل إلى الخليفة رسالة يقول فيها على ما ذكره العماد في الفتح القسي:

«حضر أكابر الدولة وأمراؤها، وأولياء الطاعة وألباؤها وأشاروا بعقد الهدنة».

ثم يقول: «ولقد كان الخادم للسلم متكرها ولا يرى أن يكون كشيحة ملوك العصر عن الغزو مترفهاً. لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء أن المصلحة في المصالحة راجحة» (ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨).

ثم يقول: «ألا وإن في إطفاء هذه الجمرة وقد وقدت سكوناً عاماً وأمناً تاماً» وقد كان صادقاً في جملته الأخيرة، فقد أطفأ جمرة جهاد الصليبيين فأمنوا كل قتال، وعمّ السكون وتم لهم الأمن.

ليس لدينا من النصوص ما يشير إلى وقع نبأ هذا الاستسلام على الخليفة الناصر، إذ لم يكن لديه من يتولى تسجيل أحداثه حدثاً بعد حدث كما كان لدى صلاح الدين الذي اتخذ من العماد نفس ما يتخذه سياسيو اليوم من الأتباع الصحفيين الذين يصوغون أخبارهم حسب ما يوافق هوى أولئك السياسيين.

على أننا استفدنا من تسجيلات العماد فوائد كبرى في ظهور الكثير من الحقائق التي حاول العماد تمويهها فما استطاع التمويه الكامل بل برزت من خلال تمويهاته أمور كشفت لنا الكثير مما كنا نحب كشفه.

ولما كانت مهمة العماد قد انتهت عند هذا الحد، ولم يكتب أحد وصفاً لما جرى في مجلس الخليفة الناصر عند تلقيه رسالة صلاح الدين فاننا لا نستطيع إلّا القول بأن فكرة الناصر بارسال جيوشه إلى فلسطين متعاونة مع جيوش صلاح الدين لطرد الصليبيين قد طويت من ذهنه، إذ لو أنه أصر على تنفيذها لكانت نتيجة هذا التنفيذ الدخول في حرب أهلية إسلامية يتعاون فيها الصليبيون مع المسلمين لقتال فريق آخر من المسلمين. ولم يكن الخليفة الناصر ليقدم على ذلك.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن صلاح الدين لم يستسلم للصليبيين ويتحالف معهم، ودخل جيش بغداد إلى فلسطين وطرد الصليبيين منها؟

الذي كان سيحدث هو توحيد البلاد العربية في حكم واحد يضم ما في حكم صلاح الدين الواصل إلى اليمن وما في حكم الخلافة العباسية، ومن وراء البلاد العربية العالم

الإسلامي الذي يخضع لسيادة معنوية للخليفة في بغداد.

ولكن ذلك كله أضاعه صلاح الدين، وآثر أن يستسلم للصليبيين ليظل مستقلاً بما في يده من بلاد، ولو أدى ذلك إلى بقاء الصليبيين في فلسطين والحيلولة دون توحيد العالم العربي معضوداً من العالم الإسلامي.

بعد معركة حطين

تقام في بعض العواصم احتفالات بمناسبة مرور ٨٠٠ سنة على وقعة حطين التي كانت في ٤ تموز ١١٨٧ (١٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ) والتي انتهت بهزيمة الصليبيين واسترداد المسلمين للقدس، والتي قاد فيها المسلمين صلاح الدين الأيوبي.

وهذه الوقعة جديرة بكل هذه الاحتفالات، ولكن المغالاة والزعم أنها كانت المعركة الفاصلة في الحرب مع الصليبيين هما ما يتنافى مع حقائق التاريخ.

أصحيح أنه كان لمعركة حطين هذه النتائج التي ينوه بها من ينوه؟ وهل صحيح أنها كانت المعركة الحاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؟

إننا سنبسط هنا أمام القارىء هذه الحقائق التاريخية، ونترك له أن يحكم.

لا شك أن النصر في حطين كان نصراً مؤزراً، ولا شك أن ما أسفرت عنه المعركة من استرداد القدس كان إنجازاً عظيماً. ولكن إلى أي مدى أمكن استغلال هذا النصر، وإلى أية نتيجة عملية وصل؟

إننا نقول مستندين إلى ما سجله مؤرخو تلك الأحداث، ومعتمدين على الوقائع المسلم بها: لقد أضاعت التصرفات التي تلت معركة حطين ما كان يمكن استغلاله من هذا النصر، وأضاعت أية نتيجة عملية حقيقية له!

ويجب أن لا يصرفنا التحمس للمعركة، ولا التصفيق المتواصل لمن قادوها عن التبصر فيما أدت إليه تلك التصرفات من عواقب وخيمة لكل ثمرات النصر. ولا أن ننزلق في تهويمات خيالية، وتفكيرات سطحية تبعدنا عن النظر البعيد في تقليب صفحات تاريخنا.

فماذا جرى بعد معركة حطين؟

كان المفروض مواصلة الكفاح لإجلاء الصليبيين عن البلاد، فإذا كان استرداد القدس أمنية غالية تحققت بعد النصر، فليست القدس هي كل الوطن، وأهميتها من حيث الواقع لا تختلف عن أهمية أية مدينة تسترد من أعداء، ولكن أهميتها تفوق هذا الواقع بما تحتوي

من مقدسات إسلامية، وبما ترمز إليه من أنها أولى القبلتين وثالث الحرمين، لذلك كان لاستردادها ذاك الصدى العاطفي البعيد. ويبدو أن ذلك الصدى قد خدّر تفكير الناس فألهاهم عن التبصر في العواقب.

خدّر تفكير الناس يومذاك، وما زال يخدّر تفكير معظم الناس حتى اليوم.

جرى بعد حطين: أن صلاح الدين الأيوبي وهو المنتصر في حطين، المعقودة عليه الآمال في مواصلة الزحف لإنهاء الاحتلال الأجنبي، واقتلاع آخر جذوره فيها.

أن صلاح الدين هذا بطل حطين، لم يكد يطمئن إلى النصر الرائع في تلك المعركة حتى أسرع إلى القيام بعمل لا يكاد الإنسان يصدقه، لولا أنه يقرأ بعينيه تفاصيله الواضحة فيما سجله مؤرخو تلك الحقبة!

المؤرخون الذين خدّرت عقولهم روائع استرداد القدس فذهلوا عما بعده، لم تتخدّر أقلامهم فسجلوا الحقائق كما هي. وظل تخدير العقول متواصلاً من جيل إلى جيل، تتعامى حتى عما هو كالشمس الطالعة!

حصل بعد حطين أن صلاح الدين الأيوبي آثر الراحة بعد العناء والتسليم بعد التمرد فأسرع يطلب إلى الفرنج إنهاء حالة الحرب وإحلال السلام.

إنهاء حالة الحرب وإحلال السلام، وما وراء ذلك من اعتراف بوجودهم وإقرار لاحتلالهم ودولتهم وسمى ذلك هدنة. ويبدو جلياً أن الصليبيين قد استغلوا هذا الطلب أحسن الاستغلال فاشترطوا للقبول بالهدنة أن يعاد إليهم الكثير مما كان قد أخذه صلاح الدين منهم بعد النصر في حطين، ولم تكن القدس بين ما طالبوا به ولا كان من الممكن أن يجيبهم صلاح الدين إلى ذلك لو فعلوا، لأنه لو أجاب لبطل مفعول المخدّر وتنبهت العقول.

ووافق الصليبيون على إنهاء حالة الحرب وإحلال السلام، وعقدت الهدنة في ٢١ شعبان سنة ٥٨٨هـ وقبض الصليبيون الثمن الباهظ الذي دفعه صلاح الدين لهم لقاء قبولهم بالمهادنة، فأعاد إليهم حيفا ويافا وقيسارية ونصف اللد ونصف الرملة وغير ذلك، حتى لقد صار لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، بل صارت لهم فلسطين إلا أقل القليل ولم يكن لهم ذلك من قبل.

يقول ابن شداد في كتابه **الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة** وهو يتحدث عن حيفا (ص ١٧٧ ـ ١٧٨): ولم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج

فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم، وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ثم لم تزل بعد في أيديهم».

وقال وهو يتحدث عن الرملة واللد (ص ١٧٣ - ١٨٤): «لم تزل في أيديهم إلى أن ملكها وملك معها لد الملك الناصر صلاح الدين يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. ولم تزل في يده إلى أن وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج سنة ثمان وثمانين، فنزل لهم عن البلاد».

وقال وهو يتحدث عن يافا (ص ٢٥٩): و «لم تزل في أيديهم (الفرنج) إلى أن فتحها عنوة الملك الناصر صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على يد أخيه العادل وخربها وبقيت خراباً إلى أن تقررت الهدنة بين الملك الناصر (صلاح الدين) وبين الفرنج وشرطوا عليه ابقاءها في أيديهم».

ولنلاحظ هنا كلمة (شرطوا عليه) ودلالتها المؤلمة التي توضح لنا أن صلاح الدين هو المتوسل لطلب الهدنة وأن الفرنج هم واضعو الشروط.

ليس ما ذكرناه هنا كل النصوص لهذه الحقائق، ولم نخترها اختياراً، وإنما عمدنا إلى أول كتاب وقع عليه نظرنا في خزانة الكتب فتناولناه فكان كتاب **الأعلاق الخطيرة**.

وتلا هذا التسليم للصليبيين فعل أنهى كل تفكير في مقاومتهم وإجلائهم عن البلاد في المستقبل، بل أدى إلى ما هو شر من ذلك، أدى إلى توسيع رقعة احتلالهم، وتمكينهم في مناطق أخرى غير التي مكنهم منها صلاح الدين نفسه.

كان ورثة صلاح الدين من أخوة وأولاد كثيرين فرأى أن يقسم البلاد بينهم، وأن يقطع كل واحد منهم جزءاً حتى انفرد كل واحد من أخوته وأولاده بالرقعة التي خصصت به، فعاد الوطن مزقاً بين الورثة، ونسي هو ونسي ورثته أن الاحتلال الصليبي لا يزال جاثماً على صدر الوطن، وأن ذلك لا يستدعي تمزيق الوطن وتشتيت شمل حكامه، بل يستدعي تماسك وحدته وتضافر أمرائه، ولم يقنع كل واحد من هؤلاء الورثة بما تحت يده من مخلفات صلاح الدين بل راحوا يتنازعون ويتقاتلون، ويستنصرون في هذا التنازع والتقاتل بالصليبيين مغرين إياهم بإعطائهم ما يشاؤون من بلاد وعباد!

ولن نسترسل في تفاصيل تلك النزاعات وتلك الأعطيات، بل سنكتفي بذكر واحدة منها هي الطامة الكبرى التي قضت على كل ثمرة من ثمرات معركة حطين، وأضاعت كل نتيجة من نتائجها، وجعلتها كأنها لم تكن.

فإذا كان استرداد القدس على يد صلاح الدين قد أكسب ذلك الزمن كل ذلك التألق وأعطاه كل ذلك الوهج، ثم خدّر الأفكار والعقول وأعماها عن التبصر في الحقائق، فإن تصرف صلاح الدين نفسه قد أطفأ ذلك الألق ومحا ذلك الوهج، وإن لم يبطل مفعول المخدّر، فكان من تقسيمه البلاد بين أقربائه وما نتج من تنازعهم وتشاكسهم واستنصارهم بعضهم على بعض بالصليبيين، أن ولدي أخيه العادل وهما الكامل والأشرف سلما إلى الصليبيين القدس نفسها وأعاداهم إليها.

وهكذا إذا كان الانتصار في معركة حطين يثير في النفس البهجة، فإن البهجة لا تلبث أن تتلاشى حين نتذكر التصرفات التي أعقبت المعركة وذهبت معها دماء المقاتلين هدراً وفي سبيل لا شيء.

صلاح الدين يُورّث البلاد والعباد

على أن جريمة صلاح الدين لم تقف عند هذا الحد، فقد اعتبر ما يحكمه من البلاد ملكاً شخصياً له يملكه كما يملك القرى والمزارع، لذلك قسمه بين ورثته على الشكل الذي يحدده ابن كثير كما يلي:

مصر لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح.

دمشق وما حولها لولده الافضل نور الدين علي وهو أكبر أولاده.

حلب وما إليها لولده الظاهر غازي غياث الدين.

الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل.

حماه ومعاملة أخرى معها لابن أخيه الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر.

حمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير نجم الدين أخي أبيه نجم الدين ايوب.

اليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه لأخيه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب.

بعلبك واعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه.

بصرى وأعمالها للظافر بن الناصر.

ويضيف ابن كثير قائلاً: ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح تضطرب وتختلف في جميع الممالك.

ويقول الدكتور حسين مؤنس عن ذلك:

قسم (صلاح الدين) الامبراطورية ممالك بين أولاده وأخوته وابناء أخويه، كأنها ضيعة يملكها لا وطناً عربياً اسلامياً ضخماً يملكه مواطنوه.

ويقول أيضاً عن خلفاء صلاح الدين:

عملوا أثناء تنافسهم بعضهم مع بعض على منح بقايا الصليبيين في انطاكية وطرابلس وعكا امتيازات جديدة، فتنازل لهم السلطان العادل عن الناصرة، وكانت بقية من أهل مملكة بيت المقدس الزائلة قد أقامت في عكا واستمسكت بلقب ملوك بيت المقدس فاعترف لهم به هذا (العادل) في ثلاث معاهدات.

وحاول الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب أن يتحالف مع الصليبيين على عمه العادل.

وعندما نزلت الحملة الصليبية الخامسة شاطيء دمياط يقودها الفارس الفرنسي جان دي بريين Jean de Brienne واستولى على دمياط سنة ١٢١٨م، استنجد العادل بأقاربه ملوك الشام والجزيرة فلم يسعفه أحد منهم، ولو لم ينهض المتطوعون من نواحي الدلتا ويتصدوا للصليبيين ويكسروا سدود النيل لما أمكن الانتصار على المغيرين على المنصورة.

وعندما أقبل الامبراطور فردريك الثاني يقود الحملة الصليبية السادسة ونزل عكا سنة ١٢٢٧م، أسرع الملك الكامل سلطان مصر وتنازل له عن بيت المقدس وجزء من أرض فلسطين يمتد من الساحل إلى البلد المقدس، ووقع معاهدة بذلك في ١٨ شباط ١٢٢٩م.

وفي سنة ١٢٤٤م تقدم أيوبي آخر هو الصالح اسماعيل صاحب دمشق فجعل للصليبيين الملكية الكاملة لبيت المقدس وسلّم لهم قبة الصخرة.(انتهى)

ونزيد نحن على ذلك:

لم يكد صلاح الدين يموت حتى استقل كل واحد من ورثته بما ورثه عن صلاح الدين، وتمزقت البلاد وفقدت وحدتها، وتشتت الشعب قطعاً قطعاً لا تربطها رابطة. ولم يقنع كل وارث بما ورثه بل راح كل واحد منهم يطمع فيما في يد غيره، ويستعين على غريمه بالصليبيين. ففي سنة ٦٣٨هـ سلم الصالح اسماعيل صاحب

دمشق للصليبيين صيدا وهونين وتبنين والشقيف ليساعدوه على ابن أخيه الصالح ايوب صاحب مصر.

وفي سنة ٦٢٥هـ (شباط سنة ١٢٢٩م) سلم الكامل والأشرف ولدا العادل أخي صلاح الدين، سلما القدس وما حولها للملك الصليبي فريدريك الثاني وسلماه معها الناصرة وبيت لحم وطريقاً يصل القدس وعكا.

ويصف ابن الاثير وقع هذه الرزية على العالم الاسلامي بقوله: «واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه».

ويصف المقريزي ما قام بين ورثة صلاح الدين من صراع قائلاً، عن العزيز عماد الدين أبي الفتح عثمان بن صلاح الدين الذي كان حاكماً في مصر: «وتنكر ما بينه وبين أخيه الأفضل فسار من مصر لمحاربته وحصره بدمشق فدخل بينهما العادل أبو بكر حتى عاد العزيز إلى مصر على صلح فيه دغل، فلم يتم ذلك وتوحش ما بينهما وخرج العزيز ثانياً إلى دمشق فدبر عليه عمه العادل حتى كاد أن يزول ملكه وعاد خائباً».

ثم يقول المقريزي: «وخرج العادل بالعزيز لمحاربة الأفضل فحصراه بدمشق حتى أخذاها منه بعد حروب وبعثاه إلى صرخد...».

ويقول المقريزي أيضاً: «فاختلف أمراء الدولة علي المنصور بن ناصر الدين محمد الذي حكم بعد أبيه العزيز عثمان في مصر، وكاتبوا الملك الافضل علي بن صلاح الدين فقدم من صرخد فاستولى على الأمور ولم يبق للمنصور معه سوى الاسم، ثم سار به من القاهرة يريد أخذ دمشق من عمه العادل. وقد توجه العادل إلى ماردين فحصر الأفضل دمشق، وبلغ العادل خبره فعاد وسار بريده حتى دخل دمشق فجرت حروب كثيرة آلت إلى عود الافضل إلى مصر بمكيدة، دبرها عليه العادل وخرج العادل في أثره وواقعه على بلبيس فكسره...» (**المخطط** ص٢٣٥ ج١).

هذا الذي نقلناه هنا هو مثال عما آل إليه أمر الوطن الذي مزّقه صلاح الدين بين ورثته الذين راحوا يستعين بعضهم على بعض بالصليبيين ويبذلون لهم البلاد ويعيدونها إليهم، ولم يستثنوا من ذلك حتى القدس التي اعادوها إلى الصليبيين.

فالتفاخر بأن صلاح الدين استرد القدس يخزيه بأن تصرفات صلاح الدين أدت إلى أن يعود الصليبيون إلى القدس...

صلاح الدين واليهود[٢٠]

موسى بن ميمون

«ما بعد موسى غير موسى!»
مثل يهودي

يقول ابن أبي أصيبعة (١٠٣ - ١٢٦٩م) في كتابه الشهير **طبقات الأطباء**، عن موسى ابن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤م): «الرئيس أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي، يهودي، عالم بين اليهود، ويعدّ من أحبارهم وفضلائهم، وكان رئيساً عليهم في الديار المصرية... وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين (الأيوبي) يرى له ويستطبّه، وكذلك ولده الملك الأفضل علي. وقيل إن الرئيس موسى قد أسلم في المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقه(!!!) ثم إنه لمّا توجّه إلى الديار المصرية ارتدّ!»[٢١].

تكمن أهمية الرواية السابقة في صدورها عن ابن أبي أصيبعة، الطبيب الذي تعلّم الطب في المارستان الناصري في القاهرة[٢٢] والذي كان صديقاً لابراهيم بن موسى بن ميمون، الذي كان بدوره في خدمة الملك العادل[٢٣].

من هو ابن ميمون؟

تقول الموسوعة اليهودية، النسخة الإنكليزية، عن موسى بن ميمون: «أشهر شخصية يهودية في الحقبة المابعد تلمودية، وواحد من أعظم الشخصيات اليهودية على الإطلاق؛ ولد ابن ميمون في قرطبة بإسبانيا، لأب هو ديّان (قاض ديني يهودي) قرطبة، وهو أيضاً عالم شهير...

نتيجة لسقوط قرطبة بأيدي الموحدين في أيار أو حزيران عام ١١٤٨م، وكان موسى قد بلغ لتوه عامه الثالث عشر، انتشر الاضطهاد الديني، الأمر الذي اضطر ميمون، والد موسى، على مغادرة قرطبة برفقة عائلته وضاع أثرهم (...) حتى عام ١١٦٠م حين استقرّوا في فاس. مع ذلك، فخلال سنوات التيه تلك، التي يصفها ابن ميمون ذاته بأنها حقبة «كان فيها عقلي متعباً، وسط نفي مقدّر من اللّه، في رحلات وتقاذفات فوق عواصف البحر» (نهاية تفسير المشنا)، وضع أسس علومه الواسعة المتنوعة بل حتى عمله الأدبي أيضاً. فعام ١١٥٨م، لم

(٢٠) نبيل فياض في كتابه يوم انحدر الجمل من السقيفة، ص ٧٣ - ٨٠، Exist، بيروت - لهاسول، ١٩٩٤.
(٢١) طبقات الأطباء، ٥٨٢.
(٢٢) المنجد، ٥٠.
(٢٣) طبقات الأطباء، ٥٨٣.

يبدأ مسودة السراج وتفسيره الهام لـ المشنا (أحد جزأي التلمود) فقط، بل كتب في السنة ذاتها، بناء على طلب أحد أصدقائه، مقالة في التقويم اليهودي، وأخرى في المنطق، كما أكمل كتابة ملاحظاته حول تفسير عدد من رسائل التلمود البابلي، إضافة إلى عمل كان هدفه استخلاص الهالاخا (القسم التشريعي) من التلمود الأورشليمي. وبحسب مصادر إسلامية فإن العائلة تحوّلت إلى الإسلام رسمياً في مكان ما في الفترة ما بين عامي ١١٥٠ و١١٦٠م. لكن سعاديا بن ديّان، يقول: إن المسلمين يقولون الشيء ذاته عن عدد من علماء اليهود، مثل دوناش بن تميم، حسداي بن حسداي، وغيرهما!

على أية حال، عام ١١٦٠م، كان ميمون وابناه، موسى وداود، وابنته، في فاس. فقد غيّر عبد المؤمن، الحاكم الموحدي، موقفه من اليهود، عندما تقدّمت به السن؛ فصار أكثر اعتدالاً حيال أولئك الذين يعيشون وسط المغرب، الذي كان جزءاً من مملكته. لهذا السبب ربما ارتأى ميمون عام ١١٥٩م أو بداية عام ١١٦٠م أن فكرة الهجرة إلى فاس مع أسرته جديرة بالاعتبار. لقد سكن ابن ميمون فاس حين كان يستوطن فيها الحاخام يهودا هاكوهين ابن شوشان، الذي وصلت شهرته بالعلم والتقوى إلى اسبانيا، وكان ابن ميمون آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر، فدرس على يديه. كان عدد من اليهود قد تحولوا إلى الإسلام ظاهرياً عندئذ وكانت ضمائرهم تعذّبهم، الأمر الذي حض ميمون على كتابة عمله رسالة التعزية[٢٤] الذي أكّد لهم فيه أن من يؤدي صلواته وإن بأقصر صيغة ويقوم بأعمال صالحة يظل يهودياً (حمداءه غنوزاه ٧٤ ـ ٨٢). أثناء ذلك، كان ابنه يعمل في تفسيره لـ المشنا، كما واصل أيضاً دراساته العامة، خاصة للطب؛ وهو في عمله الطبي يشير دائماً إلى ما حصل عليه من مسلمي شمال افريقيا من معارف وتجارب...

لا تشير رسائل الأب أو ابنه، وكذلك أقوال ابن ميمون بعد مغادرته مراكش، إلى اضطهادات أو اعتداءات دموية؛ لكن ابن ميمون في السطور الأولى من رسالة في التبديل القسري للدين، يستنكر بعنف ادانة المتحوّل عن دينه قسرياً من قبل «الحاخام المزيّف الذي لم يختبر قط ما عانته جماعات يهودية من صنوف الاضطهاد»؛ وانتهى إلى القول إنه على اليهودي أن يهاجر إذا ما أُجبر على انتهاك الشرع الإلهي : «عليه أن لا يبقى في دنيا ذلك الملك؛ وأن يبقى في بيته حتى يهاجر». ويقول مرة أخرى، بإلحاح أشد: «عليه أن لا يبقى في منطقة التحوّل القسري بأي شكل؛ وكل من يبقى في مكان كهذا إنما يجدّف على اسم

(٢٤) يقول ابن ميمون بهذا الصدد: «إنه لم يُطلب إليهم أن يؤكدوا شعائر هذا الدين أداءً عملياً، بل كل ما كان يطلب إليهم هو أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها، وأن المسلمين أنفسهم يعرفون أنهم غير مخلصين في النطق بها، وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصّبين».

اللّه وهو شرير كالآثم عن قصد؛ أما بالنسبة لأولئك الذين يضلّلون أنفسهم بالقول إنهم سيبقون حتى يأتي المشيح (المسيح المنتظر) ويقودهم في حرب إلى القدس، فلا أعرف كيف سيطرهم (المشيح) من وصمة عار تبديل الدين (حمداه غنوزاه ١١ ب - ١٢ آ).

عمل ميمون وأولاده وفق هذه النصيحة، مثل كثيرين غيرهم حتماً. ومن المفترض أن مغادرة ابن ميمون لبلد الموحدين حدثت عام ١١٦٥م، وهي مغادرة، كما يقول سعاديا بن ديان (سدير هادووروت في حمداه غنوزاه، ٣ب)، حرّض عليها استشهاد يهودا بن شوشان، الذي دُعي إلى التخلّي عن ديانته، ففضل الموت على الارتداد. وهرب ميمون وعائلته إلى عكّا[٢٥] حيث أقاموا نحو ستة أشهر، أقاموا خلالها صداقة حميمة مع الديّان يافث بن علي وزاروا معه القدس. وعن ذلك يقول ابن ميمون: «دخلت البيت الكبير المقدّس وصلّيت هناك يوم الخميس السادس من مار حشوان»[٢٦]... غادرت العائلة فلسطين مبحرة إلى مصر. وبعد إقامة قصيرة في الاسكندرية، انتقلت الأسرة إلى القاهرة وأقامت في الفسطاط، بلد القاهرة القديمة.

في تلك الفترة، مات ميمون، إمّا في فلسطين أو في مصر. وقد اقتُرح أن سبب اختيار الاسكندرية هو وجود «أكاديمية أرسطو، معلّم الاسكندر»، «خارج البلدة» آنذاك، والتي «كان الناس يأتون إليها من كافة أرجاء العالم لدراسة حكمة أرسطو الفيلسوف». لكن دوافع الانتقال إلى القاهرة غير مؤكدة. مع ذلك، فقد كان أثر ابن ميمون كبيراً ومؤثّراً للغاية في القضاء على سلطة القرّائين المسيطرين آنذاك حتّى أنه فاق في ذلك كل حاخاميات القاهرة؛ وهو أمر فوق الشكوك؛ ففي القرن السابع عشر، قال ديّان في مصر اسمه يعقوب فرجي، إن هذا التحدّي هو الذي أجبر ابن ميمون على الانتقال إلى القاهرة.

كان ابن ميمون في السنوات الثماني الأولى خالياً من كل هم. فقد كان أخوه داود، تاجر الأحجار الكريمة، يتولّى إعالته، فاستطاع بالتالي تكريس ذاته بالكامل لتحضير أعماله للنشر ولعمله الشاق المشرّف، كقائد ديني وعلماني للطائفة. فأكمل تفسيره لـ المشنا، (السراج)، عام ١١٨٦م. لكنه أصيب بضربة عاصفة في السنة التي تلتها. فقد غرق أخوه داود في المحيط، حيث كان في رحلة عمل، تاركاً خلفه زوجة وطفلين؛ ولم تضع معه ثروة العائلة فحسب، بل أموال الآخرين أيضاً. كان وقع الصدمة سيئاً على ابن ميمون. فقد عانى

(٢٥) وصل ابن ميمون إلى فلسطين وقت كانت مسرحاً للصليبيين، المتيلون وغير المضيافون، فلم يكن قادراً على التجذّر هناك.

أنظر: M. Eliade, *E. of Religion*, 9/131.

(٢٦) الاسم الذي أطلق على الشهر الثامن من السنة اليهودية في حقبة ما بعد السبي. وهو يختصر عادة إلى حشوان. أما اسمه قبل السبي فهو «بول» (١ مل ٦: ٣٨).

من انهيار نحو سنة، ثم كان عليه أن يبحث عن مورد لعيشه. فقرر العمل في مجال الطب، رافضاً فكرة تحصيل عيشه من التوراة.

لم تأتِ شهرة ابن ميمون بسرعة، لكنها لم تبدأ بالذيوع، إلا بعدما تم تعيينه كواحد من أطباء القاضي الفاضل[٢٧]، الذي عيّنه صلاح الدين وزيراً وكان حاكم مصر الفعلي بعد مغادرة صلاح الدين البلد عام ١١٧٤م. وحوالى عام ١١٧٧م تم تعيين ابن ميمون رسمياً رئيساً للطائفة في الفسطاط.

كانت سنوات حياته في تلك الحقبة هي الأكثر عملاً وإثماراً. فقد تزوج في مصر من اخت ابن المالي، أحد مستشاري الملك، الذي تزوّج بدوره من أخت ابن ميمون الوحيدة – كانت زوجة ابن ميمون الأولى قد ماتت صبية – وأنجبا ابناً واحداً هو ابراهيم، الذي كرّس ذاته بكل حب لتعليمه... ورغم انشغاله بحمل عمله الثقيل واهتمامه بمسائل الطائفة، ومراسلاته الكثيرة إلى كافة أرجاء العالم اليهودي، فقد استطاع تدوين العملين الكبيرين اللذين قامت شهرته عليهما أساساً: **المشنيه توراه** (جمع عام ١١٨٠م) **ودليل الحائرين** (جمع عام ١١٥٨ وربما ١١٩٠).

وغالباً ما كان يجري الاستشهاد بالمقطع التالي من رسالته إلى مُتَرجمه («للدليل») (**دليل الحائرين** مكتوب أصلاً باللغة العربية) صموئيل بن طيبون، التي يصف فيها واجباته وهمومه الكثيرة، بهدف إقناع ابن طيبون بالعدول عن زيارته[٢٨]:

«إني أقيم في مصر (الفسطاط) والسلطان يقيم في القاهرة؛ وهذان المكانان يبعدان عن بعضهما مسافة رحلة يوم سبت. إن واجباتي حيال السلطان ثقيلة جداً؛ فأنا مجبر على زيارته كل يوم؛ باكراً في الصباح؛ وحين يكون هو أو أحد أولاده، أو أي من حريمه، موعكاً، لا أجرؤ على مغادرة القاهرة، بل يجب أن أبقى جلّ يومي في القصر. وغالباً ما يحدث أن يمرض واحد أو إثنان من موظفي الملك، ولا بد أن أسهر على علاجهم. وهكذا يتضمن نظامي اليومي الذهاب إلى القاهرة في الصباح الباكر جداً حتى لو لم يحدث أي شيء، ولا أعود إلى مصر حتى ما بعد الظهر. وعندها أكون شبه ميت من الجوع... لأجد القاعات ملأى باليهود والأغراب، النبلاء والعامة، القضاة والحجّاب،

(٢٧) يقول ول ديورانت: اختير طبيباً لنور الدين علي، أكبر أبناء صلاح الدين، والقاضي الفاضل البيساني، وزير صلاح الدين، **قصة الحضارة** ١٤/١٢١.

(٢٨) يقول أيضاً في تلك الرسالة: أخبرك أني أحرزت شهرة كبيرة في الطب بين كبار الناس، مثل قاضي القضاة، الأمراء... وغيرهم... وهذا ما يجبرني عن قضاء وقتي في القاهرة باستمرار أزور المرضى.
أنظر: M.Eliade, *Op. Cit*, 9/131.

الأصدقاء والأعداء ـ خليط من الناس في انتظار عودتي.

نتيجة لذلك، لا يمكن لاسرائيلي أن يلتقي بي على انفراد، غير يوم السبت. ففي ذلك اليوم، تأتي إليّ الطائفة كلّها، أو معظم أفرادها، بعد الخدمة الصباحية (في الكنيس)، حيث أعلّمهم واجباتهم خلال الأسبوع بطوله: فندرس سوية حتى ما بعد الظهيرة، وعندها يغادرونني. لكن بعضهم يعود، ويظل يقرأ معي من بعد خدمة ما بعد الظهيرة حتى صلاة المساء... بهذه الطريقة أمضي اليوم».

بعكس سلاطين مصر السنّة، كان حاكم اليمن شيعياً، وكان يمارس الضغط الديني، فيعطي اليهود حرية الاختيار بين التحوّل إلى الإسلام أو الموت. ولم يؤدّ هذا إلى موت العديدين فحسب، بل لقد ظهر بين اليهود أيضاً مسيح دجّال أو مبشّر بقدوم المسيح، رأى في هذه الحوادث الظلام الدامس الذي يسبق الفجر، الذي يبشّر بقرب مجيء العصر السيائي. فاستدار يهود اليمن بيأس إلى ابن ميمون، الذي استجاب لمطلبهم عام ١١٧٢م[٢٩] بـ الرسالة اليمنية. وكانت موجّهة للحاخام تاتثيل الفيومي، والذي طُلب إليه إرسال نسخة عنها إلى كل الجماعات في اليمن.

كانت الرسالة محرّرة بعبارات بسيطة على نحو مقصود: «بحيث يمكن للرجال والنساء والأولاد قراءتها بسهولة»...

كانت آثار الرسالة هائلة. إلى درجة أن يهود اليمن أدخلوا صلاة «لأجل نفس معلّمنا موسى بن ميمون» في القوديش، عرفاناً منهم بالجميل لرسالة الأمل؛ كذلك لا بد من الاشارة إلى أن ابن ميمون استخدم نفوذه في البلاط لتخفيف الضرائب الثقيلة عن كاهل يهود اليمن.

مع إكمال الدليل، وصل عمل بن ميمون الأدبي إلى نهايته، ورغم صحته المتعبة ظل على رأس عمله كرئيس للطائفة اليهودية وكطبيب للبلاط، إضافة إلى مراسلاته الكثيرة...

مات ابن ميمون يوم ١٢٠٤/١١/١٣م[٣٠].

المناقشة

في النص السابق، المأخوذ عن الموسوعة اليهودية، حقائق واضحة وحقائق بحاجة إلى توضيح أُخفيت بشكل مدروس:

(٢٩) يجب أن نلاحظ هنا، أن الأيوبيين دخلوا اليمن عام ١١٧٣، أي بعد وصول رسالة ابن ميمون إليها بأشهر ولا نعرف بدقة دور اليهود في ذلك

(٣٠) *E. Judaica*, 11/754.

١ ـ ابن ميمون، دون ريب، أكبر عقلية يهودية على مر العصور. إضافة إلى ثقافته الهامة جداً، خاصة في التلمودين، البابلي والأورشليمي ـ ثقافة تؤهل صاحبها للخوض في كل شيء.

٢ ـ عند ابن ميمون كراهية متأصلة لكل ما هو عربي مسلم. ونستدل على ذلك من رسالتيه: **في التبديل القسري للدين، والرسالة اليمنية**.

٣ ـ ما يهم للغاية هو الفترة التي أمضاها ابن ميمون بين عامي ١١٥٠ و١١٦٠ والتي يعمل اليهود جاهدين على إحاطتها بالغموض. فقد قيل إنه كان في إقليم البروڤانس الفرنسي؛ حيث تبحّر في العلوم الواسعة. لكن من المعروف أن ازدهار «القبالة» كان في تلك المنطقة، وفي ذلك الزمن تحديداً. وكان من أعلامها آنذاك: ابراهام بن داڤيد، يعقوب الناصري، موسى النحمندي، وشلومو بن ابراهام ادريت[٣١]. ولا بد أن بن ميمون احتك بهذا الفكر، إن لم يكن اعتنقه فعلاً، لأن جلّ تصرفاته بعد ذلك، تبدي البصمة «القبالية». إضافة إلى أن أكبر ممثلي الاتجاه القبالي، وهو ابراهام أبو لافيه (١٢٤٠ ـ ١٢٩١م)، استند في أفكاره على نظام ابن ميمون الميتافيزيكي والسيكولوجي.

٤ ـ إن ترك ابن ميمون فلسطين رغم ارتباطه العاطفي بالمكان والتحريم الديني على الفرد اليهودي العودة إلى مصر ـ ليس بسبب الاضطهاد الديني كما زُعم، لأن يهوداً كثيرين كانوا يعيشون هناك آنذاك، كالديّان يافث بن علي مثلاً، ولأن ابن ميمون، كقبالي «أصيل» لن يكون صعباً عليه التأقلم مع أي جو، كما حصل في فاس الإسلامية، بما في ذلك الجو الصليبي ـ وليس لأن الاسكندرية كانت تضم «أكاديمية أرسطو» كما زعمت **الموسوعة اليهودية**، فهو لم يلبث هناك إلا قليلاً: فقد وصل ابن ميمون إلى القاهرة عام ١١٦٧ أو ١١٦٨. هذا يعني أنه وصل إلى القاهرة في أكثر أيامها اضطراباً: الصليبيون في الخارج، وتدهور الحكم الفاطمي، الذي سقط عام ١١٧١، في الداخل. مما أدى إلى قيام الحكم الأيوبي.

٥ ـ زواجه، في ظل حكم الأيوبيين، من شقيقة ابن المالي، أحد مستشاري(ا) السلطان ـ وه ما يلقي الضوء أكثر على دور اليهود في البلاط ـ الأيوبي ـ وزواج ابن المالي، بدوره، من شقيقه ابن ميمون.

٦ ـ **الرسالة اليمنية**، التي لم تذكر **الموسوعة اليهودية** كافة محتواها، تكشف رغم ذلك عن أشياء كثيرة:

(٣١) انظر ما كتبه موشيه ادیل عن القبالة في *E. of Religion*: Art. "Qabbala"

• أرسل ابن ميمون رسالته إلى يهود اليمن عام ١١٧٢ واحتل الايوبيون اليمن عام ١١٧٣.

• استخدام ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان الايوبي من أجل تخفيف الضرائب عن يهود اليمن وقد نجح في ذلك: فما هو حجم نفوذ ابن ميمون في ذلك البلاط فعلاً؟ وماذا قدّم يهود اليمن للسلطان مقابل معروفه إليهم؟

ابن ميمون وصلاح الدين

ماذا كانت إذاً علاقة ابن ميمون بصلاح الدين؟

إن صلاح الدين الأيوبي، هو واحد من حكّام مسلمين نادرين، تحدّثت عنهم **الموسوعة اليهودية** بامتداح مطنب، ملفت للنظر: «كان موقف صلاح الدين من اليهود والمسيحيين، بل حتى المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكمه، شديد التسامح. وبحسب يهودا الحريزي[٣٢]، فقد أصدر صلاح الدين، عام ١١٩٠م، مرسوماً دعا فيه اليهود إلى الاستيطان في القدس، وكان الصليبيون حظروا عليهم الاقامة فيها أثناء احتلالهم المدينة. وبالفعل، فإن الحاخام الحريزي، حين زار القدس عام ١٢١٦، (مات صلاح الدين عام ١١٩٣)، وجد فيها «جماعة يهودية معتبرة مكوّنة من مهاجرين من فرنسا، المغرب، وسكان عسقلون السابقين»[٣٣] ـ فما هو دور ابن ميمون في هذا المرسوم السلطاني؟

كان لشهرة ابن ميمون الطبية الدور الأبرز في لفت أنظار البلاط الأيوبي إليه، والتي «أتاحت له أن يجمع بين رعاية السلطان صلاح الدين ورعاية نخبة المجتمع القاهري»[٣٤]. وهكذا «استخدم ابن ميمون نفوذه في بلاط صلاح الدين لحماية يهود مصر، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد»[٣٥] و«ابتناء كنس[٣٦] ومدارس»[٣٧].

كانت مكانة ابن ميمون رفيعة جداً عند صلاح الدين: «فعام ١١٨٧، أفهم أحد قضاة

(٣٢) يهودا بن سليمان الحريزي، مترجم وشاعر عبراني، ولد في اسبانيا، وزار الشرق، حيث أطلع الجاليات اليهودية هناك على الثقافة العبرية الاسبانية.

(٣٣) *E. Judaica*, 14/669

(٣٤) جورج طرابيشي، **معجم الفلاسفة** ٣١.

(٣٥) Zeitlin, *Maimonides*, 178

(٣٦) يقول جورج طرابيشي: بعد أن فتح صلاح الدين القدس، استحصل (ابن ميمون) لأبناء ملته على إذن في التوطن فيها، وفي فلسطين بصفة عامة. المرجع السابق ٣٢.

(٣٧) المرجع السابق ٣٢.

المسلمين صلاح الدين أن ابن ميمون مرتد عن الإسلام، وطالب أن تُوَقَّع عليه عقوبة القتل التي هي جزاء المرتدين، لكن الوزير، (وزير صلاح الدين الذي كان صديق ابن ميمون الحميم)، أنقذ ابن ميمون حين قال، إن الرجل الذي أُرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعتبر مرتداً بحق»[٣٨]. وقبل صلاح الدين بحجة وزيره»[٣٩].

ويذكر ول ديورانت أن صلاح الدين الذي أعدم الفيلسوف والإمام الشافعي، «شيخ الإشراق»، شهاب الدين بن يحيى السهروردي، متهماً إياه بالخروج عن الدين، غض الطرف تماماً عن موسى بن ميمون، الذي نشر في الشهر ذاته، مقالة في بعث الموتى، وعبّر فيها عن تشككه في عقيدة الخلود الجسمي[٤٠]. كما أصم صلاح الدين أذنيه أيضاً عن تسفيه عبد اللطيف البغدادي لابن ميمون، بعد صدور دليل الحائرين، واتهامه له بأنه «يهدم أركان جميع الأديان بالوسائل نفسها التي يخيّل إلى الناس أن يدعمها بها»[٤١].

(٣٨) Arnold, Sirt, *Preaching of Islam*, 421.

(٣٩) احتفلت مدينة تل أبيب ترور ٨٠٠ سنة على وفاة ابن ميمون فأنشأت مكتبة خاصة به.
وقد عاش في بلاط صلاح الدين طبيب يهودي آخر هو هبة الله بن جميع، مجلة الرسالة، العدد ١١٠.

(٤٠) قصة الحضارة ١٤/١٢١.

(٤١) المرجع السابق.

ردود ونقود

في الصفحات التالية مقالات نُشرت في أوقات متباعدة بين رد ونقد، وكلها تدور حول صلاح الدين، وسيتكرر بعض ما فيها تكراراً لم يكن منه بدٌّ منه لاضطرارنا إلى الاستشهاد بالقول نفسه في كل مرة، فنرجو أن يلاحظ القارئ ذلك عند وقوعه على القول مكرراً.

التعليق على مؤتمر صلاح الدين

عقد في بيروت في شهر نيسان سنة ١٩٩٤ ما سمي باسم مؤتمر صلاح الدين. علقنا على بعض ما قيل فيه بمقالين، ثم بمقال ثالث كان اسكاتاً لمن حاول التدخل في الموضوع، وإننا لنأخذ بعض ما جاء في المقالات الثلاثة. ثم نعود إلى تفصيل الأمور مما لا بد معه من تكرار بعض القول تكراراً لا مندوحة عنه.

كنا نحسب أن الذين تنادوا لعقد مؤتمر صلاح الدين الايوبي سيأتوننا بجديد يرد عن صلاح الدين التهم الصريحة الواضحة التي وجهناها إليه، والتي قلنا فيها ولا نزال نقول إنه احتمى بالصليبيين من ولي نعمته نور الدين، وإنّه بعد معركة حطين تحالف مع الصليبيين لمقاتلة خليفة بغداد، وإنه من أجل أن يناصره الصليبيون على قتال الخلافة الاسلامية تنازل لهم عن فلسطين وأعادها إليهم مدينةً مدينةً عدا القدس، وإنّه اعتبر ما يحكمه من البلاد الاسلامية مزارع وقرى يملكها ملكاً شخصياً ويورثها بعده لمن يشاء. فقسم الوطن العربي من بلاد الشام إلى مصر إلى اليمن ـ وما بين ذلك من بلاد وعباد ـ قسمه بين أخيه وأولاده ومزقه قطعاً قطعاً ورثوها بعد موته، مستقلاً كل واحد منهم بما ورثه، ثم راح يطمح كل واحد منهم فيما في يد غيره من الورثة، فاختلفوا واستعانوا بالصليبيين متنازلين لهم عن البلاد لينصروا فريقاً على فريق، فأعادوا للصليبيين حتى القدس.

وقلنا رادين على من تباهى علينا بتقوى صلاح الدين وورعه: إن صلاح الدين كان سكيراً مدمناً للخمر. وما كنا لنقول ذلك لأنه أمر شخصي بحت، ما كنا لنقوله لولا تباهي من تباهى علينا.

هذا بعض ما قلناه ولا نزال نقوله. وانتظرنا من المؤتمرين أن يحدثونا عن رأيهم في هذا وأمثاله، فإذا بالذي قالوه مجرد اجترار لما اجتره امثالهم من قبل.

يقول هشام نشابة إن من أهم الدوافع إلى إقامة هذا المؤتمر أن اسم صاحب هذه الذكرى مرتبط بفلسطين.

ونقول لهشام نشابة: أحسنت في هذا القول، فاسم صاحبك مرتبط بفلسطين حقاً، فلسطين التي أعادها إلى الصليبيين ليحالفوه على المسلمين.

ويقول هشام نشابة أيضاً: إن معهداً اكاديمياً كمعهده يهمه قبل كل شيء آخر أن يبرز الجانب الحضاري لعصر صلاح الدين.

ونقول له: إن أفضل مثال على الجانب الحضاري لذلك العصر هو أن يأمر صلاح الدين بقتل عالم جليل ومفكر كبير وفيلسوف شهير مثل السهروردي. وأن يأمر كذلك بقتل شاعر عربي وفيّ مخلص مثل عمارة اليمني. وأن يعتقل مجموعة من الناس يقدّر المقريزي صاحب كتاب الخطط عددها بعشرة آلاف ما بين ذكر وأنثى، ثم يحتجز الذكور في مكان والإناث في مكان لئلا يتناسلوا، ويظلوا في الاحتجاز عقوداً من السنين... وأن يبيد المكتبات العظيمة التي أنشأها الفاطميون.

ويقول هشام نشابة أيضاً وأيضاً: ما كان لصلاح الدين أن يكون بطلاً في ساحة القتال لو لم يدعمه قبل ذلك وبعده وعي حضاري ورسالة سامية.

ونقول له: أتُهم بقتل العلماء وذبح الفلاسفة وإماتة الشعراء، وابادة المكتبات والفصل بين الذكور والاناث لئلا يتناسلوا... أتُهم بذلك من وعي حضاري ورسالة سامية.

وأضْحَكُ المضحكات، أو ربما كان أبكى المبكيات ـ لا ندري ـ أن يجعل هشام نشابة من صلاح الدين مثالاً لمن يجب أن يتعاملوا مع الأقليات.

أما وزير الثقافة والتعليم العالي فنقول له: يا خيبة الثقافة والتعليم العالي حين تجعل سبب نيل لويس التاسع لقب القداسة في أنه كان مثال التسامح واحترام المحافظة على القيم. ثم تجعله في ذلك نِدّاً لصلاح الدين.

وأفجع من ذلك أن يقول الوزير إن قراءته الحاضرة في كتاب صلاح الدين تنطوي على دعوة راهنة ملحة إلى نبذ كل اشكال التعصب والعنصرية والانغلاق.

ونقول له: وهل كانت حياة صلاح الدين إلّا تعصباً وعنصريةً وانغلاقاً؟

وأما تمّام سلام فيقول: نتحدث عن القائد صلاح الدين في تجسيده لمعاني توحيد الأمة ولمعاني تحرير الأرض.

ونقول له: لقد تجلى ذلك. كل التجلي في تمزيقه الأمة بين ورثته وإعادته فلسطين إلى الصليبيين.

أما الخيبة الكبرى فهي خيبتنا بمؤرخ حصيف كنا نُعلّه لمهمات التاريخ، فإذا به يسير

في قافلة التحليين الذين غشوا بصائرهم بغشاوات العصبية والحقد والبغضاء. وإذا به كذلك يمشي في ركب الاجترار وتسطير الكلام الانشائي، أعني به الدكتور عمر عبد السلام تدمري.

يقدم الدكتور تدمري لحديثه عن صلاح الدين بمقدمة مؤسفة، فيحاول أول الأمر أن لا يُسمي الفاطميين باسمهم الصحيح مجارياً من تقدمه من أصحاب الغشاوات البصائرية، فهو يسميهم العبيديين، ثم يبدو أنه خجل فعاد إلى تسميتهم باسمهم الصحيح.

يقول الدكتور تدمري فيما يقول في مقدمته «إن السلاجقة والفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيىء الصليبيين ما يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه أو الحد من خطره ونفوذه، وهكذا تيسر للصليبيين دخول الديار الشامية واحتلال القسم الساحلي بكامله والاستيلاء على بيت المقدس».

ثم يقول فيما يقول: «انساحت الجيوش الصليبية ووطئت أرض الشام وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين. وكان على الإمارات العربية المحايدة بين السلاجقة والفاطميين أن تنتظر المساعدة أو النجدة منهم إذ كان النزاع مستمراً بين الدولتين سياسياً ومذهبياً...» إلى آخر ما قال.

من المؤسف أن يتجاهل الدكتور تدمري حقيقة ناصعة، سائراً في التجاهل مسير من تقدمه وعاصره ممن تعمدوا الباطل وتجافوا عن الحق.

إننا نسأل الدكتور تدمري هل كانت هناك خلافة فاطمية وحكم فاطمي عند وصول الصليبيين؟

إننا نقول إن سلطة الفاطميين على مصر انتهت قبل وصول الصليبيين إلى أطراف العالم الاسلامي لا سيما بلاد الشام بربع قرن.

لم تكن هناك خلافة فاطمية في مصر، بل كان المسيطرون على الحكم من تغلبوا على الخلفاء وحجبوهم داخل قصورهم لا يملكون من الأمر شيئاً حتى في أمورهم الخاصة.

فإن بدراً الجمالي أنهى سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة ٤٦٦هـ وكان ابتداء وصول الصليبيين سنة ٤٩٠هـ وسقطت انطاكية في أيديهم سنة ٤٩١هـ.

ويقول ابن الأثير عن سيطرة بدر: فلما كانت سنة ست وستين وأربع مائة ولي الأمر بمصر بدر الجمالي أمير الجيوش وتمكن من الدولة إلى أن مات وولي ابنه الافضل (ص ٨٧ ج١٠).

ويقول عن موته في أحداث سنة ٤٨٧: توفي أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب

الجيش بمصر وقد جاوز ثمانين سنة وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه.

ثم يقول: ثم مضى أمير الجيوش إلى مصر وتقدم بها وصار صاحب الأمر.

على أن بدراً الجمالي لم يكتف بإنهاء سلطة الخلافة الفاطمية والسيطرة على البلاد سيطرة كاملة تنتهي بموته، بل تعدى الأمر إلى ما يمكن أن تسميه إنشاء أسرة مالكة جديدة إذا لم تحمل اسم الخلافة لاستحالة ذلك عليها، فقد كان لها جميع المظاهر والحقائق في الاسرة المالكة من سلطة مطلقة وإقامة ولاية عهد. فحين مات بدر الجمالي تولى بعده ابنه وولي عهده الافضل الملقب شاهنشاه.

والمقريزي حين يتحدث في خططه يقر هذه الحقيقة فيقول في ذلك: «فاستناب ولده شاهنشاه وجعله ولي عهده» (ص٣٨٢).

ولنلاحظ تلقيبه باللقب الملكي: شاهنشاه.

ثم يواصل المقريزي الحديث عنه قائلاً: «وقد تحكم في مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالامور».

ويقول: «وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر».

ويقول عن إنهاء سلطة المستنصر والخلافة الفاطمية وقيام السلطة الجديدة سلطة بدر الجمالي: «وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ست وستين وأربع مائة وقيامه بسلطنة مصر ما ذكر في ترجمته، فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجماً عن التصرف إلى أن مات سنة سبع وثمانين».

ثم يقول عن الأفضل بن بدر الجمالي: «فلما مات المستنصر أقام الأفضل بن أمير الجيوش في الخلافة من بعده ابنه المستعلي بالله أبا القاسم أحمد» (٣٥٦ ج١).

وهكذا نرى أن الأفضل هو الذي اختار الخليفة وأقامه مقام أبيه لأنه هو الحاكم المسيطر. وإذا كان بدر وابنه الأفضل لم يعلنا إلغاء الخلافة نظرياً في حين انهما ألغياها عملياً، فلأنهما كانا يريدان غطاء شرعياً لحكمهما يبرران به تسلطهما، وكان وجود الخليفة الشكلي هو الغطاء المطلوب.

ثم يقول المقريزي: ولم يكن للمستعلي مع الأفضل أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة (ص ٣٥٧ ج١).

وفي عهد المستعلي هذا الذي لم يكن له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة تقدم الصليبيون إلى البلاد الإسلامية واحتلوا القدس.

وكان صاحب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة هو الافضل. إذاً فلماذا نسبة احداث تلك الفترة إلى الفاطميين وخلافتهم؟

إنها يجب أن تنسب إلى أصحاب الأمر والنهي ونفوذ الكلمة، وهم غير الفاطميين.

لا نقول هذا لأننا نرى في تصرف الأفضل تقصيراً وضعفاً، أو شيئاً مما يؤخذ عليه في موقفه من الصليبيين.

بل على العكس من ذلك، نرى أنه قام بكل ما يستطيع القيام به فدافع الصليبيين عن الوطن الاسلامي، ووقف في وجههم بحزم وصلابة. فحاول أول الأمر دفعهم سلماً، بالمفاوضات كما نقول اليوم، ولما لم ينجح في ذلك قاتلتهم جيوشه اشد قتال وظلت تقاتل دفاعاً عن القدس سبعة اسابيع.

وإذا كان الصليبيون تغلبوا عليها فهم تغلبوا على غيرها. فلماذا الحديث عن الفاطميين في أحداث لم يكن لهم أي شأن فيها، ولماذا قول الدكتور تدمري: إن السلاجقة والفاطميين على حد سواء قد رأوا في مجيء الصليبيين ما يحقق أهداف كل منهم في القضاء على خصمه أو الحد من خطره ونفوذه.

وهل كان هناك فاطميون وهل كانت لهم أهداف وكان لهم نفوذ؟

وكذلك القول في قوله: «انساحت الجيوش الصليبية ووطئت ارض الشام وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين».

لقد كان ذلك على مرأى ومسمع، وخيانة أيضاً من السلاجقة وحدهم. أما الفاطميون فلم يكن لهم وجود، فكيف يكون لهم مسمع ومرأى؟

الحروب الصليبية كان لها أن تنتهي عند أنطاكية، لأن القيادة الصليبية المحصورة مع جيوشها في انطاكية أعلنت الاستسلام، ولم تكن تبغي سوى أن يسمح لها بالعودة فاشلة إلى بلادها.

نعم يا دكتور عمر تدمري، نعم يا من قال على أعواد المنابر: «إن الجيوش الصليبية انساحت ووطئت ارض الشام وكونت بحيرات صليبية لاتينية في أنحائها على مسمع ومرأى من السلاجقة والفاطميين». قلنا لك إن الفاطميين لم يكونوا حاضرين ليسمعوا ويروا، ونقول لك إن الجيوش الصليبية ما كانت لتنساح وتطأ أرض الشام وتكون بحيرات صليبية لاتينية في انحائها لولا خيانة غير الفاطميين كما سترى في الآتي من القول.

كان الحال بلغ بتلك الجيوش أنها لا تريد إلّا أن يسمح لها بالعودة إلى البلاد التي قدمت منها، وما عادت تريد إلّا السلامة.

كانت الحروب الصليبية ستنتهي عند أنطاكية، وكانت بلاد الشام ستنجو مما حل بها، ولم يكن المسلمون ليذبحوا في القدس، ولم تكن تلك الكوارث لتحل ببلاد الشام لولا خيانة غير الفاطميين. أقول هذا بأعلى صوت وعلى رؤوس الاشهاد.

على أننا كنا نحسب أن الدكتور عمر تدمري سيكون أرفع من أن يتبنّى سفاهات ابن كثير وتفاهات ابن الفرات وأباطيل محمد كرد علي، ولكنه اغتنمها فرصة ليدس ذلك في كلام يلقيه على المنابر وينشره في الصفحات. ونقول له: إنه لا السفاهات ولا التفاهات ولا الأباطيل يمكن أن توهن الحق وأصحاب الحق.

الدكتور عمر تدمري كان مدعواً ليحاضر بما يراه هو في الاحداث، وليقص على الحاضرين آراءه في رجال تلك الاحداث. ولكنه تجاوز ذلك وراح ينبش الماضي الموصول بالعصور المظلمة التي عاش بعض رجالها في ظلمة داجية ملأت قلوبهم وأترعت عقولهم وغطت على بصائرهم.

نقل الدكتور تدمري نفسه من أواخر سني القرن العشرين إلى ما قبل عشرات القرون. نقل نفسه هذه النقلة البعيدة مؤثراً أن يعيش في الخندس المعتكر مع من عاشوا فيه بعيداً عن النور.

وعندما أراد أن ينسلخ عن الظلمات ويعود إلى النور لم يجد دليلاً إلّا من كان عبداً من عبيد جمال باشا السفاح، ثم صار مطية من مطايا الاستعمار.

هذا العبد المطية هو الذي نصب نفسه ليقرر صفات الفرسان الاحرار.

وإذا كان هاشم الايوبي يحسب أننا نسينا إعلانه الانهزام من معركة صلاح الدين قبل سنوات، إذا كان يحسب أننا نسينا ذلك فهو في وهم كبير.

إن نص إعلانه الانهزام مسطور تصفحه سطوره.

دخل معركة لم يكن من رجالها، دخلها بكف مشلول وسيف مفلول وعقل مغلول، فلم يلبث أن أثخن فآثر السلامة وأعلن الانهزام.

واليوم جاء يحاول أن يسترد معنوياته التي انهارت يومذاك، يحاول أن يستردها بضجيج الضاجين وعجيج العاجين، غير عالم أن الضجيج والعجيج لا يردان العزم المنهار، ولا يحولان الحق إلى باطل والباطل إلى حق.

نحن أرفع من أن نُعنى بهذيان هاشم الايوبي، وأن نلتفت إلى ما سود به السطور، وأن نشغل نفسنا بمحاسبته.

وكل ما نفعله هنا أن نضع أمام عينيه نصوصاً ونقول له هذه نصوص التاريخ التي هزمتك بالأمس والتي تهزم أمثالك اليوم:

قال عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة صاحب كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين** النورية والصلاحية، هذا الكتاب الذي ألفه صاحبه للإشادة بنور الدين وصلاح الدين. هذا الكتاب أبى الله وأبى التاريخ الصحيح إلّا أن ينطق صاحبه بما كان يود أن لا ينطق به، فإذا به يسجل ما يمحو كل ما حاول أن يعده حسنات، يسجل ذلك دون أن يدرك خطورة ما سجل.

يقول أبو شامة (في الصفحة ٥٨ وما يليها من الجزء الأول ـ القسم الثاني من كتابه المطبوع في القاهرة سنة ١٩٦٢م) ما نصه:

«وكان نور الدين قد شرع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم».

فما قولك أيها «الأُيبيي» والأُيبيي تصغير الأيوبي، ما قولك أيها الأُيبيي بمن تسميه أحد أكبر الرموز في عظمة هذه الأمة حين يحتمي بأعداء الأمة من ولي نعمته نور الدين.

إنك تهين هذه الأمة حين تسمي المحتمي بأعدائها أحد أكبر رموزها.

إن نور الدين كان عازماً على الذهاب بنفسه إلى مصر ليؤدب المحتمي منه بالفرنج، ولكنه توفي قبل تنفيذ عزمه.

فأبو شامة يتمم كلامه السابق قائلاً: «وكان نور الدين لا يرى إلّا الجد في غزوهم (الفرنج) بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد».

فلو امتدت الحياة بنور الدين لكان تم تأديب صلاح الدين على يديه، وأقل ما كان يناله منه هو القتل، لأنه هو وحده جزاء من يحتمي بأعداء الأمة.

ولكن إرادة الله التي لا راد لها شاءت أن يموت نور الدين قبل أن يؤدب صلاح الدين، فنكبت الأمة نكبتها الكبرى بتمزيق صفوفها وتوريث بلادها كما تورث القرى والمزارع لورثة صلاح الدين فتعاد القدس التي سفكت دماء المسلمين في سبيل استردادها ـ تعاد بسبب ترتيبات صلاح الدين إلى الصليبيين.

إن النص الذي نقلناه لم يتفرد بذكره ابو شامة، بل ذكره ابن الاثير، وذكره ابن النديم وذكره غيرهما، وتعمدنا نقل نص ابي شامة لأنه عميل من عملاء صلاح الدين وقوله فيه حجة من أقوى الحجج.

وسنعود إلى نصوص أخرى تواجه بها هذا الأُيبيي المهزوم بالأمس أمامنا، والذي جاء اليوم مُحتمياً بالمجترين يحاول أن يرد شيئاً من كرامته، ويعوض ما أصابه في هزيمته. وسنريه أنه المهزوم أبداً والمخذول دائماً.

قيل للبغل من ابوك؟ فقال: خالي الحصان. والأُيبيي الذي لم يستطع أن يفخر بنسبه منذ سبع سنين، لم يستطع أن يفخر بهذا النسب حين أريناه ما فعل من ينتمي إليهم من احتمائهم بالصليبيين ثم تسليمهم المدن الفلسطينية للصليبيين عدا القدس، ثم تسليمهم للصليبيين القدس نفسها.

جاء يحاول اليوم مفاخرتنا بأخواله.

يقول الأُيبيي فيما يقول: يظهر أن هناك من تتحكم فيهم عقد مستعصية من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية.

نعم أيها الأُيبيي إن عقدتك مستعصية من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية، وهل هناك من يمكن أن تستعصي عقدته من تاريخ هذه الأمة الكريمة أكثر ممن يرى أنه سليل الخيانة، سليل من سلموا القدس إلى الصليبيين مرتين، وسلموهم معها مدن فلسطين مدينة مدينة.

تقول أيها الأُيبيي: «فالسيد حسن الأمين من سوء طالعه أنه يعيش فترة يحتفل العالم الإسلامي فيها بذكرى مرور ثماني مائة عام على وفاة أحد أكبر الرموز في عظمة هذه الأمة السلطان الناصر لدين اللّه صلاح الدين الايوبي. والسيد الأمين يعيش منذ سبع سنوات في حالة هلوسة تفقده كل منطقية في التفكير أو عصمة في اللسان».

أيها الأُيبيي: إن من حسن طالع حسن الأمين ومن حسن طالع هذه الأُمة، أن حسن الأمين هذا ميّز الخبيث من الطيب في هذا الظرف بالذات فتجرد لإماطة القذى عن تاريخ هذه الأُمة وفضح المزيفين للتاريخ الذين لم يستطع أحد منهم أن يرد حجته وينتقص مقولته، فتواروا هلعين وانخذلوا مختبئين وَبَرَزْتَ أنت وحدك وكل سلاحك الشتائم والبذاءات، ثم فررت من الميدان مُثخناً، وآثرت البقية الباقية من السلامة، ثم جئت اليوم محتمياً بمن تحسب أنهم سيحمونك ولكن هيهات.

إن سيرة حسن الأمين في كشف حقائق التاريخ لا تعود إلى سبع سنوات، بل إنها أبعد من ذلك بكثير. وإن حسن الأمين في كل ما واجهكم به كان منطقي التفكير معصوم

اللسان، والدليل على ذلك أنكم عجزتم عن أن تنقضوا ما أبرم وتضعفوا ما أحكم.

أأنت يا أُبيبي تتحدث عن عصمة اللسان، أأنت الوضر اللسان الذي ينحدر في وضارة لسانه إلى أن يذكر- وهو يدعي أنه يناظر في أمر تاريخي - أن يذكر ما ذكر من كلام سفيه.

أي مقالات نشرت يومذاك يا أُبيبي غير نفثة قلمك العفن فلمّا ألقمناك الاحجار لذت بالفرار وتواريت عن الانظار.

إنك تحاول أن تتغطى بعلي وعمر وقلاوون وقطز وعمر المختار ويوسف العظمة، وما شأنك أنت وهؤلاء، ومن تعرض لهم لتحاول التغطي بهم؟

لقد ذكرنا في مقالينا وقائع معينة وأحداثاً محددة فهل جرؤت في كل هذيانك أن تنقض كلمة واحدة مما ذكرنا، وهل سطرت أناملك إلّا سيىء القول. وما دخل كل هذرك وبذاءتك فيما تكلمنا به في مقالَيْنا؟

ليس هذا رداً عليك بل هو تأديب لك، فلست أنت ممن يستحقون شرف ردنا، إنك ممن أمرنا القرآن أن نقول لهم حين يتكلمون - أن نقول لهم سلاماً. ولولا أننا نلتزم آداب القرآن لضننا عليك حتى بهذه الكلمة.

الرد على الدكتور المحاسني

في المقال الذي كتبه الدكتور زكي المحاسني في العدد الممتاز من **العرفان**، أشاد بموقعة حطين وأشاد أي إشادة بصلاح الدين الأيوبي. ولما كنت موقناً أن صلاح الدين من رجال التاريخ الذين أُعطوا ما لا يستحقون، لذلك رأيت من واجبي خدمة للحقيقة أن أكتب هذه الكلمة متحملاً مسؤولية ما تضمنته من رأي يخالف رأي الجمهور، وما اتفق السواد الأعظم على الاعتقاد به. فحقائق التاريخ لا يصح التسامح بها، ولا يجوز الجبن في إظهارها مهما كان الشائع قوياً والمعتقَد (بفتح القاف) منتشراً.

يقول الدكتور في بعض أوصافه لصلاح الدين «إنه بطل الخلاص العميم». ويقول أيضاً: «إنه أزال من على رقعة الشرق العربي ظل الصليبية» إلى غير ذلك من الأقوال.

والدكتور المحاسني ليس وحده القائل، بل إن كل الكتاب يقولون مثل هذا وأكثر من هذا. فقد قال مثلاً الدكتور مصطفى زيادة في مقال له إن معركة حطين كانت الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، في حين أنه يعلم أن الفرنج ظلوا أكثر من قرن يحتلون البلاد بعد تلك المعركة وأن القدس عادت صليبية الحكم بعد فترة غير طويلة من معركة حطين.

الواقع أن حياة صلاح الدين تقسم إلى أقسام، كان صلاح الدين في بعضها محارباً حقاً فهو الذي حقق النصر في معركة حطين.

والأقسام الأخرى من حياة صلاح الدين تناقض هذا القسم تمام المناقضة، ولقد نسي بعض الناس حقيقة صلاح الدين، ولم يذكروا إلّا دوراً واحداً من أدوار حياته. وذلك لعوامل لا أحب الآن ذكرها. فما هي حقيقة صلاح الدين؟

لقد انتصر صلاح الدين في حطين وحرر القدس، وكان المفروض أن يتابع الكفاح حتى تتحرر البلاد كلها، ولكن صلاح الدين لم يفعل شيئاً من ذلك، بل فعل العكس تماماً، فأقدم على أمر لا أدري كيف يتجاهله كتابنا، وكيف يسقطونه من حسابهم وهم يتحدثون عن صلاح الدين.

لقد فضل صلاح الدين في هذا الدور من حياته الراحة على الجهاد، وآثر الاستسلام للفرنج على مقاتلتهم، بل فعل أكثر من ذلك، لقد سلمهم البلاد سلماً بلا قتال... نعم سلمهم البلاد والعباد سلماً بلا قتال.

ففي ٢١ شعبان ٥٨٨هـ عقد صلاح الدين هدنة مع الصليبيين سلمهم بها حيفا وقيسارية ونصف اللد ونصف الرملة وغير ذلك، حتى لقد صار لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور ولم يكن لهم ذلك من قبل.

يقول ابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة في امراء الشام والجزيرة وهو يتحدث عن حيفا (ص ١٧٧ - ١٧٨): «لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم، وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. ولم تزل بعد في أيديهم».

وقال وهو يتحدث عن الرملة واللد: (ص١٧٣ - ١٧٤) «ولم تزل (الرملة) في أيديهم (الفرنج) إلى أن ملكها وملك معها لد الملك الناصر صلاح الدين يوم الاربعاء ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. ولم تزل في يده إلى أن وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين فنزل لهم عن البلاد».

وقال وهو يتحدث عن يافا (ص ٢٥٦): «ولم تزل في ايديهم (الفرنج) إلى أن فتحها عنوة الملك الناصر صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على يد أخيه العادل وخربها وبقيت خراباً إلى أن تقررت الهدنة بين الملك الناصر (صلاح الدين) وبين الفرنج وشرطوا عليه ابقاءها في ايديهم».

ويقول الدكتور حسين مؤنس في مقال له في مجلة العربي العدد ١٤٩: «تنازل (صلاح الدين) للصليبيين عن جزء من الساحل يمتد من صور إلى حيفا».

يقول ذلك ولا يرى فيه شيئاً في حين أنه يشنع على الآخرين بالباطل.

سلم صلاح الدين كل هذه البلاد للصليبيين وهو المنتصر في معركة حطين وفاتح القدس، سلمهم ذلك وعقد معهم هدنة ضمن لهم فيها أن لا يهاجمهم مهاجم ولا يزعجهم مزعج.

وأكثر من ذلك فقد كان رأي الخليفة العباسي الناصر[1] أن يواصل صلاح الدين الكفاح حتى إجلاء الصليبيين عن آخر معقل لهم في بلاد العرب، وأبدى الناصر استعداده لإمداده بما يحتاج من جيوش جديدة تكفي للقضاء على الصليبيين، ولكن صلاح الدين رفض وفضل أن يهادن الصليبيين ويسلمهم البلاد.

أما السبب في ذلك فلأن صلاح الدين كان لا يريد توحيد البلاد، وانضواءها تحت لواء واحد يجمع شملها في حكم واحد وسيادة واحدة، وخشي إن جاءت الجيوش من العراق لإمداده وتم النصر، أن يصر الناصر على الوحدة معتمداً على قوة الجيش فيصبح هو مرتبطاً ببغداد فآثر أن يكون انفصالياً، وأن يستقل وحده بحكم رقعة من البلاد، على أن يضم ما تحت يده من بلاد إلى الوحدة الكبرى، وهكذا تحكمت فيه مطامعه الشخصية وآثرها على المطامح الوطنية، ورفض تحرير ما لم يتحرر من البلاد، ثم سلم البلاد للصليبيين.

ولقد خشي صلاح الدين أن يصر الناصر على إرسال الجيوش فعزم على مقاومتها، ولأجل أن يتفرغ لذلك هادن الصليبيين وسلمهم البلاد.

لسنا نحن الذين نقول ذلك، بل يقوله رجل من أخلص رجال صلاح الدين، جعل من نفسه مؤرخاً لذلك العصر فصحب صلاح الدين وسجل انتصاراته ووقائعه، ولم تفته منها شاردة، وكان صلاح الدين موضع مدحه وثنائه، فسجل فيما سجل من الاحداث هذه الحادثة.

هذا المؤرخ هو عماد الدين الاصفهاني صاحب كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي**، والذي كان بمثابة سكرتير شخصي لصلاح الدين[2].

(١) هو الخليفة الذي أعاد للخلافة رونقها بقضائه على السلجوقيين المتحكّمين بها، ويصفه الفيلسوف عبد اللطيف البغدادي بأنّه «أحيا هيبة الخلافة وكانت قد ماتت بموت المعتصم، ثم ماتت بموته».

ولي الخلافة سنة ٥٧٥ هـ وهو ابن ٢٣ سنة وظل في الخلافة ٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوماً.

(٢) الصفحة ١٧٦ طبع مطبعة الاتحاد بالقاهرة.

وفوق هذا ماذا فعل صلاح الدين؟ لقد اعتبر البلاد التي يحكمها مزرعة له فتصرف فيها تصرف المالكين للمزارع والقرى، فلم يكتف بأن سلّم قسماً منها للأعداء، ولم يكتف بأن آثر الانفصال وخشي الوحدة، بل أراد أن يثبت بالفعل أن ما تحت يده من أجزاء الوطن هو ملك شخصي له، وأنه يجب أن يكون بهذه المثابة من بعده، فقسمه بين ورثته، وأكتفي هنا بنقل عبارة صاحب كتاب **الاعلاق الخطيرة** وهو من أخلص المخلصين لصلاح الدين، فقد قال في الصفحة ٥٨ في السطر الخامس عشر من نصه: «... فرق البلاد بين أولاده وأقاربه، فاعطى الشام لولده الملك الافضل...» إلى آخر ما قال.

ومع أن الخطر الصليبي كان لا يزال جاثماً على صدر البلاد يهددها في كل ساعة، ومع أن هذا مما يوجب حشد القوى وتجميعها، ويوجب لا تمزيق مملكة صلاح الدين بل ضمها إلى سلطة الخلافة في بغداد، أو على الأقل الاحتفاظ بها سليمة متماسكة، فإن صلاح الدين «فرقها بين أولاده وأقاربه» معتمداً على الهدنة التي عقدها مع الصليبيين مسلماً لهم البلاد مقراً لهم باحتلالهم معترفاً لهم بدولتهم.

وهكذا فلم يكد صلاح الدين يموت حتى تقاسم بنوه وأقاربه ملكه واستقل كل واحد بما أوصى به صلاح الدين، ومهدوا بذلك للصليبيين أن يحتلوا البلاد من جديد. بل أقدموا على ارتكاب الخيانات العظمى، فإن الكامل والأشرف ولدي العادل أخي صلاح الدين سلما القدس وما حولها للملك الصليبي فريدريك الثاني وسلماه معها الناصرة وبيت لحم وطريقاً يصل القدس وعكا وذلك سنة ٦٢٥هـ (١٨ شباط سنة ١٢٢٩م). ويصف ابن الاثير وقع هذه الرزية على العالم الاسلامي بقوله: «واستعظم المسلمون ذلك، وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه».

وهكذا يسقط قول الدكتور مصطفى زيادة والدكتور زكي محاسني حيث يقول الأول إن وقعة حطين كانت فاصلة في الحروب الصليبية، وحيث يقول الثاني: «إن صلاح الدين أزال من على رقعة الشرق العربي ظل الصليبية»...

وكيف يكون ظل الصليبية قد زال وصلاح الدين يسلم البلاد للصليبيين يداً بيد، والصليبية تعود لاحتلال القدس بخيانة ولدي أخيه؟!

وأقرباء صلاح الدين الذين قسم البلاد بينهم لم تكن هذه الخيانة خيانتهم الوحيدة، ففي العام ٦٣٨هـ سلم الصالح اسماعيل الأيوبي صاحب دمشق للصليبيين صيدا وهونين وتبنين والشقيف فيما سلم لهم من البلاد ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر.

إذاً فظل الصليبية لم يزله صلاح الدين، بل ساعد على امتداده بامتناعه عن قبول دخول

الجيوش العراقية إلى فلسطين لمساعدته، وفي عقده للهدنة المشؤومة مع الصليبيين وفي تسليمه البلاد لهم سلماً بدون قتال وفي تقطيعه أوصال الوطن بتوريثه البلاد لأقربائه كما يورث الملك الشخصي وتفريقها بينهم.

وهناك شيء آخر في سيرة صلاح الدين هو طريقة معاملته الشعب، وهذا الموضوع نترك الكلام عنه للدكتور حسين مؤنس حيث قال في العدد ٤٦٢ من مجلة **الثقافة** كما نقلت ذلك مجلة **الحج** في الجزء الثامن من السنة الخامسة عشرة: «كانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهي فكانت حاجته للمال لا تنتهي، وكان عماله من أقسى خلق اللّه على الناس، ما مر ببلدة تاجر إلّا قصم الجباة ظهره، وما بدت لأي إنسان علامة من علامات اليسار إلّا أنذر بعذاب من رجال السلطان. وكان الفلاحون والضعفاء معه في جهد، ما أينعت في حقولهم ثمرة إلّا تلقفها الجباة، ولا بدت سنبلة قمح إلّا استقرت في خزائن السلطان حتى أملق الناس في أيامه وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصداً».

هذا مع العلم أن الدكتور حسين مؤنس من المتحمسين لصلاح الدين ولكنه لم يستطع إخفاء هذه الحقيقة.

هذه الحقائق القاسية نرجو أن تتقبلها الصدور بصبر، لأن التاريخ الصحيح لا يرحم، ولأننا حين نؤمن بحقيقة نرى أن من أفظع الإجرام أن لا نعلنها مهما كان في إعلانها من مصادمة لما تواضع الناس على الأخذ به على أنه من الحق وهو من صميم الباطل.

وفي العام ٥٦٤هـ كان الفرنج الصليبيون يهددون مصر ويتحفزون للوثوب عليها بعد أن خبروا أحوالها قبل ذلك في احداث ليس هذا مكان سرد تفاصيلها، وكانت الخلافة الفاطمية في مصر لا تبدو بالقوة الكافية إذ كانت قواها قد استنفد معظمها في مقارعة الصليبيين براً وبحراً، وفي إخماد الفتن، فرأى الخليفة الفاطمي (العاضد) أن لا قبل لمصر بمدافعة الفرنج فتجلت وطنيته على أبرز صورها، فتناسى ما بينه وبين الآخرين من أوتار وتجاهل ما يحملونه له من عداوة وشنآن، وأغضى على ما طالما بيتوه له ولأسرته من تآمر وصمم على الاستنجاد بالقوى الاسلامية خارج مصر مهما كان في الاستنجاد من مخاطر عليه وعلى أسرته، ورأى أن أقرب القوى إليه في الشام وفيها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي...

وكان الفرنج قد زحفوا على عسقلان حتى وصلوا إلى بلبيس فاحتلوها وفتكوا بأهلها، ثم

مشوا إلى القاهرة وحاصروها، فتقرر إحراق المدينة[٣] خوفاً عليها من الافرنج وظلت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، فكرر العاضد الاستنجاد بنور الدين وأرسل في الكتب شعور نسائه وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج[٤].

وكان قد سبق لنور الدين أن أرسل إلى مصر في نوبتين كلا من أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين لأسباب لا مجال لذكرها الآن، فطلب العاضد أن يعود أسد الدين نفسه بحملة على مصر وأعلن أنه يتنازل سلفاً لنور الدين ولأسد الدين عن كثير مما تحت يده، فقرر نور الدين تلبية الطلب فأرسل حملة مؤلفة من ثمانية آلاف فارس بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين.

وكان الفرنج في خلال ذلك قد فكوا الحصار عن القاهرة وعادوا من حيث أتوا، فلم تلق الحملة القادمة حرباً ثم تسلسلت الاحداث فتولى أسد الدين الوزارة للعاضد وساد أمره وأمر ابن أخيه صلاح الدين ولكنه لم يلبث في الوزارة إلّا شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة.

وتطلع إلى منصب الوزارة بضعة رجال من قواد الجيش الذي قدم مع أسد الدين وكان التزاحم بينهم شديداً، ولكن العاضد آثر عليهم جميعاً صلاح الدين. يقول صاحب كتاب الروضتين: فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه الوزارة ويوليه بعد عمه.

وقد صرح ابن شداد[٥] في كتاب **النوادر السلطانية** أن صلاح الدين كان منهمكاً بالشهوات عاكفاً على الخمر. وقد ذكر عبارته هكذا: وشكر نعمة اللّه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو أي فعل ذلك بعد توليه الوزارة. وكذلك قال كمال الدين بن العديم في كتابه زبدة الحلب في تاريخ حلب (الجزء الثاني): فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وولاه الوزارة بعد عمه وخلع عليه ولقبه بالملك الناصر فاستتبت أحواله وبذل المال وتاب عن شرب الخمر. وإذا كان أنصار صلاح الدين قد اعترفوا بأنه كان سكيراً قبل توليه الوزارة، فاللّه وحده يعلم ما إذا كان قد تاب أم لا، فالذي يبدو أنه كان متجاهراً بالسكر قبل توليه الوزارة ثم صار يتستر بعد ذلك[٦].

(٣) هي التي عرفت بالفسطاط وتوابعها.
(٤) كتاب الروضتين (الجزء الأول ـ القسم الثاني) الصفحة ٣٩١ من طبعة ١٩٦٢، وصاحب هذا الكتاب مملوء تعصّباً ولوماً على الفاطميين، ولكنه لم يستطع إنكار هذه الحقيقة.
(٥) ابن شداد من المؤلّفين الذين كتبوا للإشادة بصلاح الدين.
(٦) كذلك ذكر أبو الفداء في تاريخه عكوف صلاح الدين على الخمر.

على أن أسد الدين ومن بعده صلاح الدين كانا مع توليهما الوزارة يعتبران تابعين لنور الدين. يقول ابن أبي شامة: وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين في البلاد كلها.

ولما أرسل نور الدين إخوة صلاح الدين إليه إلى مصر وفيهم توران شاه وهو أكبر من صلاح الدين، قال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد واحضر حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه واشدد من أزره[٧]؛ وهذا يدل على شدة عناية نور الدين بتثبيت أمر صلاح الدين.

وفي المنشور الذي أرسله الخليفة العاضد إلى صلاح الدين يقول العاضد فيما يقول: «وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات الليل قساطل الجهاد تجلي محاسنك وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر له عن ساق من القنا وخض فيه بحراً من الظبا واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبا، وأسل الوهاد بدم العدا، وارفع برؤوسهم الربا، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو امير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك...»[٨].

وهذا يدل على أن العاضد لم يستكن إلى الدعة بعد رحيل الفرنج: بل كان يأمل أن يغزوهم في الأرض المحتلة، وأنه كان يعد صلاح الدين لهذه المهمة، وأن قتال الفرنج وتخليص البلاد من حكمهم كان الهدف الوحيد للعاضد، وأنه في سبيل ذلك لم يبال بأن يولي حتى خصومه حكم البلاد ويعهد اليهم بمعونته على الدفاع عنها، بالرغم من أن ماضي هؤلاء الخصوم كان معروفاً، وحقدهم على من يخالفهم في المذهب كان صريحاً، فإن ما فعله نور الدين في حلب كان معروفاً مشهوراً وكان العاضد يعلمه حق العلم بالرغم من ذلك تغلبت وطنية العاضد على عصبيته، وحرصه على دينه فاق حرصه على مذهبه، فضرب بذلك أعلى الأمثال لكل الحكام. وقد كان يجب أن يكون هذا الموقف شافعاً له عند من سلمهم البلاد، ولكن لم يشفع له عندهم شيء.

يقول العماد الأصفهاني عن منشور الخليفة العاضد هذا: «وهذا آخر منشور طويت به تلك الدولة وختمت، وتبددت عقودها وما انتظمت».

وبدلاً من أن يكبر العماد هذا المنشور كل الاكبار ويثني عليه كل الثناء لما احتواه من

(٧) الروضتين ج ٢ ص ٤٠٨.
(٨) المصدر نفسه.

حمية اسلامية وغيرة وطنية، ولما يدل على ما انطوت عليه نفس العاضد من اخلاص وتفان في سبيل الاسلام؛ وبدلاً من أن يثير هذا المنشور مدح العماد للعاضد اثار شماتته، وهكذا يكون اللؤم في أبشع صوره وأنكر اشكاله. لا لؤم العماد وحده، بل لؤم من عاصرهم ومن أتى بعدهم حتى اليوم. إن منشور العاضد هذا صفحة من انضر صفحات تاريخنا، كان يجب أن تلقن للناشئة في كل عصر لتتعلم منها الاخلاص والتفاني في حب الأوطان، كذلك ارسال العاضد شعور نسائه مستنجداً مضحياً.

ونقول للعماد الاصفهاني: إنه ليشرف الدولة الفاطمية أن يكون هذا آخر منشور لها.

وما قاله العاضد لصلاح الدين في منشوره كان قد قال مثله لعمه أسد الدين شيركوه حين ولاه الوزارة قبل صلاح الدين، فقد قال العاضد مخاطباً أسد الدين: «... واستنهضهم في الجهاد فهذا المضمار وأنت السابق، وقم في اللّه تعالى أنت ومن معك فقد رفعت الموانع والعوائق».

ثم يقول:

«فاطلب أعداء اللّه براً وبحراً واجلب عليهم سهلاً ووعراً وقسم بينهم الفتكات قتلاً واسراً وغارة وحصراً».

ثم يقول:

«واللّه سبحانه وتعالى يحقق لأمير المؤمنين فيك أفضل المخايل ويفتح على يديك مستغلق البلاد والمعاقل ويصيب بها لك من الاعداء النحور والمقاتل ويأخذ للاسلام بك ما له عند الشرك من الثارات والطوائل».

وللتدليل على ما أولى العاضد من ثقته وتشجيعه وتعضيده لصلاح الدين ننقل عبارة يحيى بن أبي طي الحلبي في كتابه الذي ألفه في سيرة صلاح الدين، قال: «أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر[٩] وأحبه محبة عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه القصر راكباً فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقره».

وقال أيضاً: «... ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد، وحكمه في ماله وبلاده حسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية»، ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

(٩) أي صلاح الدين الذي لُقب بهذه الألقاب.

ولم يترك العاضد وسيلة تشيد بصلاح الدين وترفع من شأنه وتزيد في تكريمه إلّا اتبعها، من ذلك أنه لما ارتحل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر بأهله وجماعته، وسار إلى القاهرة ركب العاضد بنفسه لاستقباله والترحيب به، وخالف بذلك قواعد البروتوكول كما نقول باصطلاحنا اليوم، إذ لم تجر العادة بذلك.

ويقول ابن أبي طي: وخلع العاضد عليه ولقبه الملك الافضل وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا.

ثم تبين بعد ذلك أن نجم الدين أيوب إنما قدم مصر ليحكم مع ولده صلاح الدين أمر القضاء على العاضد ودولته.

ولم يطل الأمر، إذ بعد انقضاء سنتين على وصول أسد الدين شيركوه وصلاح الدين إلى مصر، أي سنة ٥٦٦هـ، كان صلاح الدين يكافىء العاضد على استنجاده بالمسلمين لحماية الإسلام وبلاد الإسلام، كان يكافئه بالتآمر عليه وعلى دولته، وكان يقابل الثقة الكبرى التي منحه إياها العاضد بإطلاق يده في شؤون الحكم، بالعمل على تحطيم أمر العاضد وتوهين حكمه، فأمر أول ما أمر بتغيير شعار الدولة الفاطمية، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس على حد تعبير صاحب **الروضتين**.

ولم تدخل سنة ٥٦٧هـ حتى «استفتحها صلاح الدين بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس»[١٠] وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة نفسها. فعل ذلك والخليفة لا يزال حياً.

ومما يجدر تسجيله أنهم لم يجدوا عربياً واحداً يحمل هذا الوزر، فقد أحجم العرب جميعاً أن يطعنوا الدولة العربية الصميمية التي كان تاريخها كله حماية للعرب ودفاعاً عنهم، وعن لغتهم وعلومهم وثقافتهم، أحجم العرب عن أن يطعنوا الدولة العربية هذه الطعنة الغادرة، ويقول ابن أبي شامة: «... وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالمير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا ابتدىء بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله...»[١١].

وأقدم صلاح الدين بعد وفاة العاضد على عمل لم يسبقه إليه أحد، ولم تشهد له مثيلاً أشد العصور طغياناً وهمجيةً وظلماً، «فقد احتجز جميع رجال الأسرة الفاطمية في مكان، واحتجز جميع نسائها في مكان آخر. ومنعَ الفريقين من الزواج لئلا يتناسلوا». ويقول العماد

(١٠) المقصود هنا مدينة مصر، أي الفسطاط وما يتبعها.

(١١) كتاب الروضتين ج ٢، ص ٩٣٢.

الاصفهاني: «وهم إلى الآن محصورون محسرون لم يظهروا». ثم أعمل النهب والسلب في دورهم وقصورهم.

وقد تبجح بهذه الأعمال شعراء صلاح الدين؛ فقال العماد الاصفهاني في قصيدة بذيئة طويلة:

عاد حريم الأعداء منتهك الحمى وفيء الطغاة مقتسما

والأعداء الذين يتباهى هذا الشاعر بانتهاك حريمهم هم الذين استنجدوا بصلاح الدين على الافرنج، فكانوا عند صلاح الدين وشعرائه الأعداء الذين يرتكب فيهم هذا الإجرام ويقال فيهم هذا القول...

وإنسانية صلاح الدين المدّعاة له في معاملته للإفرنج لم تشمل أبناء قومه ودينه. ولم يكن الشعراء وحدهم البذيئين الجحودين، بل كان كذلك كتّاب صلاح الدين، فقال كاتبه القاضي الفاضل من كتاب أرسله إلى بغداد: «.... والملة في شيع الضلال شائعة، ومزقوا كل ممزق ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً...».

على أن أفجع الفواجع كان ما لحق خزائن الكتب، ونترك الكلام في وصفه لابن أبي طي قال: «ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على مليونين وستمائة ألف كتاب[١٢] وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة».

وقد شتتوا هذه الكتب وأضاعوها فغدت هباء منثورا، وأتلفوا هذه الكنوز العلمية التي لم يجتمع مثلها لا قبلها ولا بعدها. ويقول العماد الاصفهاني في ذلك: «وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدي. وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام يتصرف بها بشره الانتهاب والالتهام...».

والعماد هذا الذي رأينا بذاءته فيما تقدم من شعره لم يستطع أمام فاجعة العلم إلّا أن يكون أكثر تحفظاً.

وصاحب كتاب الروضتين أبدى من التشفي والبذاءة ما لم يقصر به عن كل من تحدث عن ذلك من قرنائه ومع ذلك فهو نفسه الذي تحدث عن استنجاد العاضد بنور الدين، مما لم يستطع إنكاره، كما لم يستطع إنكار غير ذلك مما يدل على أرفع مثال للوطنية والحمية

(١٢) المبارة، ألفي ألف وستمائة ألف كتاب.

الإسلامية والعربية التي كان عليها هؤلاء الذين شمت بهم ونبزهم بما نبزهم به وهو يتحدث عن انقراض دولتهم.

ومع أن نور الدين كان ولي نعمة صلاح الدين وسبب تملكه وتفوقه، فقد بدأ صلاح الدين يتنكر له ويتنمر عليه، فقد كان نور الدين عازماً على الدخول في معارك فاصلة مع الافرنج ومجاهدتهم مجاهدة حاسمة، فأرسل يستحث صلاح الدين على أن يتقدم من ناحيته، ولكن صلاح الدين كان لا يجيب. ونترك الكلام هنا للمؤرخ ابن الاثير: «وكان المانع لصلاح الدين من غزو الفرنج الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلّا الجد في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه، فأتاه أمر اللّه الذي لا يرد».

لسنا نحن الذين نروي هذا القول، بل إن الذي يرويه هو ابن الاثير، وصاحب كتاب **الروضتين** ولا يرى فيه شيئاً. وهو الذي تكلم من قبل، وأبدى ما أبدى من القحة واللؤم على البريئين والشرفاء. ويروي ابن العديم في الجزء الثاني من كتابه هذا الأمر بهذا النص: سار الملك الناصر (صلاح الدين) من مصر غازياً فنازل حصن الشوبك وحصره، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام فلما سمع نور الدين بذلك سار من دمشق فدخل بلاد الافرنج من الجهة الاخرى، فقيل للملك الناصر (صلاح الدين): «إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب ملك بلاد الافرنج، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام، وإن جاء وأنت ها هنا فلا بد من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك بما يشاء والمصلحة الرجوع إلى مصر فرحل عن الشوبك إلى مصر». وكرر ابن العديم الرواية في مقام آخر قائلاً: واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل منهما من جهته وتواعدا على يوم معلوم أن يتفقا على قتال الفرنج وأيهما سبق أقام للآخر منتظراً إلى أن يقدم عليه فسبق صلاح الدين ووصل الكرك وحصره. وسار نور الدين فوصل الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان. فخاف صلاح الدين واتفق رأيه ورأي أهله على العودة إلى مصر لعلمهم بأنهما متى اجتمعا كان نور الدين قادراً على أخذ مصر منه. فعاد إلى مصر (وكتب إلى نور الدين يعتذر...)

ونعتقد أن هذا الكلام الذي رواه ابن الاثير وابن أبي طي غني عن أي تعليق وأنه، مضافاً لما ذكرناه فيما تقدم، يضع حداً لأسطورة صلاح الدين الأيوبي...

الرد على الدكتور حسين مؤنس

ليت الدكتور حسين مؤنس كان أكثر تثبتاً وأقل عصبية في مقاله عن العدوان

الصليبي، فالبحوث التاريخية لا تعالج بمثل هذه الروح، والاتهامات لا تلقى هكذا إلقاء اعتباطياً.

يقول الدكتور: كان الفاطميون يرحبون بهذا الغزو الأجنبي. يقول ذلك وهو يعلم أن هذا الغزو إنما كان يستهدف أول ما يستهدف إزالة ملك الفاطميين والقضاء على سلطانهم فيما يحكمونه من بلاد!!... هذا إذا كان هناك ملك فاطمي، فالملك الفاطمي كان قد أزاله الجماليون. ولا نرد عليه نحن بل لنترك لابن القلانسي صاحب ذيل تاريخ دمشق أن يرد عليه بفقرات نأخذها بدون تتبع ولا استقصاء بل كيفما اتفق من صفحات تقع عليها عيناننا مصادفة:

يقول ابن القلانسي في الصفحة ١٤٠ من طبعة سنة ١٩٠٨: «في هذه السنة (٤٩٤هـ) خرج من مصر عسكر كثيف مع الأمير سعد الدولة المعروف بالقوامسي ووصل إلى عسقلان لجهاد الافرنج...» إلى أن يقول: «ونهض إليه من الافرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل». ثم يفصل المؤرخ المعركة التي استشهد فيها القائد المسلم ثم يختم كلامه بهذه الفقرة: «وعاد المسلمون على الافرنج وتذامروا عليهم وبذلوا النفس في الكرة إليهم فهزموهم إلى يافا...» إلى آخر ما قال.

ويقول في الصفحة ١٤١: «وفي هذه السنة (٤٩٥هـ) خرجت العساكر المصرية من مصر لإنجاد ولاة الساحل من الثغور الباقية في أيديهم» (وانتهت هذه الحملة بالنصر الاسلامي أيضاً).

ويقول في الصفحة ١٤٢ وهو يتكلم عن سنة ٤٩٦هـ: «في أول رمضان خرجت العساكر المصرية من مصر إلى البر والأصطول في البحر مع شرف ولد الأفضل. إلى أن يقول: وتفرق الأصطول والعساكر إلى الساحل وكانت الأسعار بها قد ارتفعت والأقوات قد قلت فصلحت بما وصل مع الأصطول من الغلة ورخص الأسعار»... إلى آخر ما قال.

ويمضي ابن القلانسي في ذكر هذا وأشباهه في معظم الصفحات إلى أن نصل إلى سنة ٥٠١ هـ فيقول: «وفي هذه السنة نهض بغدوين في عسكره المخذول من الافرنج نحو ثغر صيدا فنزل عليه في البحر والبر ونصب البرج الخشب ووصل الأصطول المصري للدفع عنه والحماية له فظهروا على مراكب الجنوية وعسكر البر...».

وفي أحداث سنة ٥٠٢هـ يصف حصار الفرنج لطرابلس وسير الأسطول لانجادها فيقول: «فأيقنوا (أهل طرابلس) بالهلاك وذلت نفوسهم لاشتمال اليأس من تأخر وصول الأصطول

المصري في البحر والبر والنجدة وقد كانت غلة الأصطول أزيحت وسير الريح ترده لما يريد الله تعالى ومن نفاذ الأمر المقضي». إلى آخر ما قال.

فالقدر كان أقوى من قوة المسلمين الذين ردت الريح أسطولهم فلم يستطع الوصول في الوقت المناسب لإنجاد طرابلس.

وفي أحداث سنة ٥١٧هـ يقول ابن القلانسي: «وفيها ورد الخبر بأن اصطول مصر لقي أصطول البنادقة في البحر فتحاربا فظفر به اسطول البنادقة وأخذ منه عدة قطع».

وتأتي سنة ٥٤٦هـ فيقول ابن القلانسي: «وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأصطول المصري إلى ثغور الساحل في غاية من القوة وكثرة العُدّة والعِدّة وذكر أن عدة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحونة بالرجال. ولم يخرج مثله في السنين الخالية وقد أنفق عليه قرب ثلثمائة الف دينار وقرب من يافا من ثغور الافرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به واستولى على عدة من مراكب الروم والإفرنج ثم قصدوا ثغر عكا وفعلوا فيه مثل ذلك وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الافرنجية وقتلوا من الحجاج وغيرهم خلقاً عظيماً وأنفذوا ما أمكن إلى ناحية مصر وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس وفعلوا فيها مثل ذلك»... إلى آخر ما قال.

هذه شذرات قليلة من كثير مأخوذة من كتاب واحد من صفحات محدودة تشير إلى بعض جهاد الدولة التي يقول عنها الدكتور حسين مؤنس إنها رحبت بهذا الغزو الأجنبي. ثم لايتورع عن القول عنها إنها كانت بلاء على الإسلام والمسلمين. ولعل من هذا البلاء أنها أورثتنا القاهرة والأزهر.

والدكتور حسين مؤنس لم يستطع إلّا أن يعترف في مقاله بأن صلاح الدين الأيوبي قد عقد اتفاق هدنة مع الصليبيين سلمهم بسببه، سلماً بلا قتال، الساحل الممتد من صور إلى حيفا. فهو يقول في **أطلس تاريخ العالم** (ص ٢٦٩) ط ١٩٨٧ عن تسليم صلاح الدين البلاد للصليبيين ما يلي:

ثم دخلوا، الصليبيون، في مفاوضات مع صلاح الدين انتهت بعقد صلح الرّملة الذي نصّ على أن يترك (صلاح الدين) للصليبيين شريطاً من الساحل يمتد من صور إلى يافا، وبهذا العمل عادت مملكة بيت المقدس ـ التي انتقلت إلى إمارة طرابلس ـ إلى القوة بعد أن كانت قد انتهت، وتمكن ملوكها من استعادة الساحل حتى بيروت، إلى أن يقول: وبذلك تكون معظم المكاسب التي حققها صلاح الدين ـ فيما عدا استعادته لبيت المقدس ـ قد ضاعت (انتهى).

وفي حديثه عن قادة الحملة الصليبية الأولى الذين طلبوا الاستسلام ورفض كربوقا طلبهم يقول الدكتور مؤنس ما يلي: هم الذين سيدخلون بيت المقدس وينشئون مملكة القدس، والإمارات الصليبية الثلاث. ولولا نجاح هذه الحملة الأولى لما استمرت الحركة الصليبية ولتوقفت مسيرتها بعدها (انتهى).

وهكذا يكون الأمر ـ كما قلنا فيما تقدم من البحث ـ أنه لولا خيانة غير الفاطميين لانتهت الحروب الصليبية عند انطاكية.

ونلفت نظر الدكتور مؤنس إلى ما جاء في **أطلس تاريخ العالم** ص ٣٠٩ من إقدام الفاطميين على تحويل زنوج السودان إلى الإسلام؛ يقول «عندما استقدم الفاطميون بني هلال وبني سليم بن منصور من الجزيرة العربية لحرمان القرامطة من معاونتهم لأنهم كانوا منضمين إليهم وانزلوهم في صعيد مصر ثم سمحوا لهم بعبور النيل والإغارة على بلاد المغرب ـ فتحوا الباب لقبائل العرب في سيناء وصحراء مصر الشرقية فتدفقوا على الصعيد واستقروا فيه وقامت قبيلة منهم هي قبيلة بني الكنز أو الكنوز بدخول النوبة والاستقرار فيها، وكان هذا بداية لزحف العرب إلى الجنوب واستقرارهم في شمالي السودان وتعريبه، ثم الامتداد فيه إلى الجنوب وتحويل السودان إلى بلد عربي».

الدكتور حسين مؤنس الذي اعترف بمهادنة صلاح الدين للصليبيين وتسليمهم البلاد بلا قتال، الدكتور مؤنس هذا لا يجد في ذلك مأخذاً(!!!) فليت عفوه وتسامحه اللذين شملا هذه المهادنة وهذا التسليم، قد شملا ما ادعاه زوراً على غير صلاح الدين من مثل ذلك.

ونزيد الدكتور مؤنس أن صلاح الدين لم يسلم الصليبيين الساحل فقط، بل سلّمهم أيضاً قسماً من الداخل بما فيه نصف الرملة ويافا وغير ذلك. سلمهم هذا وهو المنتصر في وقعة حطين!!...

ونزيد الدكتور أيضاً أن صلاح الدين رفض ما عرضه عليه الخليفة الناصر بأن يمده بجيوش العراق ليواصل قتال الصليبيين والقضاء عليهم في فلسطين كلها، لقد رفض ذلك وآثر الهدنة والتسليم. وإذا كان الدكتور مؤنس وغير الدكتور مؤنس في شك من ذلك فليرجع إلى ما كتبه عماد الدين الأصفهاني صاحب كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي** والذي كان بمثابة سكرتير شخصي لصلاح الدين وشهد كل هذه الأحداث بنفسه.

ونزيد الدكتور أيضاً وأيضاً بأن نور الدين أراد قبل ذلك الزحف على الصليبيين من الشام وطلب من صلاح الدين الزحف عليهم من مصر ولكن صلاح الدين رفض ذلك وتمرد على متبوعه نور الدين. أما لماذا فعل فإن ابن الأثير يكفينا الجواب. يقول ابن الأثير: وكان

المانع لصلاح الدين من غزو الإفرنج الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الإفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلّا الجد في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز للمسير إليه فأتاه أمر اللّه الذي لا يرد.

فليت عفو الدكتور حسين مؤنس وتسامحه اللذين شملا كل هذا شملا أيضاً وهماً علق في ذهنه.

ولو كان الدكتور مؤنس أكثر تثبتاً وأقل عصبية لما كان قال: «كان أصحاب السلطان هناك (في القدس) رجال الفاطميين انسحبت قواتهم دون قتال إلى عسقلان».

وكذلك فنحن هنا لا نرد عليه بأنفسنا ونترك للأستاذ حسن حبشي صاحب كتاب **الحروب الصليبية** ولكل المؤرخين أن يردوا عليه. قال الأستاذ حبشي مستنداً إلى ابن الاثير وغير ابن الاثير من مؤرخي العرب والفرنج: «فوجيء افتخار الدولة ـ حاكم مصر على القدس ـ بمقدم هذه الجموع اللجبة وأدرك ضعفه عن مقاومتها فعمد إلى تسميم الآبار وطم القنوات وأخرج النصارى من المدينة وعهد بحراسة الأسواق إلى جماعة من العرب والسودان».

وقلة التثبت وكثرة العصبية تجعل مؤنس يسمي الفاطميين باسمهم حين يحسب أنه وجد موطن ضعف. أما غير الفاطمين فلا يذكرهم أصلاً بل يمر بهم مسرعاً مجملاً الكلام: كما في قوله: في نفس المقال: «بهذا وبدون مقاومة من أهل الدول التي كانت قائمة إذ ذاك وجنودها الكثيرين وضع الصليبيون قدماً ثابتة في أرض الشام». فإذا صح هذا فلماذا هذه العناية بذكر الفاطميين وتخصيصهم وحدهم ما دامت الدول القائمة كلها وجنودها الكثيرون لم يقاوموا باعتراف الدكتور المؤرخ؟!

جواب الدكتور حسين مؤنس

كان كل ما أجاب به الدكتور مؤنس على ردنا عليه أن استشهد بقول لكاتب أوروبي.

وكنا قد قرأنا من قبل للدكتور مؤنس مقالاً ينعى فيه على من يستندون فيما يكتبون عن تاريخ العرب والمسلمين على كتّاب أوروبيين، جاءت فيه هذه الجملة في معرض الإنكار والتأنيب: «... كلام ينقلونه من كتب أوروبية وننقل عنهم دون تفكير أو إحساس!!».

صدق الدكتور مؤنس... «ننقل عنهم دون تفكير أو إحساس!» والدكتور يقول في هذا المقال مدافعاً عن المسلمين المنهزمين أمام المغول: «... فإذا كان المغول قد انتصروا عليهم فلهم عذرهم».

للمنهزمين أمام القوى المغولية الطاغية عذرهم، لأنهم غير فاطميين، أما المنهزمون أمام القوى الصليبية الجارفة فلا عذر لهم، لأنهم فاطميون!!!

وإليك نص ما أجاب به الدكتور مؤنس على ردّنا عليه:

«ينكر السيد حسن الأمين ما ذهبت إليه من اتجاه الفاطميين إلى التعاون مع الصليبيين أول ما نزلوا أرض الشام».

ونعلق نحن على هذه الفقرة من رد الدكتور مؤنس بما يلي:

١ ـ لقد تراجع عن اتهامه السابق بعد أن قرأ ردنا عليه وما واجهناه به من حجج دامغة. فبعد أن كان في مقاله السابق يتهم الفاطميين اتهاماً صريحاً بالتعاون مع الصليبيين أصبح الآن يسمي ذلك: «اتجاه الفاطميين إلى التعاون».

٢ ـ إن دولة الفاطميين استمرت أكثر من مئتين وخمسين سنة، فإن صح ـ وليس ذلك بصحيح ـ نقول: إن صح أن واحداً من رجالها قد تعاون مع الصليبيين، فقد كان على الدكتور مؤنس أن يسمي ذلك الرجل باسمه، لا أن يقول (الفاطميون).

ثم يسترسل الدكتور مؤنس في القول، ذاكراً ما خلاصته أنه عندما دخل الصليبيون أرض الشام وبدأوا حصار انطاكية، توهم رجال الدولة الفاطمية أن أولئك الصليبيين إن هم إلّا جند مرتزقة أرسلهم امبراطور الدولة البيزنطية لكي يعاونوه على السلاجقة وأن الأفضل وزير المستعلي أرسل إليهم سفارة ثم عادت هذه السفارة بدون نتيجة.

ثم يعترف الدكتور مؤنس أنه لم يجد هذا القول في أي مصدر عربي وأن مصدره الوحيد في ذلك مصدر أوروبي.

ونرد على قوله هذا بما يلي:

١ ـ بفرض صحة كل ذلك ـ وهو كما قلنا غير صحيح ـ نقول بفرض صحته فهو يعترف بأن رجال الدولة الفاطمية لم يكونوا عارفين بأن هناك غزواً صليبياً يستهدف البلاد وأنهم ظنوا بأن القادمين جند مرتزقة. ومن الطبيعي في هذه الحال أن ترسل الدولة من يستطلع حال هؤلاء القادمين ويكلمهم ليعلم مقاصدهم.

ثم إنه يعترف بأن الذين ذهبوا للقاء هؤلاء المرتزقة عادوا دون أن يكون للقائهم معهم أية نتيجة، وأن أي اتفاق معهم لم يحصل، وأن الدولة في مصر قد قاومت زحفهم وقاتلتهم وصمدت لهم ما استطاعت الصمود، ولكنهم كانوا أقوى منها، وكما انتصر المغول على المسلمين (غير الفاطميين) لأنهم أقوى منهم ـ باعتراف الدكتور مؤنس نفسه ـ كذلك انتصر الصليبيون على المسلمين (الفاطميين) لأنهم أقوى منهم. ولكن بما أن الأولين (غير

فاطميين) فإن لهم عذرهم في هزيمتهم، وبما أن الآخرين (فاطميون) فليس لهم عذرهم في ذلك!. هذا هو منطق الدكتور حسين مؤنس ومنطق غيره من أمثاله أيضاً...

٢ ـ إنا نرد على الدكتور مؤنس في استشهاده على مزاعمه بأقوال الكتّاب الغربيين بما ردّ به هو نفسه على من يستشهدون بهم حين يبحثون شؤون التاريخ الاسلامي حين قال ـ كما ذكرنا من قبل ـ : «... كلام ينقلونه من كتب أوروبية... وتنقل عنهم دون تفكير أو إحساس».

هذا مع العلم بأنه لم تكن يومذاك دولة فاطمية، بل كانت هناك دولة جمالية.

الرد على الدكتور محمد علي الضناوي

لا ندري ما يعني الدكتور بقوله: (بعض الشيعة)، هل يعني بقوله هذا أنهم داخلون في مَنْ اسماهم ببعض الفرق الاسلامية المنحرفة؟ أم هم داخلون فقط في المتعاونين مع الأعداء؟

نريد أن نفترض حسن النية ونأخذ بالقول الثاني، لذلك سنكتفي بأن نحدثه بعض الحديث عن المتعاونين مع الاعداء مكتفين من القصص التي عندنا بقصتين فقط:

١ ـ الكامل والأشرف ولدا العادل أخي صلاح الدين الايوبي ترددت الرسل بينهما وبين الملك الصليبي فريدريك الثاني امبراطور الألمان ليساعدهما على أقربائهما لقاء ثمن باهظ، فتمت الصفقة وسلّما إليه القدس (نعم القدس) وما حولها، ومعها الناصرة وبيت لحم وطريقاً يصل بين القدس وعكا وذلك سنة ٦٢٥هـ ـ ١٨ شباط ١٢٢٩م. ويصف ابن الأثير وقع هذه الصفقة على المسلمين قائلاً: «وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه».

والكامل والأشرف ـ كما يعلم الدكتور ضناوي ـ ليسا من (بعض الشيعة).

٢ ـ في السنة ٦٣٨هـ سلم الصالح اسماعيل الأيوبي صاحب دمشق إلى الصليبيين صيدا وهونين وتبنين والشقيف فيما سلم لهم من البلاد ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر.

وكذلك فإن الصالح اسماعيل ـ كما يعلم الدكتور ضناوي ـ ليس من (بعض الشيعة).

ونحب هنا أن نذكر موقف (بعض الشيعة) من هذا الحادث، وهم من أهل جبل عامل ومن أجداد الذين يقارعون اليوم ببطولاتهم قوى الصهاينة. فإن صاحب كتاب **الاعلاق الخطيرة** يسمي منهم (الحاج موسى) و (أحمد الشقيفي) ويقول إن الحاج موسى حين طُلب إليه أن يساهم في عملية تسليم قلعة الشقيف أبى ذلك وقال: «والله لا جعلته في

صحيفتي» ولكن الملك الأيوبي ظل يضربه حتى قتله، ثم صادر أمواله.

وبالرغم مما أصاب الحاج موسى فإن الآخرين أصروا على رفض المعاونة على تسليم القلعة وقرروا مقاومة التسليم وتحصنوا في القلعة للدفاع عنها، وكاتبوا صاحب الكرك لانجادهم، فجاءتهم منه نجدة لم تغن شيئاً لأن الملك الأيوبي جمع جموعه وخرج من دمشق وحاصرهم بنفسه وضيق عليهم حتى اضطرهم للاستسلام، فقالوا له: «نحن لا يحل لنا أن نسلمه إلى الافرنج ونحن نسلمه إليك وأنت تفعل فيه ما تختاره».

فسلمه الصالح اسماعيل إلى الصليبيين.

والدكتور ضناوي الذي يزعم أن (بعض الشيعة) بين المتعاونين مع الأعداء ـ وهو لا يستطيع أن يثبت ذلك ـ إن الدكتور ضناوي وهو يزعم هذا الزعم لا يشير أبداً إلى أن (كل الشيعة) هم الذين دافعوا عن بلدته طرابلس وقاوموا الحملة الصليبية التي غزتها وظلوا يقاومونها عشر سنين، وأنهم حين ضاقت بهم الأمور وتكاثر عليهم الصليبيون أرسلوا وفداً إلى الخلافة في بغداد وإلى السلاجقة فيها يستنجدون الجميع لحماية طرابلس (مدينة الدكتور ضناوي) ولكن لم ينجدهم أحد.

والدكتور محمد علي الضناوي الذي يتحدث في مقاله، وربما في كتابه أيضاً، عن الحضارة الاسلامية التي شملت فيما شملت لبنان، يعلم أن من أبرز مظاهر تلك الحضارة حضارة بني عمار الذين كانت عاصمتهم مدينته طرابلس والتي قيل عنها في عهدهم، وعهد الحسن بن عمار بالذات، «ازدهرت وأصبحت مركزاً للحياة الفكرية في بلاد الشام».

بنو عمار هؤلاء كان لهم في طرابلس أساطيل قيل فيها: «كانت تنتقل في أنحاء البحر المتوسط معيدة إلى الأذهان ذكرى أساطيل الفينيقيين ودورهم التجاري والحضاري في العالم القديم». هذه الأساطيل الذي تحدث عنها ابن الأثير فقال: «إن حملة ميرة بحرية خرجت من اللاذقية لانجاد الفرنج المحاصرين لطرابلس فأخرج إليها فخر الملك (من بني عمار) أسطولاً فجرى بينه وبين القادمين قتال شديد ظفر فيه أسطول طرابلس بقطعة من أسطول أعدائهم فأخذوها وأسروا من فيها».

وبنو عمار اشتهرت طرابلس في عهدهم بصناعة الورق الذي كان يفوق ورق سمرقند الشهير.

وبنو عمار أنشأوا في طرابلس جامعة دار العلم، وكان بين روادها أبو العلاء المعري، وأنشأوا فيها جامعة دار الحكمة وأنشأوا فيها مكتبتهم الكبرى التي قدر بعض المؤرخين عدد ما كانت تحويه من الكتب بثلاثة ملايين كتاب.

بنو عمار هؤلاء هم الذين دفعوا الصليبيين عن طرابلس عشر سنين، بماذا تذكرهم طرابلس؟ إنها بخلت عليهم حتى باسم شارع من شوارعها. وحين قيل إن في النية انشاء معهد عال في طرابلس لم يفكر أصحابه بأن يكون اسمه دار العلم أو دار الحكمة، بل جعلوا اسمه دار المنار، لأن في الاسمين الأولين إحياء لذكرى بني عمار!

والأستاذ رضوان مولوي ابن طرابلس عز عليه منذ سنين وهو يكتب في مجلة **السياحة** عن طرابلس، عز عليه أن ينسب المكتبة الكبرى إلى بني عمار فقال: «يقال إن آل عمار الشيعة هم الذين أسسوها».

وباستثناء ابن طرابلس البار الدكتور عمر تدمري الذي نقب ودرس حتى كتب تاريخاً لمكتبة طرابلس العظيمة، باستثناء الدكتور عمر تدمري تتجاهل مدينة طرابلس بني عمار، إن لم نقل تتنكر لهم!

الرد على الدكتور عبد العزيز سالم

نشرتم في العدد الأخير من مجلة **السياحة** مقالاً عن كتاب **صيدا في العصر الاسلامي** لمؤلفه الدكتور سيد عبد العزيز سالم كله ثناء على الكتاب في حين أنه مليء بالمغالطات التاريخية والافتراءات المدسوسة.

فالروح التي كتب بها الكتاب بعيدة عن الروح العلمية التي يفترض أن يتحلى بها من يتصدى لكتابة التاريخ لا سيما إذا كان قد وضع نفسه موضع الأستاذ الجامعي الموجه. هذا فضلاً عما فيه من أغلاط تاريخية هي في واقعها جهل لأبسط أحداث التاريخ.

لقد جعل المؤلف همه النيل من الدولة الفاطمية وكانت هذه هي غايته الأولى في الكتاب. فهو مثلاً يتحدى الحقيقة ويتجرأ على الحق فيما يرويه من أحداث وذلك من أجل الوصول إلى هدفه التخريبي. فهو مثلاً يزعم أن الدولة الفاطمية هي مسؤولة عن احتلال الصليبيين لصيدا. وهو في هذا القول إما جاهل وإما منحرف عن الحق والحقيقة.

ويبلغ الدكتور ذروة التعصب الأعمى حين يميز بين الأسطول المصري والأسطول الفاطمي، فهو حين يضطر لأن يشير إلى كفاح الأسطول الفاطمي يسميه الأسطول المصري، وحين يظن أنه وجد مغمزاً في هذا الأسطول يعود عند ذلك فيسميه أسطولاً فاطمياً، وفي ذلك العهد هل كان هناك أسطولان لمصر أحدهما مصري والآخر فاطمي؟؟

وقد ردّ الدكتور سالم على ردنا فاجبناه بما يلي:

١ ـ يقول الدكتور سالم إنه لم يسع قط إلى النيل من الفاطميين... إلى آخر ما قال:

ونحن نسأله ألم يقل في الصفحة ٩٧ من كتابه هذا القول: «.... السلطات الفاطمية في مصر قد أسهمت في ضياع مدن الساحل السوري كله...».

وإذا لم يكن هذا القول الظالم المخالف لأبسط حقائق التاريخ نيلاً من الفاطميين فكيف يكون النيل منهم؟

يقتل قائد أسطول الفاطميين وهو يقاتل دفاعاً عن الساحل السوري، ويخوض هذا الأسطول أعنف المعارك وأشدها لحماية هذا الساحل، ويمد الثغور المحصورة بالأقوات والسلاح لتصمد وتقاتل، ومع ذلك فهو مسهم في ضياع هذا الساحل؟ ومع ذلك فالدكتور سالم يقول: إنه لم يسع للنيل من الفاطميين.

٢ ـ يقول الدكتور إنه لم يفرق بين أسطول مصري وأسطول فاطمي وإنه اعتبرهما شيئاً واحداً، وإنه خلاف ما نزعم نحن، لم يذكر الأسطول المصري في وقت انتصاراته والأسطول الفاطمي عندما يجد مغمزاً فيه.

قد لا يكون الدكتور سالم قد تعمد ذلك، ولكن هذا ما جاء في كتابه. فهو في بحث واحد وفي سطور متتابعة (صفحة ٩٦ ـ ٩٧) يقول مثلاً عن صيدا إنه لحسن حظها وصل الأسطول المصري في تلك الآونة للذب عنها ومدافعة الصليبيين.

وفي نفس الصفحة يتحدث عن اضطرار هذا الأسطول للتأخر في الوصول لإنجاد طرابلس فيسميه: «السفن الفاطمية»... ثم يكمل الحديث في الصفحة التالية وكيف وصل الأسطول متأخراً فيسميه الأسطول الفاطمي.

الرد على العميد الركن ياسين سويد

انصب ردنا على جماعة مؤتمر صلاح الدين على أقوال الدكتور عمر تدمري لأن المؤتمرين جعلوه وجه المؤتمر ولأنه أوغل في التجريح الباطلي أي ايغال.

وقد رأينا هنا أن نلم ببعض ما قيل إلمامات تري القارىء أن كل ما قالوه هو مجرد اجترار! وممن تكلموا العميد الركن الدكتور ياسين سويد، الذي كان كل همه فيما قال أن يبرهن على براعته العسكرية وتصوراته الحربية، وأن يرى السامع والقارىء أن المتكلم هو عميد ركن يتحدث على طريقة العمداء الأركان، ثم هو إلى ذلك (دكتور) في التاريخ!

إنه رب السيف والقلم واللسان!...

إنه ـ وهو يتحدث عن صلاح الدين ـ يأتي بأمثال هذه التعابير (العميدية الركنية): «يُنَفِّذ بهدوء وأناة استراتيجية طويلة النفس تهدف إلى حصر المحتلين بين فكي كماشة...».

«كانت حركاته نوعاً من الاستكشاف العسكري للقدرات القتالية للعدو...».

«وضع في مواجهة الصليبيين مشاغلة...».

«احتل صيدا بهجوم عاصف...».

«كان اختياراً استراتيجياً موفقاً...».

«هجوم بين ثلاثة محاور».

«استخدم في مناورته هذه ما يسمى اليوم باستراتيجية المناورة بالخطوط المتقاربة...».

إلى غير ذلك من أمثال هذه التعابير...

على أن أطرف ما قاله موغلاً في (عميديته الركنية) هو هذا الكلام: «وترك (صلاح الدين) هناك جزءاً من الأمتعة الثقيلة وأثقال الجنود، ثم أخذ معه الجنود المسلّحين تسليحاً خفيفاً»...

وإذا صح أن يقال عن جيوش اليوم إن فيها أمتعة ثقيلة وأمتعة خفيفة، وإن لجنودها أثقالاً، فما هي الأمتعة الثقيلة، وما هي اثقال الجنود في تلك الأعصر؟!

والأكثر طرافة حديثه عن جنود صلاح الدين المسلّحين تسليحاً خفيفاً، فهل كان يومذاك أسلحة خفيفة وأسلحة ثقيلة؟!

وهل كان من هو مسلح بغير السيف والرمح والقوس والنشاب؟! وهل كان لديهم مدرعات ومدفعية ورشاشات وراجمات صواريخ وغير ذلك من الأسلحة الثقيلة؟!!

ولكن لا السيف ولا القلم ولا اللسان، استطاعت مجتمعة أن تحمي العميد الركن الدكتور من أن يناقض نفسه وأن يقول في الصفحة الأولى من خطابه إن صلاح الدين حرر بالسيف معظم بلاد الشام من حكم الصليبيين ولم يبق في ايديهم سوى صور وطرابلس.

ثم يقول في الصفحة الثامنة: استطاع صلاح أن يحقق ما بين عامي ١١٨٧م و ١١٩٠ انتصارات عسكرية باهرة حيث لم يبق للصليبيين بعدها من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ومن إمارة طرابلس سوى العاصمة طرابلس ومن إمارة انطاكية سوى العاصمة انطاكية وثغر السويدية وحصن المرقب، وكذلك ثغري غزة ودير البلح في جنوب فلسطين!

أي أن الانتصارات الباهرة أدت إلى أن تزداد الرقعة التي يحتلها الصليبيون فبعد أن كان لم يبق في أيديهم إلّا صور وطرابلس، زاد ما في ايديهم بعد انتصارات صلاح الدين الباهرة عليهم فمضافاً إلى صور وصيدا صار لهم ما عدّده العميد الركن من مدن وثغور!

ويقول العميد الركن الدكتور فيما يقول: عشية ملك الناصر صلاح الدين كان العرب

والمسلمون قد انقسموا شيعاً متناحرة... إلى أن يقول: «وعباسيون كانوا قد بدأوا يشهدون انحلال امبراطورية غنية مترفة امتد سلطانها على طول البلاد الإسلامية وعرضها...».

ونقول له: إن الأمر على عكس ما تقول، فالعباسيون في ذلك الحين كانوا قد بدأوا يشهدون انبعاث امبراطورية كانت قبل ذلك قد مشت في طريق الانحلال.

كانوا قد بدأوا يشهدون التمهيد لعهد الخليفة الناصر لدين اللّه، الذي لم يلبث أن أعاد للخلافة بريقها الخابي، فقضى على تحكم السلاجقة بالخلفاء واستقل بالحكم في رقعة واسعة من الأرض كان لها سلطانها النافذ وجيشها القوي. هذا الجيش الذي أراد أن يمدّ به صلاح الدين للقضاء نهائياً على الصليبيين، ولكن صلاح الدين رفض ذلك واسرع لايقاف القتال مع الصليبيين، ثم للتحالف معهم إذا أصرّ الناصر على ارسال جيش الخلافة إلى بغداد، فاشترطوا لقبولهم بهذا التحالف أن يعيد إليهم ما أخذه منهم في فلسطين عدا القدس فقبل شروطهم على ما أوضحناه فيما تقدم من القول.

والذي أوقع العميد الركن الدكتور في هذا الجهل بحقيقة حال الخلافة العباسية يومذاك فوصفها بما وصفها به ـ نقول: الذي أوقعه في هذا الجهل هو أنه أراد أن يكون في وقت واحد عميداً وركناً ودكتوراً، فضاع بين العمادة والركنية والدكتورية...

يقول فيما يقول: «قامت مقاطعات يحكمها أمراء وزعماء عرب لا يفتأون يتناحرون فيما بينهم، خصوصاً وانهم تفرقوا شراذم قبلية وطائفية ومذهبية متباينة وغير متحدة حيث مال بعضهم إلى الغزاة الصليبيين وناصروهم، بينما قاومهم آخرون وحاربوهم وأهمهم الأتابكة الزنكيون والأيوبيون».

من المؤسف أن يتجاهل العميد الركن الدكتور فيمن قاوم الصليبيين وحاربهم ـ أن يتجاهل بني عمار الذين ظلوا يقاومون الصليبيين ويحاربونهم عشر سنين...

أما ما ذكره عن الزنكيين فصحيح، وأما عن الأيوبيين، فإن أمرهم مع الصليبيين كان يختلف باختلاف مصالحهم، فصلاح الدين في أول امره احتمى بهم من نور الدين، ثم لما كانت مصلحته الشخصية في قتالهم قاتلهم، ثم لما كانت هذه المصلحة في مسالمتهم سالمهم، ثم لما كانت في محالفتهم حالفهم على جيوش الخلافة وأعاد إليهم البلاد التي أخذها منهم، كما أوضحناه في اقوالنا السابقة.

وأما بعد صلاح الدين، فإن أخاه العادل أعاد إليهم القدس، وحالفهم الأيوبيون الآخرون ليعينوا بعضهم على بعض، وسلموهم لقاء هذه التحالفات البلاد، ما فصلنا بعضه من قبل...

على أن العميد الركن الدكتور لم يبين لنا من هم هؤلاء الذين قال إنهم «مالوا

إلى الصليبيين وناصروهم»، فقد كان عليه أن يشهر بهم لا أن يكتم اسماءهم. واغلب الظن أن حكمه على هؤلاء الناس هو كحكمه على من قال إنهم قاوموا الصليبيين وحاربوهم...

والعميد الركن الدكتور يقول عن صلاح الدين بأنه القائد العربي الذي قل نظيره في تاريخ النضال العربي ماضياً وحاضراً.

يقول ذلك في حين أنه يعترف بأن صلاح الدين عقد في ٢٢ شعبان عام ٥٨٨هـ (أيلول ١١٩٢م) صلحاً نهائياً مع ريكاردوس قلب الأسد احتفظ فيه الصليبيون بالشريط الساحلي من صور إلى عكا إلى يافا.

والعميد الركن الدكتور يصف هذا الصلح بأنه (نهائي) أي أنه يعترف بأن صلاح الدين تنازل للصليبيين تنازلاً (نهائياً) عما سماه ـ تمشياً مع استعماله التعابير العسكرية الحديثة ـ سماه الشريط الساحلي.

فاذا كان الذي يتنازل للأعداء تنازلاً نهائياً عن قسم كبير من بلاده يعتبر في نظر العمداء الأركان الدكاترة بطلاً لا نظير له، فمن هو الخائن اذاً؟

إن البطولة أن تموت من الظما ليس البطولة أن تعب الماء

لقد انزلق قلم العميد الركن الدكتور من حيث لا يدري إلى اتهام صلاح الدين بتسليم المدن التي كان استردها من الصليبيين ـ انزلق قلمه إلى اتهامه باعادتها للصليبيين ذاكراً أنها من صور إلى يافا.

فيافا ـ بصورة خاصة ـ هي من المدن التي اشترط الصليبيون على صلاح الدين إعادتها إليهم بقبولهم التحالف معه على الخليفة العباسي (الناصر)، فنزل على شروطهم وأعادها إليهم مع حيفا وغيرها من المدن. والعميد الركن الدكتور لا يبالي ابداً أن يناقض نفسه، فعدا عما ذكرناه من قبل في هذا المجال، نأخذ هنا مثالاً آخر.

فقد رأيناه يسمي فيما تقدم من أقوال استسلام صلاح الدين للصليبيين ـ يسميه صلحاً نهائياً. ثم لا يلبث من أجل تبرير فعلة صلاح الدين هذه أن يقول: «لم يتورع صلاح الدين عن القبول بأية هدنة تعرض عليه...» إلى آخر ما قال في تبرير ما سماه هو نفسه: صلحاً نهائياً، ثم جاء يسميه هنا هدنة عرضت عليه!...

ومن أطرف الطرائف في هذا الكلام: أن صاحبه يبدؤه بمهاجمة صلاح الدين وتجريحه، في حين أنه يريد بعد ذلك أن يبرر الفعلة التي أقدم عليها صلاح الدين من الاستسلام

للصليبيين الذي سماه المحاضر (صلحاً نهائياً). إنه يبدأ كلامه بقوله عن صلاح الدين: (لم يتورع) عن القبول بالهدنة، وهل أمضي في مهاجمة صلاح الدين من القول عنه إنه لم يتورع عن قبول الهدنة.

لقد كان العميد الركن في صراع نفسي يحسه في اعماقه، فهو في حقيقته ووطنيته وفطرته يستنكر استسلام صلاح الدين للصليبيين، ولكنه في واقعه وفي معايشته للغوغائية ومسايرته لما يحيط به مماشٍ للواقع وللغوغائية ولما يحيط به.

فعند ما ينطلق في فطرته ووطنيته تنطلق منه كلمات من أمثال (صلح نهائي) و (لم يتورع)، ثم ينطلق مع المنغمرين فيوقع نفسه في التناقض من حيث لا يتعمد...

ليس هذا كل ما في محاضرة العميد الركن الدكتور من مآخذ، فهي كلها مآخذ وكلها تناقضات، وكل ما فعلناه هنا أننا نقلنا نماذج من ذلك ليس إلا.

ويبدو جلياً أنه بدأ يحس بالحرج من نفسه، وبانت له ملامح من تخبطه، فآثر الخروج من كل ذلك، والانقطاع عن صلاح الدين وما جره عليه مما هو فيه الآن، فقفز فجأة الآن، من صلاح الدين إلى محمد علي باشا، إلى جمال عبدالناصر، إلى أنور السادات فاستغرق الحديث عن هؤلاء أكثر من ثلث الكلام.

الرد على الاستاذ عصام محفوظ

الذي أوقع الاستاذ عصام محفوظ في الارتباك الذي وقع فيه وهو يكتب عن السهروردي وصلاح الدين، والذي جعله يحار في الجمع فيما حسبه متناقضات في سيرة صلاح الدين ـ الذي فعل ذلك في قلم الأستاذ عصام هو أنه اعتمد في سيرة صلاح الدين على خيال الروائيين، وأقلام المغرضين الحداجين، ولم يتسنّ له الاطلاع على حقائق التاريخ في مصادرها الصحيحة. فحار ـ وهو المخلص الباحث عن الحقيقة ـ في تعليل الأحداث المتناقضة، حين أنه لا مجال للحيرة، ولا مكان للتناقض، فالاحداث كلها متسقة، وكلها منطلقة من منبع واحد لا مكان فيه للاعتدال والتسامح.

أبدأ ببيان الحقائق لا بالتسلسل الذي سار عليه الاستاذ عصام، بل من وسط ذاك التسلسل لا من أوله، لأن هذا الوسط هو الذي يرتكز عليه الكثير من الأمور التي اعتمدها كاتبنا وبنى عليها استنتاجاته، فاذا انهار انهارت معه كل الاستنتاجات وكل الاوهام وكل التناقضات.

يقول الاستاذ عصام فيما يقول، مدللاً على تسامح صلاح الدين واعتداله:

«ولكي ندرك حقيقة هذا الاعتدال نلقي نظرة على تعامل هذا الحاكم السني مع الخلافة الفاطمية في مصر إذ بدخوله القاهرة ظافراً يأمره نور الدين بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية فلا يصدع صلاح الدين بالأمر».

ثم يسترسل الاستاذ محفوظ معتمداً على الخيال الروائي لأمين معلوف في كيفية اعلان ذلك.

ونقول للاستاذ محفوظ إن صلاح الدين لم يدخل القاهرة ظافراً، بل دخلها مدعوّاً من الخليفة الفاطمي العاضد على الشكل التالي معتمدين فيما نكتب على مصدر من اعرق المصادر في التهجم على الفاطميين، والموالاة لصلاح الدين، هو الجزء الأول ـ القسم الثاني من كتاب الروضتين في الصفحة ٣٩١ من طبعة ١٩٦٢ وغيرها من الصفحات:

في العام ٥٦٤هـ كان الصليبيون يهددون مصر ويتحفزون للوثوب عليها بعد أن خبروا أحوالها قبل ذلك في أحداث ليس هنا مكان سرد تفاصيلها. فرأى الخليفة الفاطمي (العاضد) أن لا قبل لمصر بمدافعة الصليبيين لكثافة قواهم وتفوقها على القوى المصرية، فتجلت وطنيته على أبرز صورها، فتناسى ما بينه وبين الآخرين من أوتار، وتجاهل ما يحملونه له من عداوة وأغضى على ما طالما بيتوه له ولأسرته من تآمر، وصمم على الاستنجاد بالقوى الاسلامية خارج مصر مهما كان في هذا الاستنجاد من مخاطر عليه وعلى اسرته، ورأى أن أقرب القوى إليه هي في الشام وفيها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي. وكان الصليبيون زحفوا على عسقلان حتى وصلوا إلى بلبيس فاحتلوها وفتكوا بأهلها، ثم مشوا إلى القاهرة وحاصروها، فتقرر احراق مدينة الفسطاط المتصلة بالقاهرة خوفاً عليها من الصليبيين فأحرقت وظلت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً. ولعوامل عديدة فك الصليبيون الحصار عن القاهرة وعادوا من حيث أتوا. ولكن الخطر ما زال جاثماً فكرر العاضد الاستنجاد بنور الدين، وأرسل في كتب الاستنجاد شعور النساء، وقال له: «هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج».

ولم يكتف، بل بذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون قائد النجدة مقيماً عنده في عسكره، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين.

فقرر نور الدين تلبية الطلب فأرسل حملة مؤلفة من ثمانية آلاف فارس بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين.

صلاح الدين إذاً لم يدخل القاهرة ظافراً، بل لم يكن اصلاً قائداً للحملة التي دخلتها،

بل كان عمه قائدها، وهو من جملة حاشية عمه. وهكذا ينهار كل ما بناه الاستاذ محفوظ من اعتدال وتسامح لدى صلاح الدين، مرتكزاً على دخوله القاهرة ظافراً.

وكذلك هذه الحملة قد جاءت تلبية لاستنجاد العاضد بنور الدين، فلقيت ترحيباً وابتهاجاً لا مقاومة، فكيف اذاً يصح القول إنها دخلت ظافرة؟

وفعل العاضد أكثر من الترحيب، اناط الحكم بأسد الدين شيركوه إذ جعله وزيراً له، ولكنه لم يلبث في الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة.

وتطلع إلى الوزارة بضعة رجال من قواد الجيش الذي قدم مع أسد الدين، وكان التزاحم بينهم شديداً، ولكن العاضد آثر عليهم جميعاً صلاح الدين.

يقول صاحب **كتاب الروضتين**: فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه الوزارة ويوليه بعد عمه.

وصرح ابن شداد ـ وهو من المؤلفين الذين كتبوا للاشادة بصلاح الدين ـ صرح ابن شداد في كتاب **النوادر السلطانية** (٣٢ ـ ٣٣) أن صلاح الدين كان منهمكاً في الشهوات عاكفاً على الخمر. وذكر عبارته هكذا: «وشكر نعمة الله فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو»، أي أن شكره وتوبته كانا بعد توليه الوزارة.

وكذلك قال كمال الدين بن العديم في كتابه **زبدة الحلب في تاريخ حلب** الجزء الثاني: فأرسل العاضد إلى صلاح الدين وأحضره عنده وولاه الوزارة بعد عمه وخلع عليه ولقبه بالملك الناصر، فاستتبت أحواله وبذل المال وتاب عن شرب الخمر.

وكذلك ذكر أبو الفداء في تاريخه عكوف صلاح الدين على الخمر ثم توبته، كما ذكر ذلك الذهبي في كتابه **سير اعلام النبلاء**، الجزء ١ الصفحة ٢٧٩ وفي الصفحة ٢٨٢.

وهؤلاء الذين ذكرناهم، كلهم من أنصار صلاح الدين، وإذا كان هؤلاء قد اعترفوا بأن صلاح الدين كان سكيراً مدمناً الخمر قبل توليه الوزارة، فالله وحده يعلم هل تاب أو لا. لا سيما إذا عرفنا أنه لم يكن يومذاك ـ كما هو اليوم ـ مصحّات لمعالجة المدمنين وإعادتهم إلى الصواب. فالمدمن يومذاك لا علاج لادمانه.

وهكذا يظهر جلياً أن صلاح الدين لم يكن في تلك الفترة ممن يمكن أن يوصفوا بالاعتدال والتسامح لا سيما مع العاضد وخلافته، كان مجرد موظف عند العاضد، لا يملك من عوامل القوة ما يجعله يقبض هذه القوة أو يبسطها.

والعاضد هو الذي أمدّه بالقوة ووضع في يده أسبابها ومكن له في الحكم استعداداً

للدفاع في وجه الصليبيين اذا حاولوا اعادة الكرة على مصر، ثم للهجوم عليهم فيما احتلوه من بلاد[١٣].

ويبدو هذا واضحاً في المنشور الذي أرسله العاضد إلى صلاح الدين ويقول فيه فيما يقول: «وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات الليل قساطل الجهاد تجلي محاسنك وفي اعقاب نوازله تتلى مناقبك فشمر له عن ساق من القنا وخض فيه بحراً من الظبا واحلل في عقد كلمة اللّه وثيقات الحبا، وأسِل الوهاد بدم العدا وارفع برؤوسهم الربا حتى يأتي اللّه بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك» (الروضتين ج٢ الصفحة ٤٠٨).

كان هذا موقف العاضد، وهو وضع جميع القوى في تصرف صلاح الدين تهيّؤاً لليوم الموعود. ويعبر عن ذلك صاحب الروضتين بقوله: إن العاضد أحب صلاح الدين محبة عظيمة. ويقول إنه لما تولى صلاح الدين الوزارة مال إليه العاضد وحكّمه في ماله وبلاده.

ولكن كان العاضد في واد، ونور الدين محمود وشيركوه أسد الدين أولاً وبعده صلاح الدين في واد آخر.

ووطنية العاضد التي جعلته يستنجد بهم ويضع سلطته وبلاده في تصرفهم، لم تمنعهم من التآمر عليه وعلى دولته.

ووضعت الخطة في الشام بين نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين عالم بها وذلك بأن تكون النجدة لا لإنقاذ البلاد من الصليبيين بل للقضاء على العاضد ودولته، واستغلال الخطر الصليبي على مصر وانشغال العاضد به لتنفيذها.

(١٣) صحّ ما توقّعه العاضد، فقد وصل الصليبيون في ربيع الأول سنة خمس وستّين وخمسمائة. يقول المقريزي (ص ٢١٥، ج ١) «فخرجت العساكر من القاهرة وقد بلغت النفقة عليها زيادةً على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار فأقامت الحرب مدّة خمسة وخمسين يوماً وكانت صعبة شديدة...».

إلى أن رحل الصليبيون عن دمياط. يقول المقريزي، بعد أن ذكر ما ذكر من هذه الوقائع: «وكان صلاح الدين يقول ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف (مليون) دينار سوى ما أرسله إليّ من الثياب وغيرها».

ويقول المقريزي بعد ذلك (ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩) عن صلاح الدين:

«واستمرّ بالأمور ومنع العاضد من التصرف». ثم يقول: «وصلاح الدين يوالي الطلب منه كلّ يوم ليضعفه فأتى على المال والخيل والرقيق، وعزّ ذلك حتّى لم يَبْقَ عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه إلى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر البتة... ».

ثم يقول: «وعاد فكثر القول عن صلاح الدين وأصحابه في ذم العاضد».

وهكذا يكون العاضد ودولته، نُكبا لإخلاص العاضد واستنجاده بالمسلمين على الصليبيين.

وما ذكره الاستاذ محفوظ من رسائل نور الدين أنها كانت تتوالى على صلاح الدين يأمره بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية فلا يصدع صلاح الدين بالأمر، وما استنتجه من أسباب إحجام صلاح الدين، هما في غير واقعهما التاريخي، فصلاح الدين كان ينتظر الوقت الذي تسهل فيه مهمته، إذ لم تكن تتم بالسهولة التي يتصورها الاستاذ محفوظ.

أما ما ذكره من خيال الروائي أمين معلوف في هذا الموضوع فهو مما يصلح للروايات الخيالية والتمثيليات السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، ولا يصلح لكتابة التاريخ.

وأما حقيقة الأمر فهي ما ذكره صاحب الروضتين (ج ١ ق ٢ ص ٤٩٢) منقولا عن ابن الأثير، كما يلي: «كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد، كتب إليه الملك الفاضل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً».

وبهذا يسقط قول الاستاذ محفوظ بأن نور الدين كان يأمر صلاح الدين، فلا يصدع صلاح الدين بالأمر، وتتوالى رسائل نور الدين من الشام دون فائدة. كما يسقط استنتاجه أن ذلك كان دليلاً على اعتدال صلاح الدين، ويسقط معه قول الروائي الخيالي أمين معلوف.

فلا عدم صدع من صلاح الدين لأوامر نور الدين، ولا رسائل متوالية من نور الدين لصلاح الدين، وكل ما في المسألة أن رسالة واحدة وصلت من نور الدين إلى صلاح الدين، فتخوف صلاح الدين من العاقبة، ثم نفذ ما طلب إليه نور الدين تنفيذه، وكان هو نفسه أحرص على هذا التنفيذ من نور الدين.

ثم يكمل صاحب الروضتين قائلاً: «واتفق أن العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا ابتدىء به».

فأين هذا من استنتاجات الأستاذ محفوظ وتخيلات أمين معلوف؟

ثم يكمل صاحب الروضتين: «وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالو: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم».

وأين هذا أيضاً من قول الأستاذ محفوظ: «ومهما يكن فإننا نرى صلاح الدين يمنع أياً كان من إخبار الملك العاضد آخر الملوك الفاطميين وكان على فراش الموت قائلاً: إن عوفي فإنه سيعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه قبل الوفاة».

ولا نستطيع إلا أن نعلق على قطع خطبة الفاطميين بكلمة واحدة: إنهم لم يجدوا عربياً واحداً يقدم على ذلك وأقدم عليه الأعجمي.

أما عن اعتدال صلاح الدين وتسامحه كما أشاد بهما الأستاذ محفوظ، وغالى فيهما الروائي أمين معلوف، فإننا نقدم لهما نموذجاً عن هذا الاعتدال وعن هذا التسامح.

أقدم صلاح الدين بعد وفاة العاضد على عمل لم يسبقه إليه أحد، ولم تشهد له مثيلاً أشد العصور همجية وطغياناً وظلماً. احتجز جميع ذكور الأسرة الفاطمية في مكان، واحتجز جميع اناثها في مكان آخر لئلا يتناسلوا. وكان عدد أفراد الأسرة يومذاك يبلغ الألوف بين ذكران واناث[١٤].

ويقول العماد الاصفهاني سكرتير صلاح الدين ـ متباهياً بعد سنين من هذا الاحتجاز ـ: وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا. ثم أعمل النهب والسلب في دورهم وقصورهم.

وتبجح بهذه الأعمال شعراء صلاح الدين فقال العماد الاصفهاني في قصيدة:

عاد حريم الأعداء منتهك الحمى   وفيءُ الطغاة مقتسما

(١٤) يحدّد المقريزي في خططه عددهم بعشرة آلاف شريف وشريفة (ص ٤٩٧ ج ١) طبعة مكتبة الثقافة الدينية. وقال ابن عبد الظاهر إنّه استمر حتّى انقرضت الدولة الأيوبية وملك الأتراك إلى أن تسلطن الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فلمّا كان في سنة ٦٦٠ هـ أشهد على من بقي منهم بطردهم. ويقول المقريزي إنّهم كانوا قد أصبحوا كهولاً مرضى لا أمل منهم ولا أمل بشفائهم. ويصف المقريزي حالهم قائلاً: وفي يوم الإثنين سادس شهر رجب من سنة ٥٨٤ هـ ظهر رجلان من المحتقلين في القصر أحدهما من أقارب المستنصر والآخر من أقارب الحافظ وأكبرهما سنّاً كان معتقلاً بالإيوان حدث به مرض وأثخن فيه ففكّ حديده ونقل إلى القصر الغربي.

ويقول عن آخر: كان طفلاً في وقت الكائنة بأهله.

وهكذا نرى أنّهم كانوا في حال اعتقالهم مكبّلين بالحديد. وأنّه كان قد اعتقل حتّى الأطفال الذين شبّوا واكتهلوا في الاعتقال.

والأعداء الذين يتباهى هذا الشاعر بانتهاك حريمهم، هم الذين استنجدوا بصلاح الدين على الإفرنج فكانوا عند صلاح الدين وشعرائه الأعداء الذين يرتكب فيهم هذا الإجرام، ويقال فيهم هذا القول.

وقال القاضي الفاضل، كاتب صلاح الدين، من كتاب أرسله باسم صلاح الدين إلى بغداد:

«... والمذلة في شيع الضلال شائعة، ومزقوا كل ممزق ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً...».

هذا هو التسامح الذي وصف به الأستاذ محفوظ صلاح الدين حين قال في مفتتح كلامه: هذا القائد الذي بين أبرز صفاته التسامح.

وهذه هي الصفحة البيضاء التي لم ير فيها الاستاذ محفوظ إلا نقطة واحدة سوداء: هي قتل السهروردي. نكتفي بها ولا نسترسل في مناقشة الأستاذ محفوظ، إذ لو فعلنا لطال نفس القول وطال... وطال.

وأما ما أورده الأستاذ محفوظ مما أثنى به الأجانب على صلاح الدين، فذلك من بعض حقه عليهم مقابلة لما أولاهم من خير عميم ما أدى إلى استردادهم القدس وفلسطين كلها ومناطق أخرى خارج فلسطين، وهو ما كنا فصلناه في النهار في وقت سابق، فلا نعيده.

الرد على الدكتور فهمي سعد[١٥]

أردنا في بادىء الأمر أن نترك المحتفلين بتاريخ صلاح الدين الأيوبي ـ المحتفلين بذلك دون أية مناسبة ـ أردنا أن نتركهم وشأنهم، ولا نعرض بشيء مما أفاضوا فيه انشغالاً منا بالحاضر المحزن عن الماضي المشجي.

أردنا أن نتركهم وشأنهم، ولكنهم لم يتركونا وشأننا، فصب أحدهم، الدكتور فهمي سعد، جام غضبه علينا صاخباً شاتماً متهماً، ملقياً كلاماً، مجرد كلام فارغ من أي محتوى تاريخي علمي وثائقي، حاسباً أن التهويل بالتعابير المدوية يمكن أن يطمس الحقائق ويلغي الوقائع.

يقول الدكتور فهمي سعيد في تقديمه للمحاضرين عن صلاح الدين في المركز الثقافي

(١٥) كان هذا المقال رداً على ما نشر في بعض الصحف، وقد أبقيناه كما هو بعد أن مهّدنا له بالحديث عن السلاجقة والخليفة الناصر ليتم الترابط في البحث.

للبحوث والتوثيق في صيدا ـ يقول فيما يقول وهو بعض ما نشر في نهار يوم السبت ١٠/٣/٩٣:

«وأصحاب الرأي الذي يميل إلى الغض من انجازاته (صلاح الدين) جهدوا في إضفاء الطابع العلمي على ملاحظاتهم، لكن الباحث والمؤرخ المحايد سرعان ما يكتشف أغراضا ذاتية بعيدة المرامي».

بهذا القول العنيف واجه الدكتور سعد من لا يرون رأيه، وبهذه الصفة النكراء عرض لهم. ولما كنا نحن لا نميل إلى الغض من منجزات صلاح الدين فقط، ونرى أن وصفنا بهذا الوصف هو قليل في حقنا وخفيف في أمرنا، لأن حالنا ليست حال ميل، بل هي حال توغل واقتحام، وأقوالنا ليست غضاً، بل هي تجريح واتهام، وما نكتبه ليس ملاحظات بل هو ضربات.

لذلك نرى أننا لسنا مشمولين بمن عناهم الدكتور سعد فقط، بل نحن فيمن يمكن أن ينالهم من حممه ما هو أغلظ وأعتى، ويطولهم من لسانه ما هو أفظّ واقسى.

ومن هنا كان علينا أن نواجه الدكتور سعد لا باتهامه بـ «الاغراض الذاتية البعيدة المرامي» فحسب، بل بالحقائق الناصعة والبراهين القاطعة والحجج الرادعة فنقول:

إذا كان للدكتور فهمي سعد أن يجبه أحداً، وإذا كان له أن يعنف بالقول فلسنا نحن الذين عليه أن يجبيهم ويعنف عليهم، بل هم المؤرخون الاقدمون الذين لم تطاوعهم اقلامهم للسكوت على ما جرى. واننا لنقدم للدكتور سعد نموذجاً منهم هو عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة صاحب **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** النورية والصلاحية.

هذا الكتاب الذي ألفه صاحبه للاشادة بنور الدين وصلاح الدين، وملأ صفحاته بما ملأها من المفاخر لصلاح الدين، والمطاعن المزعومة لاعداء صلاح الدين...

هذا الكتاب أبى الله وأبى التاريخ الصحيح إلا أن ينطق صاحبه بما كان يود أن لا ينطق به، فاذا به يسجل ما يمحو كل ما حاول أن يعده حسنات، يسجل ذلك دون أن يدرك خطورة ما سجل، لأنه في غمرة انبهاره بما يكتب عميت بصيرته عن ادراك هول ما سجل.

يقول أبو شامة في الصفحة ٥٨١ وما يليها من الجزء الأول ـ القسم الثاني من كتابه المطبوع في القاهرة سنة ١٩٦٢ ما نصه:

«وكان نور الدين قد شرع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب

العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر. وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين، فانه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلّا الجد في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى اخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالسير إليه، فأتاه أمر اللّه الذي لا يُردّ».

ومثل هذا القول قال ابن الأثير.

على أن ابن العديم وهو ممن ألّفوا في تمجيد صلاح الدين يتوسع في ذكر ذلك فيقول في الجزء الثاني من كتابه.

«سار الملك الناصر (صلاح الدين) من مصر غازياً فنازل حصن الشوبك وحصره، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فلما سمع نور الدين بذلك سار من دمشق ليدخل بلاد الإفرنج من الجهة الاخرى، فقيل للملك الناصر (صلاح الدين): إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب ملك بلاد الافرنج فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام، وإن جاء وأنت ها هنا فلا بدّ من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك بما يشاء. والمصلحة الرجوع إلى مصر، فرحل عن الشوبك إلى مصر».

وكرر ابن العديم الرواية في مقام آخر قائلاً:

«واتفق نور الدين وصلاح الدين على أن يصل كل منهما من جهة وتواعدا على يوم معلوم أن يتفقا على قتال الفرنج، وأيهما سبق أقام للآخر منتظراً إلى أن يقدم عليه، فسبق صلاح الدين ووصل الكرك فحصره. وسار نور الدين فوصل الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان، فخاف صلاح الدين واتفق رأيه ورأي أهله على العودة إلى مصر».

ويمكن تلخيص الموقف بما يلي:

كانت خطة نور الدين فتح جبهتين على الصليبيين: جبهة مصر بقيادة صلاح الدين، وجبهة الشام بقيادة نور الدين، وحصر الصليبيين بين الجبهتين، وبذلك يتم القضاء عليهم.

ويبدو جلياً أن صلاح الدين لم يتوقع النصر السريع على الصليبيين لذلك زحف متجهاً إلى الكرك، فلما بدت طلائع النصر نكص على عقبيه، فاضطر نور الدين للرجوع.

أما لماذا فعل صلاح الدين ذلك؟ فلأنه يريد أن يستقل بحكم مصر، فإذا زال الصليبيون توحدت مصر والشام وصار هو تابعاً لنور الدين.

لذلك آثر أن «يحتمي بالصليبيين». نعم يحتمي بهم ـ كما نص على ذلك أبو شامة وابن الأثير وغيرهما ـ آثر صلاح الدين أن يحتمي بالصليبيين، وفضل بقاءهم محتلين للبلاد،

فاصلين بين مصر والشام، فضل ذلك على هزيمتهم وتوحيد البلدين.

ولم يقدم على حربهم إلّا بعد موت نور الدين وضمان بقائه مستقلاً بالحكم.

وانتصر في حطين وتحررت القدس. ولكن هل كانت معركة حطين حاسمة فانتهت بجلاء الصليبيين عن بلاد الشام وعودهم من حيث أتوا؟

أبداً لم تكن كذلك، فالصليبيون ظلوا محتلين للبلاد متحكمين فيها.

في هذا الوقت كان الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) قد تمكن من التخلص من تسلط السلاجقة على الخلافة وتحكمهم في امورها، واستقل في رقعة كبيرة من البلاد العربية والإسلامية تشمل العراق وقسماً من إيران وتركيا وألّف فيها جيشاً قوياً، فاتجهت أنظاره للمعاونة في إنقاذ البلاد الشامية من الاحتلال الصليبي بجيشه القوي. وكان لا بد له من استئذان صلاح الدين في ذلك.

ولكن صلاح الدين الذي احتمى بالصليبيين من نور الدين راح يحتمي بهم الآن من الخليفة (الناصر) فرد على استئذان الخليفة له بالتحالف معه على الصليبيين ـ رد على ذلك برفض طلب الخليفة.

ونحن لا نريد أن نستشهد على أقوالنا إلا بشهادات عملاء صلاح الدين انفسهم الذين أبى اللّه وأبى التاريخ الصحيح إلّا أن يُنطقهم بالحق رغماً عنهم.

ذكر ما قلناه عن طلب الخليفة الناصر التحالف مع صلاح الدين على الافرنج، ورفض صلاح الدين ذلك ـ ذكر هذه الواقعة مؤرخ من أقرب الناس إلى صلاح الدين حتى كان بمثابة سكرتير شخصي له، هو عماد الدين الأصفهاني صاحب كتاب **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ذكر ذلك في الصفحة ١٧٦ من طبعة مطبعة الاتحاد بالقاهرة.

تعلّل صلاح الدين في رفضه بأن قواد جيشه غير موافقين على ذلك لأنهم ملوا الحرب.

وهنا لا بد لي من تبيان حقيقة جيش الخليفة العباسي وأنه كان يمكنه إلحاق الهزيمة بالصليبيين وإخراجهم من البلاد، بدل أن يظلوا محتلين لها مئة سنة بعد ذلك، مع عودة القدس اليهم بسبب تصرفات صلاح الدين نفسه كما سنرى.

بدىء ببنيان هذا الجيش في عهد الخليفة المسترشد باللّه (٥١٢ ـ ٥٢٩هـ) حتى بلغ تعداد المقيم منه في بغداد في عهد الناصر ١٢٠ ألفاً. خاض هذا الجيش معارك كثيرة خلال ٤٧ سنة هي مدة خلافة الناصر اسقط فيها دولاً وانشأ دولاً واحتل مدنا وأغاث إمارات وممالك وولايات، ما ليس هنا مكان تفصيله.

وصف الشاعر ابن البنية هذا الجيش بقوله:

ملك اذا انتظمت صفوف جيوشه ايقنت أن البر بحر مزبد

انفت صوارمه الجفون فأصبحت بالنصر في قمم الخوارج تغمد

وقد تحدث عن هذا الجيش مؤرخ شاهده عياناً هو النسابة محمد الحسني في كتابه **التحفة في نظم أصول الأنساب** «الورقة ٢٤٦» ـ تحدث عن ذلك مقايساً بينه وبين جيش المستعصم حفيد الناصر، قال:

«وأفضى الأمر إلى أن أدركت في هذه المدة القريبة من ذرية هذا الخليفة ـ يريد (الناصر) ـ من نزل عدوه (هولاكو) بجيوشه بالقرب من بغداد وهو مستغرق في لهوه ولعبه ساعة مع المغاني والمغنيات، وساعة بين الحمام والطبيلات ـ لأنهم (أهل بغداد) إذا أرادوا تطيير الحمام ضربوا الطبيلات، فتفز وتطير صفة بعد صفة ـ وضرب رقاب جماعة لما تفوهوا بأن التتار نزلوا بعقوبة بلدة قريبة من بغداد تكون على ستة أميال (كذا) أو سبعة أميال، ورأيت بغداد في أيام جد أبي هذا المشار إليه الإمام الناصر يركب عسكره في أيام المواسم في مائة وعشرين ألف فارس أجناد ما بين أتراك وأكراد ومتولدة، خارجاً عن العرب والتركمان والمتعجمين. هذا عسكر العراق لا غير الذي سلطانه بها... ونزل عدو هذا الذي أخذت منه (المستعصم) وما فيها إلّا دون سبعة آلاف فارس، وجلهم ليس بنافع... وكنتُ ببغداد في ربيع الأول من سنة ٦١٣هـ وهي ثالث رحلة رحلت إليها وإذا بالإمام الناصر المقدم ذكره استدعى الكاتب بين الظهر والعصر، واستدعى بحمام دمشق، وبطق مائة بطاقة على أجنحة مائة حمامة ومضمون البطائق بأسرها: ليعلم زعيم مصر والشام والبلاد الفراتية وديار بكر وأرمنية أبو بكر أيوب أن الخبر الذي ألقاه إليك الابرنس الذي بطرابلس الشام لا صحة له، والأمر بالضد، وإن جيوش النصارى يردُّون ساحل الشام في ألف مقاتل... فأدركت في عمري مثل هذا الخليفة في يقظته وشهامته، وأدركت من ذريته المستعصم وتغفله وتخلفه ما إذا نزل التتر على بعقوبة على سبعة أميال فما حولها من بغداد وهو مقبل على لذاته ولهوه. ومن تفوه بمجيء التتار عوقب. وربما ذكر أنه قتل بعض من تفوه بذلك لنفوذ المقادير، ولأن الكتاب قد بلغ أجله...».

رفض صلاح الدين طلب الخليفة الناصر إنجاده بجيش الخلافة القوي، الكفيل بهزيمة الصليبيين وإخراجهم من بلاد الشام. رفض ذلك لأن انتصار هذا الجيش سيوحد البلاد العربية بانضمام ما يسيطر عليه صلاح الدين منها إلى ما تسيطر عليه الخلافة في العراق وأطراف البلاد الاخرى.

كان ما يسيطر عليه صلاح الدين يشمل بلاد الشام (سوريا وفلسطين ولبنان والاردن) امتداداً إلى جبال طورس، ويشمل مصر واليمن. وبانضمام هذه الأقطار إلى حكومة بغداد تقوم الدولة العربية الكبرى برعاية الخلافة الإسلامية المرتبط بها العالم الإسلامي كله ارتباطاً معنوياً حتى في حالة ضعفها. أما حين تكون بهذه القوة فإن ارتباط هذا العالم بها يكون الارتباط المتماسك المتضامن بالطبع.

رفض صلاح الدين ذلك لأن قيام هذا الكيان المترامي الأطراف يجعل منه والياً من ولاته وتابعاً من تابعيه، وهو يريد الانفراد بالسلطة، ولو في رقعة محدودة.

وخوفا من أن يصر الخليفة على إرسال جيشه بادر صلاح الدين إلى التحالف مع الصليبيين وتوحيد جيوشه مع جيوشهم لصدّ جيش الخلافة اذا تقدم إلى بلاد الشام. ورأى الصليبيون حاجة صلاح الدين اليهم فأخذوا يشتطون في شروطهم لعقد هذا التحالف.

وكان أهم ما في شروطهم إعادة فلسطين إليهم واسترجاعهم لكل ما اخذه منهم صلاح الدين فيها من مدن، فخضع صلاح الدين لشروطهم وسلم لهم بكل ما طلبوا، مستثنياً القدس لأن احتفاظه بها سيديم النشوة التي عرّت المسلمين باسترجاعها فيغطي ذلك على استسلامه للصليبيين. فلا يدرك المسلمون في فرحتهم حقيقة ما يجري حولهم.

قلنا فيما تقدم إننا لا نقدم شهوداً على صلاح الدين إلّا من أهل صلاح الدين، ممن لم يستطيعوا إلّا أن يُدوّنوا بعض الحقائق، على أن تدوين هذا البعض كشف الكل.

فهذا ابن شداد صاحب كتاب **الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة** الذي هو ربيب صلاح الدين وأحد رجال بلاطه وصاحب المنصب القضائي في حكومته يعدد لنا المدن التي أعادها صلاح الدين للصليبيين عندما حالفهم على خليفة المسلمين. وكل ما استطاع ابن شداد أن يخدم به صلاح الدين هو أنه كان يسمي ذلك التحالف مهادنة.

يقول ابن شداد وهو يتحدث عن مدينة حيفا (الصفحة ١٧٧ ـ ١٧٨):

«لم تزل في ايدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم، وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولم تزل في أيديهم».

وقال وهو يتحدث عن مدينة يافا في الصفحة ٢٥٦: «ولم تزل في أيديهم (الفرنج) إلى أن فتحها عنوة الملك الناصر صلاح الدين سنة ثمان وثمانين وخمسمائة على يد أخيه العادل وخربها وبقيت خراباً إلى أن تقررت الهدنة بين الملك الناصر (صلاح الدين) وبين الفرنج وشرطوا عليه ابقاءها في ايديهم».

وهكذا يقول ابن شداد عن غير حيفا ويافا من المدن الفلسطينية.

على أن من أخطر ما ذكره ابن شداد هو أن الصليبيين كانوا يُملون شروطهم، وصلاح الدين يخضع لتلك الشروط، وهذا ما ذكره صراحة في حديثه عن يافا.

كان الصليبيون يُملون الشروط على صلاح الدين لعلمهم بحاجته إليهم في الإعداد معهم لحرب الخليفة اذا عزم على التوجه إلى فلسطين، وكان صلاح الدين يخضع لتلك الشروط ليتسنّى له الاستناد إلى الصليبيين في حربه المتوقعة على أن رفض صلاح الدين قبول نجدة الناصر، وما بلغ الناصر من عزم صلاح الدين على قتال جيوشه في تقدمها إلى فلسطين حال بين الناصر وبين تنفيذ ما عزم عليه، فلم يكن ليقدم على الاشتباك في حرب أهلية بين المسلمين.

وصلاح الدين الذي تعلّل في رفض طلب الناصر انجاده لإنقاذ بلاد الشام من الصليبيين، تعلل بأن قواد جيشه ملوا الحرب فهم لا يريدون حرباً جديدة مع الصليبيين. إن صلاح الدين هذا بعد أن سلم للصليبيين بكلّ ما طلبوا التسليم به واطمأن إلى تحالفه معهم، عاد يفكر في الحروب لا مع الصليبيين بل مع المسلمين.

أعاد فلسطين إلى الصليبيين ورفض إنجاد الجيش العراقي له، فعاد يفتش عن مكان آخر يقاتل فيه، لأن انقاذ الوطن الإسلامي من الصليبيين يحد من نفوذه ويقلل من هيمنته. أما القتال في مناطق أخرى فانه يزيد من نفوذه ويكثر من هيمنته، فاذا ضمن ذلك فليبق الصليبيون في بلاد الشام.

ولو أن المناطق الأخرى التي عزم على القتال فيها هي مناطق أجنبية يريد إدخالها ضمن المناطق الإسلامية، لهان الأمر. ولكن صلاح الدين الذي سالم الصليبيين وتحالف معهم وأعاد لهم ما كان اخذه منهم، صلاح الدين هذا عاد يخطط لغزو البلاد الإسلامية وسفك دماء المسلمين تحقيقاً لمطامحه الشخصية. ترك الصليبيين في أمان واتجه لترويع المسلمين الآمنين، ولكن اللّه الرحمن الرحيم أنقذهم منه، ونجاهم من السيوف التي أعدّها للبحهم توسيعاً لملكه ومدا لسلطانه.

قال ابن الأثير وهو يتحدث عن وفاة صلاح الدين:

«وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل، وقال لقد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأي جهة نقصد، فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده بأنه إذا اخذها أن يسلمها إليه. وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم (الاناضول) التي بيد أولاد قليج أرسلان، وهي بلاد إسلامية».

يقول صلاح الدين: تفرغنا من الفرنج، وليته كان تفرغ منهم باستئصالهم مستعيناً عليهم بجيش الخليفة.

ولكن تفرغ منهم بالتحالف معهم على ذلك الجيش.

تفرغ منهم بذلك وراح يحاول الانشغال عنهم بالمسلمين، ونسي ما قاله من أن قواد جيشه ملّوا الحرب.

ولكنه توفي قبل تنفيذ خططه في غزو البلاد الإسلامية.

إعتبر البلاد التي استولى عليها ملكا شخصياً له يتملكها كما يتملك المزارع والقرى، لذلك قسمها بين اخوته وأولاده كما يقسم أي مالك املاكه بين ورثته، فأعطى مصر لولده العزيز عماد الدين أبي الفتح، ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي وهو أكبر أولاده، وحلب وما إليها لولده الظاهر غازي غياث الدين، والكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلداناً كثيرة قاطع الفرات لأخيه العادل، وحماه ومعاملة أخرى معها لابن أخيه الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير نجم الدين أخي ابيه نجم الدين أيوب، واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه لاخيه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب، وبعلبك واعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر. واستقل كل واحد منهم بما في يده.

وهكذا تمزقت البلاد وانفصمت وحدتها، وعادت مزقاً يصارع بعضها بعضاً، وقام الورثة يتنازعون فيما بينهم ويستنصر بعضهم بالصليبيين على البعض الآخر. ففي سنة ٦٣٨هـ سلّم الصالح اسماعيل صاحب دمشق للصليبيين صيدا، (بلد الدكتور فهمي سعد)، سلم صيدا وهونين وتبنين والشقيف للصليبيين فيما سلمهم من البلاد، سلمهم ذلك كله ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر.

وفي سنة ٦٢٥هـ (شباط سنة ١٢٢٩م) سلّم الكامل والاشرف ولدا العادل أخي صلاح الدين ـ سلما القدس وما حولها للملك الصليبي فريدريك الثاني وسلماه معها الناصرة وبيت لحم وطريقاً يصل القدس وعكا.

ويصف ابن الأثير وقع هذه الرزية على العالم الإسلامي بقوله: «واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه».

هذا ما أدى إليه تمزيق صلاح الدين للبلاد وتوريثها لأسرته قطعاً قطعاً. وإذا كان المسلمون يومذاك استعظموا هذا الأمر ووجدوا ما وجدوا فيه من الوهن والتألم، فان

الدكتور فهمي سعد وجد فيه اليوم مجالاً للتفاخر والتمجيد.

يتهمنا الدكتور فهمي سعد بأن لنا اغراضاً ذاتية بعيدة المرمى في غضنا من صلاح الدين.

أما أنّ لنا في ذلك اغراضاً بعيدة المرمى فصحيح، ذلك أننا نريد رفع الزيف عن تاريخنا، وهو غرض بعيد المرمى حقاً.

وأما الذاتية، فاننا نقول للدكتور فهمي سعد ولأمثاله: ليت اغراضكم كانت ذاتية فقط، إذاً لهان الأمر... وأما نعتنا بأننا جهدنا في اضفاء الطابع العلمي على ملاحظاتنا، فان ذلك مما يشرفنا ونعترف به، وهو سبيلنا دائماً فيما ندون.

أما هو فليس باحثاً ولا مؤرخاً ولا محايداً ـ كما ادّعى لنفسه ـ بل كان شتاماً للباحثين المؤرخين المحايدين.

الرد على (الشيخ) طه الولي

نشر بعضهم في إحدى الجرائد افتراء على الشيعة فرددت عليه بالكلمة التالية:

إذا كان الشيخ طه الولي لا يرى مانعاً ـ وحال العرب والمسلمين اليوم هي حال الذل والهوان، أمام جبروت الصهاينة ـ إذا كان لا يرى مانعاً من أن يمعن ويسترسل في البغضاء والافتراء فحريّ بنا نحن المفترى على تاريخهم، أن لا نرى مانعاً من أن نرد الحجر من حيث جاء، ولكن لا ببغضاء ولا بافتراء، بل بأقصى الحب لكل عربي ولكل مسلم، وبكل الحقيقة... الحقيقة الناصعة.

يحرص الشيخ طه دائماً على أن يقرن توقيعه في الصحف بلقب الشيخ، كما فعل في مقاله المنشور في إحدى الصحف اليومية، يحرص على ذلك برغم أنه تبرأ من هذا اللقب في لباسه وفي مسلكه وفي حياته.

يقول (الشيخ) طه الولي فيما يقول: «... فعندما انتهت المعارك في الساحل اللبناني لصالح الصليبيين، كان التراب اللبناني في غالبه لأصحابه الشرعيين المسلمين وتحت وطأة هذا الواقع الجديد اضطر هؤلاء للنزوح عن أراضيهم التي حل محلهم فيها المستوطنون الفرنج» ثم يقول:

«وجدير بالذكر أن النازحين كانوا من أهل السنة والجماعة. وأما الذين كانوا من الشيعة مثل الإمامية والدروز والإسماعيلية فإنهم بقوا في مواطنهم حيث صانعوا الصليبيين».

وما دام (الشيخ) طه الولي يستشهد في كلامه بعد ذلك بابن جبير فإننا لن نرد عليه

نحن إلا بأقوال ابن جبير نفسه. يقول ابن جبير في كتاب رحلته (طبعة صادر سنة ١٩٦٨) في الصفحة ٢٥٢ عن سكان صور (الشيعة) عند محاصرة الصليبيين لها:

«إنها أخذت منهم بعد محاصرة طويلة وبعد استيلاء المسغبة عليهم. ذكر لنا أنهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها، وأنهم حملتهم الأنفة على أن همّوا بركوب خطة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهليهم وأبناءهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى (الافرنج) لهم ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم وأجمعوا على دفع البلد والخروج بسلام، فكان ذلك وتفرقوا في بلاد المسلمين» فما قول (الشيخ) طه الولي في هذا القول؟ وما رأيه في هؤلاء الشيعة الذين يزعم أنهم بقوا في مواطنهم حيث صانعوا الصليبيين؟

ثم ما قوله في سكان مدينته طرابلس الشيعية يومذاك التي دافع عنها الشيعة الأبطال عشر سنوات، ولما ضعفت قواهم وتكاثر عليهم الصليبيون رفضوا الاستسلام وظلوا يقاتلون دفاعاً عن شرف طرابلس، بلدة (الشيخ) طه، حتى تشتّتوا بين شهيد وأسير وشريد في آفاق الأرض. فكان جزاء تاريخهم البطولي من (الشيخ) الطرابلسي الافتراء عليهم والزعم بأنهم بقوا في موطنهم حيث صانعوا الصليبيين!

يقول (الشيخ) طه فيما يقول:

«ومن أجل تعميق الهوة النفسية بين الشيعة داخل الأرض المحتلة وبين السنة خارجها، فإن الصليبيين كانوا يبذلون الإحسان في معاملتهم للشيعة الذين ساكنوهم ويمعنون بالإساءة إلى السنة الذين ناوؤوهم».

ثم يستشهد بأقوال ابن جبير عن معاملة الصليبيين لفلاحي قرى جبل عامل وينقل قوله الآتي:

«وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون».

ويحرص (الشيخ) طه هنا أن يضع إلى جانب كلمة مسلمون، كلمة شيعة ويجعلها بين قوسين (شيعة).

ثم يكمل نقل كلام ابن جبير:

«وهم مع الافرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم، وجميع

أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الافرنج من إطلاق بساحل الشام على هذا السبيل».

وهنا يعبث (الشيخ) طه بكلام ابن جبير فيحذف منه ويزيد عليه ليتمم تزوير الحقائق.

أما نص عبارة ابن جبير فإنه بعد أن وصف كيفية تعامل الافرنج من سكان القرى التي مر بها قال: «وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع» فحذف الشيخ طه ما بعد كلمة (الشام) كله، وتجاوز قول ابن جبير وتحول من شيخ عريق في العصبية إلى جغرافي ولكن غير عريق في الجغرافيا، أو الأحرى غير عريق في التمويه الجغرافي.

إنه لم يترك ابن جبير يسترسل في الحديث، بل أضاف إلى كلامه كلاماً من عنده جعله بين عارضتين مفسرا به كلمة «ساحل الشام»، فقال عن هذا الساحل إنه (لبنان اليوم)!

قال ذلك ليتهم النصارى والشيعة بالتعاون مع الصليبيين!

ونحن نقول للشيخ الطرابلسي: من تظن أنك تخاطب بهذا القول؟

أتظن أنك تخاطب جهلاء وأغبياء.

إن الذين تخاطبهم درسوا التاريخ ودرسوا الجغرافيا وهم على قدر كاف من الذكاء. وهم يعرفون أن بلاد الشام في عصر ابن جبير وما قبل ابن جبير وما بعد عصر ابن جبير ليست هي (لبنان اليوم) بل هي البلاد الممتدة من الفرات إلى مصر، وتحدها من الشرق البادية من أيلة إلى الفرات، ومن الغرب البحر المتوسط. أما غربها البري فيمتد من طرسوس غرب أذنة إلى رفح بين مصر والشام. ويحدها من الشمال حدٌّ يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم ثم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصورة إلى بهنس إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس. أما الحد الجنوبي فيمتد من رفح إلى تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة إلى البلقاء فأين هذا المدى الواسع من تلك الرقعة الضيقة التي أردت أن تحصر بها بلاد الشام؟

ومرت بنا في حياتنا شتى الأساليب التي استعملها من استعملها لقلب الحقائق وقلب الحسنات إلى سيئات، ومع ذلك فإننا لم نجد أحدا وصلت به الجرأة لأن يستغبي الناس هذا الاستغباء ويستجهلهم هذا الاستجهال، فيحاول تحويل الجغرافيا من حال إلى حال، فيخترع حدوداً لا أصل لها، ويطمس أقطاراً ملأ ذكرها صحف التاريخ! ولكي نوضح حقيقة بلاد الشام ننقل هنا أقوالاً لابن شداد ذكرها في كتابه **الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة**.

قال ابن شداد (ص ١٧٧ ـ ١٧٨) وهو يتحدث عن المدن التي أعادها صلاح الدين الأيوبي للصليبيين بعد أن عقد الصلح معهم. قال عن حيفا:

«لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم ثم لم تزل في أيديهم».

وكذلك قال عن يافا وغيرها من المدن التي سلمها صلاح الدين إلى الصليبيين.

وما دام ابن شداد يتحدث عن (الشام والجزيرة) فقط، فلا نظن أن (الشيخ) طه يجرؤ هنا فيزعم أن حيفا ويافا واللد والرملة هي من بلاد الجزيرة لا من بلاد الشام.

ومن الجرأة على الحق أن يبدل (الشيخ) الولي ويغير في كلمات ابن جبير.

فابن جبير يقول في عبارته المتقدمة طبق النسخة التي بأيدينا من كتاب رحلته: «وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل».

أما (الشيخ) فيذكرها هكذا: «وكل ما بأيدي الافرنج من اطلاق».

وسبب التغيير واضح وهو تابع من النية التي تريد تضييق رقعة بلاد الشام بعدم ذكر كلمة (المدن).

إن بلاد الشام يا (شيخ) طه هي التي ذكرنا لك حدودها، وليست هي لبنان اليوم. وسواحلها التي عناها ابن جبير تمتد مما هو أبعد من غزة حتى بيروت. وأرياف مدن سواحلها كلها كانت على ذلك السبيل الذي شرحه ابن جبير. وسكان هذه الارياف ليسوا في معظمهم لا من النصارى ولا من الشيعة.

ولو كُنْتُ ممن يتوخى الحقائق لذكرت ما كتبه أسامة بن منقذ عن سكان سواحل فلسطين نفسها ما لا يخرج في مضمونه عما ذكره ابن جبير.

أما الحقيقة في هذا فلا صلة لها بشيء مما ذكره الشيخ الطرابلسي:

عندما دعا البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمونت إلى الحرب الصليبية كانت جماهير الملبين لدعوته من الفلاحين أقنان الأرض ومستعبدي الاقطاع فيها، وكانوا يشكلون القطاع الأهم من سكان الريف الأوروبي. وكان عدد عبيد الأرض كبيراً في جنوب فرنسا وأسبانيا. وفي بقية مناطق فرنسا وفي الألزاس واللورين كانت الأغلبية من الفلاحين أقناناً دون أن تكون لهم حقوق تجاه سادتهم الاقطاعيين. وفي ظل تلك الظروف نجد أن الكثيرين ممن ولدوا في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي وقعوا في أغلال القنانة.

كان كل أمر من أمور الحياة اليومية للأقنان مربوطاً إلى الأرض لا يمكنه الرحيل عنها،

كما لا يستطيع أن يستبدل سادته إلّا بارتكاب جريمة أو المغامرة بالهروب أو شراء حريته بالمال، إذا قبل سيده بيعها.

وهكذا كان الفلاحون فريسة الخوف الدائم والاضطراب المستمر والافتقار للأمن. كانت أيامهم تمضي كئيبة في انتظار مستقبل لا يجيء[١٦].

هذا المستقبل الذي يئسوا من مجيئه طيلة حياتهم الماضية فوجئوا به يتراءى لهم براقا في دعوة البابا أوربان الثاني للرحيل إلى الشرق الذي طالما سمعوا أنه يفيض لبنا وعسلا، لذلك كانت تلبيتهم لدعوة البابا تلبية جماهيرية عارمة لم يكن البابا يحسب لها حساباً، بل إنها لم ترضه لتوقعه ما يخشاه منها.

ولما وصلت الحملات الصليبية إلى بلاد الشام كان لا بد لها من القوت، وكان القوت محصوراً باستنبات الأرض، ولم يكن أكفياءَ لهذا الاستنبات إلّا الفلاحون القادمون مع الحملة. ولكن الفلاحين الذين فروا من الأرض واستنباتها في بلادهم لم يكونوا ليرجعوا إلى الجحيم الذي فروا منه، وعاودتهم ذكريات حياة القنانة والاستعباد فنفروا من الرجوع إلى الأرض.

ووجد قادتهم الحل في أن يُبقوا الفلاحين المسلمين في أرضهم وأن يُقاسموهم نتاجها على الصورة التي ذكرها ابن جبير.

وبرغم ما في هذا التقاسم من جور على الفلاحين، فإنهم رأوه خيراً من التشرد والنزوح فاستقروا في أرضهم كما رآهم ابن جبير وتحدث عنهم.

كان هذا حال جميع أرياف المدن الساحلية التي احتلها الصليبيون في بلاد الشام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، لا حال الأرياف الشيعية وحدها وذلك بنص عبارة ابن جبير التي لا تحتمل تأويلاً ولا استغباء ولا استجهالاً.

وكما قلت فيما تقدم فإن أسامة بن منقذ نص هو الآخر على أن هذا الحال كان حال أرياف عكا وما إليها من ربوع فلسطين.

ويختم (الشيخ) طه الولي كلامه بقوله: «وزيادة على ما ذكره ابن جبير نقول إنه لم يجر في عهد الصليبيين استبعاد المسلمين ـ الشيعة ـ من شغل الوظائف الحكومية الصغيرة، إذ كانوا يستخدمون مع النصارى الوطنيين، موظفين في الديوان (الجمرك) وفي جباية الضرائب».

(١٦) ماهية الحروب الصليبية، ص ٦٦.

ونقول له: إذا كان النصارى الوطنيون، والمسلمون الشيعة لم يستبعدوا من شغل الوظائف الحكومية الصغيرة، ـ وهذا غير صحيح ـ فإن المسلمين غير الشيعة لم يستبعدهم الصليبيون من شغل الوظائف الحكومية الكبيرة.

فابن جبير نفسه يتم أقواله السابقة في كتاب رحلته قائلاً:

«فنزلنا يوم الاثنين المذكور بضيعة من ضياع عكا، على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين».

وإننا لنهنيء (الشيخ) طه الولي بهذه الوظيفة الكبيرة التي اختار لها الصليبيون مسلماً من غير الشيعة، ونسأله رأيه في هؤلاء المسلمين غير الشيعة الذين رآهم ابن جبير في قرى عكا باقين في موطنهم مصانعين للصليبيين، على تعبير (الشيخ) طه.

نحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل مع (الشيخ) الذي لا يشغله ما يحل اليوم بالعرب والمسلمين من بلاء وهوان، بل يشغله الافتراء على من هم أخلص الناس عروبة واسلاماً.

نعم، نحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل معه، ولكننا نذكره مجرد تذكير بمن سلموا القدس إلى الصليبيين مرتين، ومن سلموا إليهم ما يعرف اليوم في لبنان بمنطقة الجنوب سلموا ذلك كله إلى الصليبيين ليعينهم الصليبيون على أقربائهم.

ونقول له: إن هؤلاء لم يكونوا من المسلمين الشيعة بل كانوا من المسلمين غير الشيعة. ونذكره كذلك بمن قاتلوا المسلمين مع المغول في معركة عين جالوت الحاسمة ولم يكونوا من المسلمين الشيعة، بل من المسلمين غير الشيعة. متمثلين في الختام ببيت لأحد الشعراء القدماء:

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

وبيتين لشاعر آخر:

ولولا أن يقال هجا نميراً ... ولم نسمع لشاعرهم جوابا

رغبنا عن هجاء بني كليب ... .

الردّ على ردّ هاشم الأيوبي

وقد رد عليّ راد فرددت عليه فيما يلي:

الواقع أني كنت رفيقاً بصلاح الدين الأيوبي، وتعمدت أن لا أصدم المخدَّرين صدمات قوية فاجعة، لأترك لهم منفذاً ولو كسمّ الخياط يتعللون به في مرور ٨٠٠ سنة على معركة حطين.

يقول هاشم الأيوبي: «فهذه السنوات القصيرة بين حطين ووفاة صلاح الدين كانت جهاداً متواصلاً أكملها من جاؤوا بعده حتى تسنى لهم طرد الصليبيين نهائياً».

ونقول له: كلا، إنها كانت استسلاماً متواصلاً، ونتحداه أن يذكر لنا معركة واحدة جرت بعد استسلام صلاح الدين وتسليمه البلاد للصليبيين. نعم نتحداه ونقول له: إن تلك السنوات كانت استسلاماً في استسلام وهواناً في هوان، وإن سهماً واحداً لم يرم، ورمحاً واحداً لم يشرع، وسيفاً واحداً لم يجرد في تلك المدة في وجه الصليبيين... نقول هذا في تحد صارم لا هوادة فيه.

وقد كنت أحسب أنه بقي للخجل مكان فيمتنع سليل الأيوبيين ـ إن صح أنه من سلالتهم ـ عن القول إن الجهاد المتواصل أكمله من جاؤوا بعد صلاح الدين حتى تسنى لهم طرد الصليبيين.

إن الذين جاؤوا بعد صلاح الدين من أسلافك قد واصلوا المهمة، ولكن لا مهمة الجهاد بل مهمة الاستسلام والذل، مهمة تسليم البلاد للصليبيين. ولن نعدد كل أفعالهم بل سنورد له أمرين إثنين فقط:

إن الذي فعله صلاح الدين هو أنه سلم فلسطين كلها للصليبيين ما عدا القدس، وأعاد إليهم ما كان قد أخذه منهم بعد معركة حطين كما بيناه في مقال سابق. ولم يبق في يده إلا بعض ما يعرف اليوم بالجمهورية اللبنانية ما عدا صور التي ظل الصليبيون متمسكين بها. أما الذين جاؤوا بعد صلاح الدين فقد تنازلوا للصليبيين حتى عن هذا الذي بقي بيد صلاح الدين من لبنان والسواحل السورية.

فالكامل والأشرف مثلاً سلما القدس للملك الصليبي فريدريك الثاني، وهل يعتبر هاشم الأيوبي تسليم القدس للصليبيين جهاداً متواصلاً؟

وقد مر تسليم خلفاء صلاح الدين القدس للصليبيين بالأدوار التالية:

١ ـ بعد تسليم الكامل والأشرف القدس للملك الصليبي فريدريك الثاني سنة ٦٥٥هـ (١٢٢٨م) ظلت في يد الصليبيين حتى استردها منهم الناصر صاحب الكرك سنة ٦٦٧هـ (١٢٣٩م).

٢ ـ استنجد الصالح إسماعيل الأيوبي صاحب دمشق بالصليبيين ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، وعلى الناصر داود صاحب الكرك (مسترد القدس). وأعاد إليهم لقاء ذلك القدس سنة ٦٤١هـ ـ ١٢٤٤م. كما سلّمهم صفد وعسقلان وطبرية وأعمال كل منهما، وجميع جبل عامل بما فيه قلاع هونين وتبنين والشقيف ومدينة صيدا

وسائر بلاد الساحل، وهكذا عادت القدس مرة ثانية إلى الصليبيين.

ووعد الصالح إسماعيل الصليبيين أيضاً بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها. فاستعد الصليبيون لمهاجمة مصر وزحفوا إلى غزة، في حين كوّن الصالح إسماعيل حلفاً من بعض الملوك الأيوبيين في شمال الشام وزحفوا جميعاً للانضمام إلى حلفائهم الفرنج عند غزة.

أما الصالح نجم الدين أيوب فقد تقدم من مصر إلى غزة لمواجهة هذا الهجوم. ولما تبيّن لعساكر الشام حقيقة الموقف تمردوا على قوادهم ومالوا على الفرنج مع الصالح أيوب فانهزم الفرنج وانسحبوا إلى عسقلان، وفاوضوا الصالح أيوب سنة ٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠م فاعترف لهم بحقهم في ملكية الشقيف ونهر الموجب (أرنون) وإقليم الجليل بالإضافة إلى القدس وبيت لحم ومجدل بابا وعسقلان.

وهكذا فلم يكن الصالح أيوب خيراً من الصالح اسماعيل.

وهنا تحالف الصالح إسماعيل مع الناصر داود واستنجدا من جديد بالصليبيين مقابل جعل سيطرتهم على القدس كاملة، بمعنى أن يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وهي الأماكن التي ظلت، ولو نظرياً، في حوزة المسلمين عندما سلم الكامل والأشرف القدس للصليبيين سنة ٦٢٥هـ ـ ١٢٢٨م.

وتقدم الصالح أيوب إلى الصليبيين طالباً مساعدتهم مقابل الثمن نفسه الذي عرضه منافساه. وبذلك يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة: الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود قد أقروا مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف ـ على حد تعبير بعض المؤرخين.

على أن الصليبيين اختاروا الوقوف إلى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأنه أقرب إليهم من صاحب مصر. وبالتالي فهو أكثر قدرة على التحكم في مصائرهم. فشرع الصالح إسماعيل في غزو مصر بمساعدة حليفيه الناصر داود صاحب الكرك والمنصور إبراهيم ملك حمص، مع الصليبيين. وتقرر أن تجتمع قوات الحلفاء جميعاً عند غزة.

فاستنجد الصالح أيوب بالخوارزمية(١٧) فأنجدوه بعشرة آلاف منهم ساروا من إقليم الجزيرة فمروا بدمشق، ثم استولوا على طبرية ونابلس ثم القدس سنة ٦٤٢هـ ـ ١٦٤٤م فعادت القدس نهائياً إلى المسلمين.

(١٧) هم من نزحوا عن بلادهم خوارزم، بعد غزو جنكيز فنزلوا العراق وحدود سوريا.

والعادل أعاد للصليبيين سنة ١٢٠٤م ما كان قد ورثه عن صلاح الدين من المواقع الساحلية، ما عدا الشقة المحصورة في اللاذقية.

هذا هو الجهاد المتواصل الذي أكمله من جاؤوا بعد صلاح الدين من ورثته.

يقول هاشم الأيوبي عن مقالنا: إنه لا يحمل أية قيمة تاريخية أو علمية. ونقول له ـ ولا فخر ـ إن كل العلم وكل التاريخ في هذا المقال. ذلك أنه استند إلى مصادر كبرى ووقائع معينة، حدد مكانها وزمانها، ما لم يستطع معه الأيوبي أن ينكر شيئاً منها، بل عمد إلى مثل هذه التهويشات التي يلجأ إليها العاجزون حين تفحمهم الحقائق الناصعة، فلا يرون غير الشتائم ملاذاً يعوذون به...

التهويشات التي لا تستطيع أن تجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً.

ومن أطرف الطرائف وأضحك المضحكات أن دليل الأيوبي على أن المقال لا يحمل قيمة علمية أو تاريخية، هو أني صرحت بأني عمدت إلى أول كتاب وقع عليه نظري فتناولته.

نعم: إن أول كتاب وقع عليه نظري كان كتاب **الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة** لابن شداد، وحسب المقال ليكون حاملاً للعلم والتاريخ أن يكون مستنداً إلى ابن شداد صاحب **الأعلاق الخطيرة**.

وقد عمدت الآن مرة ثانية إلى أول كتاب وقع عليه نظري فكان كتاب **الكامل** لابن الأثير فإذا بي أقرأ فيه ما يلي:

«كان المانع لصلاح الدين من غزو الفرنج الخوف من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه، فأتاه أمر اللّه الذي لا يرد».

ومع أن هذا الكلام واضح كل الوضوح، نحب أن نزيده لهاشم الأيوبي وضوحاً فنقول: كان وضع مصر وبلاد الشام يومذاك يشبه الوضع الذي كانت عليه مصر وسورية أيام قيام الوحدة بينهما باسم الجمهورية العربية المتحدة. فكما أن كيان العدو اليهودي كان الفاصل بين سورية ومصر المتحدتين كان الكيان الصليبي يفصل بين مصر وبلاد الشام المتحدتين، والفرق بين الحالين هو أن العاصمة أيام الصليبيين كانت دمشق، وأنها في أيام الصهاينة كانت القاهرة، فكان صلاح الدين معتبراً تابعاً لنور الدين ووالياً من ولاته. فقرر نور الدين استئصال الصليبيين بأن يحصرهم بين جبهتين: جبهة مصر، وجبهة بلاد الشام،

فيزحف هو من دمشق، ويزحف صلاح الدين من القاهرة فيضطر الصليبيون للقتال على جبهتين، لذلك أوعز إلى صلاح الدين أن يتقدم بالجيش المصري ليتقدم هو بالجيش الشامي، ولكن صلاح الدين رفض الامتثال لأوامر نور الدين، أي أنه أعلن إيقاف حال الحرب بين مصر والصليبيين (والتاريخ ـ كما يقال ـ يعيد نفسه دائماً).

وابن الأثير كان واضحاً في تبيان السبب الذي دعا صلاح الدين لإخراج مصر من الحرب مع الصليبيين، ذلك أن الاحتلال الصليبي لفلسطين كان يُعطي صلاح الدين انفصالاً كاملاً عن المملكة المتحدة، وتبقى تبعيته لها اسمية فقط، فإذا زال الكيان الصليبي من فلسطين تم الاتصال بين بلاد الشام (سورية وفلسطين ولبنان والأردن) وبين مصر وتصبح مملكة واحدة يكون لصلاح الدين المكان الثاني فيها بعد نور الدين، بل يصبح مجرد حاكم لمصر تابع فعلياً لا إسمياً لنور الدين، وهذا ما لا يرضي مطامع صلاح الدين الشخصية، لذلك آثر التمرد على نور الدين وإخراج مصر من الحرب المأمولة لاستئصال الصليبيين.

وغضب نور الدين لذلك، وصمم على التفرغ لصلاح الدين أولاً وتسليم حكم مصر لمن يعيد مصر إلى حال الحرب مع الصليبيين، ولما أعد عدته للزحف على مصر وإزاحة صلاح الدين فاجأه الموت[١٨].

وكما ساء هاشم الأيوبي مبادرتنا في المرة الأولى إلى أول كتاب وقع عليه نظرنا في خزانة الكتب فكان كتاب **الأعلاق الخطيرة**، فسيسوؤه ـ ولاشك ـ أن كان أول كتاب وقع عليه نظرنا هذه المرة هو كتاب **الكامل** لابن الأثير فيقول عن قولنا المعتمد على كتاب **الكامل** إنه قول لا يحمل قيمة علمية أو تاريخية.

ويوم يكون **الكامل** و **الأعلاق الخطيرة** لا قيمة علمية أو تاريخية لهما، فإننا يسرنا أن

(١٨) يصف ابن الأثير ذلك (ج ١١ ص ٣٧١ ط دار صادر ودار بيروت) بما يلي: في هذه السنة (٥٦٧هـ) جرت أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدين، ولم يظهر ذلك، وكان سببه أنّ صلاح الدين سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشوبك، وبينه وبين الكرك يوم، وحصره وضيّق على من فيه من الفرنج وأدام القتال، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيّام، فأجابهم إلى ذلك.

فلمّا سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال، أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبقَ بديار مصر مقامٌ مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت ها هنا، فلا بدّ من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشوبك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر... إلى أن قال: وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغيّر عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها... إلى آخر ما قال.

نكون في زمرة ابن الأثير وابن شداد، وأن تكون لنا القيمة العلمية والتاريخية التي لهما.

ونرجو أن لا يضطرنا هاشم الأيوبي لأن نخرج من خزانة الكتب أول كتاب يقع عليه نظرنا للمرة الثالثة فنريه ما هو أدهى وأمر.

وردّ مرة ثانية فأجبته بما يلي:

لقد كنا نحسب أننا نناقش بحثاً تاريخياً محضاً أدلينا فيه بأحاديث دونتها أمهات كتب التاريخ، وكنا نفترض أن نلقى من يناقش هذه الأحاديث فيدحضها أو يثبتها، فإذا بنا أمام بؤرة سفاهة تعجز عن رد الحجة بالحجة ولا تستطيع نقض ما أبرمنا وإنكار ما أوردنا فتلجأ إلى ما تفيض به من سفاهة.

أما الدركة التي انحدر إليها في حديثه عن الأفاعي الشعوبية، فإننا أرفع رؤوساً وأكرم نفوساً وأشمخ أنوفاً وأنصع صفحات وأروع وقفات من أن يصل إلى كعوب أحذيتنا مثله من حشرات.

أما تعريضاته الأخرى التي جمجمت بها كلماته وتلجلجت فلن تروعنا في شيء.

وأما ما لجأ إليه مما كان يلجأ إليه في ماضي الأزمان من التهويل على المعتقدات ولمزها والتخويف بها، فإننا نقول له إنه ينسى أن الزمن تبدل وإننا نعيش الآن في أواخر القرن العشرين ويقصر معه لسانه عما كانت تطول به ألسنة الغابرين من سيىء القول وفحش الوصف وفظيع الشر.

لقد حددنا الوقائع وعيّنّا زمانها ومكانها وكان يستطيع هذا الرجل أن ينهي الأمر كله بسطر واحد يقول فيه: إن ما تدعيه غير صحيح وإن صلاح الدين لم يسلم حيفا ويافا وقيسارية بل فلسطين كلها ما عدا القدس للصليبيين بعد أن استردها منهم.

ولكنه لم يستطع أن ينكر ذلك وراح يهوش ويشتم ويحرض ويثير الضغائن ويملأ أعمدة الجريدة بكلام فارغ.

لم يكتب السطر الذي ينهي الأمر ـ كما قلنا ـ وأنى له أن يكتب هذا السطر وصحف التاريخ أمامه تصفعه وتصفع أمثاله.

ثم عدنا نقول له كلاماً نقلناه بنصه من كتاب **الكامل** لابن الأثير وفيه يقول حرفياً بأن صلاح الدين كان يحتمي من نور الدين بالصليبيين.

وكان يكفيه هنا أيضاً أن يكتب سطراً واحداً، ولكن كيف يستطيع كتابة هذا السطر وصفحات التاريخ تنهال عليه صفعةً وراء صفعة.

لقد فرّ من كتابة هذا السطر ولجأ إلى عشرات السطور يتخبط بها ما شاء له التخبط ويحاول الوصول ولو إلى قشة يتمسك بها وهو يرى نفسه غريقاً في بحر الضلال فلم يستطع أن يصل حتى إلى هذه القشة.

لقد استرسل في هذيان لا يعنينا أن نلتفت إليه، ولكننا نريد أن ندل القارىء على ثلاثة أشياء نفرزها من ذلك الهذيان:

١ ـ لقد عدد هذا الرجل المدن والقرى التي دخلتها القوى الإسلامية بقيادة صلاح الدين.

لقد عددها كأننا ننكر ذلك، مع أننا قلناه ونقوله ونكرر الآن قوله.

ولكن هل كان هذا موضوع كلامنا، إن ما جرى من دخول تلك المدن هو نتيجة حتمية للنصر في معركة حطين وهو جزء من تلك المعركة. نحن لم نعرض له بشيء. ولكننا عرضنا لما جرى بعده وقلنا بملء الفم قولاً واضحاً صريحاً: إن أعمال صلاح الدين بعد هذا الذي جرى قد أبطلت نتائج كل ما جرى.

لم يخجل من أن يذكر فيما عدده من المدن والقرى أسماء حيفا وقيسارية والرملة، وهي من البلدان التي ذكرنا أن صلاح الدين أعادها للصليبيين.

٢ ـ يقول هذا الرجل ما نصه بالحرف: «كما يبدو وفاء صلاح الدين لنور الدين عميقاً بعد وفاة نور الدين».

ونقول له: إن هذا الوفاء تجلى كل التجلي في المعاملة التي عامل بها صلاح الدين ابن ولي نعمته نور الدين.

لقد كان هذا مقيماً في حلب وكان على صغر سنه محاطاً برعاية الحلبيين لاعتباره ملكهم المقبل ـ وفاء لنور الدين ـ فكان أول ما فعله صلاح الدين أن قصد إلى حلب ليقضي عليه. ونترك الكلام هنا لابن الأثير: «لما ملك صلاح الدين حماه سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح (ابن نور الدين) وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل الحلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب اللّه تعالى ولا الخلق، وقال من هذا كثيراً وبكى وأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده» إلى آخر ما قال ابن الأثير. وقد اعتقله بعد ذلك وعاد به إلى دمشق. ولزيادة التشفي بنور الدين وولده تزوج بزوجة نور الدين. ويقول صاحب كتاب **الروضتين** (م ٢ ص ٦٧٦): «ودخل

بها وبات عندها وخرج بعد يومين إلى مصر». وهكذا يكون التشفي.

يتزوجها ليبيت معها ليلتين فقط ثم يتركها ذاهباً إلى مصر... لقد شفت الليلتان غيظه من نور الدين...

هذا هو وفاء صلاح الدين لنور الدين: في حياته، يحتمي منه بالصليبيين وبعد موته يحاول القضاء على ولده ذي الاثنتي عشرة سنة، ويتزوج زوجته ليومين فقط.

ليس ما يحركنا إلى كتابة ما نكتب هو ما يريد هذا المخلوق أن يوهم القراء به استدراراً لعطفهم واستثارة للشرور، بل إن الذي يحركنا هو الحقيقة وحدها.

ردود أخرى

وتدخّل آخر فرد على ردي، فرددت عليه بما يلي:

إن تسمية رأي تاريخي برجل تاريخي تحاملاً هو التحامل الذي ما بعده تحامل.

إننا نطرح قضية تاريخية محضة وعلى من لا يرى رأينا أن يدحض هذا الرأي بالحجة لا بترديد ألفاظ التحامل وأمثال التحامل، مما هو سلاح العاجزين.

ولماذا يعتبر نقد صلاح الدين «من الأمور المألوفة في بعض الكتابات انطلاقاً من دوافع وخلفيات وغايات»، ولا يكون التحمس لطمس الحقائق التاريخية الواضحة التي تلتصق بشخص صلاح الدين من الأمور المألوفة في كل الكتابات لا في بعضها، انطلاقاً من دوافع وخلفيات وغايات؟ وإذا كان الصديق المتواري يدعو إلى الدقة والرصانة والعلمية والموضوعية في الأبحاث التاريخية، فإننا نقول له: لقد كنا فيما كتبناه في أعلى درجات الدقة والرصانة والعلمية والموضوعية لأننا لم نختلق شيئاً، ولأننا اعتمدنا على مؤرخين هم وحدهم المصدر الأساس لكل من يكتب في التاريخ وفيهم من هو ألصق الناس بصلاح الدين ومن عاشوا في نعمه وكانوا من موظفيه المنافحين عنه.

ويروغ الكاتب عن هذه الحقيقة ويدور ويلف ثم لا يستطيع إلا أن يعترف بها، ولكنه يحاول تخليف اعترافه بقوله عن بهاء الدين بن شداد: «سيرة صلاح الدين التي وضعها ابن شداد ابتداء من ١١٨٨م عام التحق ابن شداد بصلاح الدين كقاض للجيش الأيوبي. وقبل ذلك العام كان بهاء الدين ملازماً الموصل ولم يكن يستطيع الرواية إلا بطريقة غير مباشرة وغالباً ما أثبتت الدراسات المقارنة وقوعه في أخطاء التفصيلات الوثائقية والتسلسل الزمني»، إلى آخر ما قال من مثل هذا اللف والدوران. ونقول له:

إن الوقائع التي لم يستطع ابن شداد إلا أن يذكرها كانت وهو صفيّ لصلاح الدين،

وكذلك لا ينطبق عليها قولك: «وغالباً ما أثبتت الدراسات المقارنة وقوعه في اخطاء التفصيلات الوثائقية والتسلسل الزمني».

فهو عندما يقول مثلاً عن تسليم صلاح الدين مدينة حيفا للصليبيين: «لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم وذلك سنة ثمان وثمانين وخمسمائة».

وعندما يقول عن تسليمه مدينة (يافا): «وشرطوا (الصليبيون) عليه إبقاءها في أيديهم». عندما يقول ابن شداد هذه الأقوال الواضحة الصريحة الدالة على أن الموقف كان هواناً في هوان واستسلاماً في استسلام، وأن الصليبيين كانوا يشترطون وصلاح الدين يخضع لشروطهم. عندما يقول ذلك لم يقله وهو في الموصل، لم يقله وهو بعيد عن الأحداث، بل كان في صميمها، ولم يروه بطريقة غير مباشرة، بل بطريقة مباشرة، طريقة شاهد العيان. وليس في هذا القول وقوع في اخطاء التفصيلات الوثائقية والتسلسل الزمني.

وما شأن التفصيلات الوثائقية والتسلسل الزمني في تسليم حيفا ويافا للصليبيين والنزول على شروطهم؟ وأية تفصيلات وأية وثائق وأي تسلسل زمني في أمر تم في غاية البساطة والسهولة؟ وهو أمر باد ظاهر يراه كل الناس، ولا يستطيع ابن شداد تجاهله وتالياً لا تستطيع أنت إنكاره، ولكن يصعب عليك الاعتراف به فرحت تدور وتلف، ثم تدور وتلف ولكن بلا جدوى.

ويقول عني: إنني لا أبالي أن أقع فيما وقع فيه من قبل المؤرخ ابن الأثير في تحامله على صلاح الدين... إلى آخر ما قال من مثل اتهامه لابن الأثير بتبديله للوقائع وتحريفه للتواريخ وتغليبه للأهواء والغايات.

ثم يقول عني إنني أعلنت على رؤوس الأرماح انتسابي إلى زمرة ابن الأثير مهما تكن القيمة العلمية والتاريخية له.

أجل إنني لا أبالي بأن أقع فيما وقع فيه ابن الأثير، وإنه ليشرفني أن أنتسب إلى زمرة ابن الأثير، وإنني لعالم بقيمته العلمية والتاريخية.

وإذا كانت أقوال ابن الأثير لا توافق أهواءك، ولا تؤيد ما لديك «من دوافع وخلفيات وغايات» فإنك لن تستطيع أن تحطم الصخرة بكلمة جوفاء تنشرها على صفحات الجريدة، وقد جرّب ذلكَ قبلَكَ الوعلُ فأدمى قرنيه ولم يضر الصخرة.

وإنك تصر دائماً على كل أن من يخالف آراءك هو متحامل. فابن الأثير متحامل وابن شداد متحامل وحسن الأمين متحامل، وعلى هذا المنوال لن تستطيع إحصاء المتحاملين.

إنك تتهم ابن الأثير بالباطل، فابن الأثير يثني على صلاح الدين فيما يوجب الثناء، ولم يقل كلمة واحدة تمس صلاح الدين. ولكنه، وهو المؤرخ الثقة الأمين، لا يستطيع أن لا يذكر في كتابه رفض صلاح الدين أن يفتح جبهة قتال للصليبيين تبدأ من حدود مصر بينما يفتح نور الدين جبهة تبدأ من حدود بلاد الشام، ولا أن لا يسجل احتماء صلاح الدين من نور الدين بالصليبيين وتفضيله الاحتلال الصليبي على أن يكون تابعاً لنور الدين. وطبيعي أن لا يستطيع ذلك وهو مؤرخ العصر المفروض فيه تسجيل كل وقائعه، وضاقت بك الدنيا لهذه الحقائق المرة فلم تجد للخروج من مأزقك سوى الشتيمة وسوى سب ابن الأثير ثم سب ابن شداد.

وليس ابن الأثير وحده الذي ذكر ذلك، بل ذكره كل المؤرخين ومنهم صنيعة صلاح الدين وعميله (أبو شامة)، فهل هو الآخر له ضغنية على صلاح الدين ومتحامل عليه؟ ولن ننقل هنا أقواله لأنها لا تختلف كثيراً عن أقوال ابن الأثير، بل سننقل أقوال مؤرخ آخر هو ابن العديم. قال ابن العديم:

«سار الملك الناصر (صلاح الدين) من مصر غازياً فنازل حصن الشوبك وحصره، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فلما سمع نور الدين بذلك سار عن دمشق فدخل بلاد الإفرنج من الجهة الأخرى، فقيل للملك الناصر (صلاح الدين): إن دخل نور الدين من جانب وأنت من هذا الجانب ملك بلاد الإفرنج، فلا يبقى لك معه بديار مصر مقام، وإن جاء وأنت ها هنا فلا بد من الاجتماع به ويبقى هو المتحكم فيك بما يشاء، والمصلحة الرجوع إلى مصر فرحل عن الشوبك إلى مصر».

إذاً فقد بدت طلائع النصر وقرر صليبيو الشوبك التسليم، واقتحم نور الدين الحدود من الجهة الأخرى وانحصر الصليبيون بين الجبهتين.

وفجأة ينسحب صلاح الدين من المعركة ويعود إلى مصر، فيضطر نور الدين للانسحاب وتضييع الفرصة العظيمة، ولماذا؟ لأن صلاح الدين يرفض أن يحكم البلاد نور الدين ويفضل تركها بيد الصليبيين على أن يحكمها نور الدين وهو تابع له.

هذا بعض ما أنكرناه على صلاح الدين، ولم نكن نحب لك أن تقف مدافعاً عن هذا الموقف «انطلاقاً من دوافع وخلفيات وغايات»، وأن يصل بك الأمر إلى النيل من ابن الأثير لأنه لا ينطلق من الدوافع والخلفيات والغايات التي تنطلق منها أنت وأمثالك.

ويوم تحاول، عبثاً، تحطيم سمعة ابن الأثير فهل تظن أنه سيبقى حرمة للتاريخ الإسلامي؟

وها أنت ترى أن ليس ابن الأثير وحده هو الذي يروي ذلك، فهل كل هؤلاء المؤرخين مفترون مزوّرون، لأنهم لا ينطلقون مما تنطلق منه أنت وأمثالك؟

نقول نحن: قال ابن الأثير، فيرد علينا: قال هاملتون جب. لا يا صديقي العزيز، إن تاريخنا لا نأخذه من المستشرق الإنكليزي هاملتون جب، إننا نأخذه من ابن الأثير وابن العديم وأمثالهم ولن تبلغ بنا الضعة أن ندع للإنكليز أن يدونوا تاريخنا، ولن يكونوا هم مصدر هذا التاريخ. إننا نحن الذين نسجل تاريخنا، ولن يكون مصدرنا ما يكتبه هاملتون جب، بل ما هو مدون في **الكامل والأعلاق الخطيرة** وأمثالهما.

وإذا كنت اليوم تعتمد في التاريخ الإسلامي هاملتون جب، فقد اعتمدته قبل اليوم في العقائد الإسلامية، ولعلك لم تنس ذلك.

ونحن لم نُقوّل ابن الأثير ما لم يقله كما تزعم، بل نقلنا قوله بنصه، ولم نطرح احتمالات غامضة وملتبسة كما تدعي، بل طرحنا حقائق واضحة صريحة لا غموض فيها ولا التباس، ولا تستطيع أن (تغطي السماء بالقباء)، بإرسال جمل متكلفة لا محصل لها، فالقباء أضيق من أن يتسع لتغطية السماء. وما قلناه لم يكن اجتهاداً كما تقول، بل كان نصوصاً وأية نصوص، نصوصاً أنت أعجز من أن تقف لها، وقد بان عجزك.

وما شأن الظاهر بيبرس في موضوعنا لتحاول أن تتغطى به؟ أما قولك إن الواقع يكذب الاحتمال وإلّا لاستمرت ممالك الصليبيين حتى يومنا، فنرد عليه بأننا لم نحتمل احتمالاً بل قررنا واقعاً، والذين أزالوا ممالك الصليبيين ولم تبق بسببهم حتى اليوم ليسوا صلاح الدين وورثة صلاح الدين. ونحن لم نقل إن الحرب لم تقم بعد زوال صلاح الدين وورثته، بل قلنا وسنظل نقول: إن صلاح الدين أعاد للصليبيين ما استرده منهم، أعاد لهم فلسطين عدا القدس، وأدت تصرفاته الشخصية لأن يعيد القدس نفسها للصليبيين أولاد أخيه، وإنه هو نفسه عقد الصلح مع الصليبيين وأنهى معهم حالة الحرب وما يستتبع ذلك من اعتراف بوجودهم وسلطانهم وإنه بعد معركة حطين وبعد هذا الاستسلام لم يشرع صلاح الدين ولا ورثته رمحاً ولا جردوا سيفاً ولا أطلقوا سهماً على الصليبيين وإن الأمر عاد هواناً في هوان.

وإنك في كل ما درت به ولففت، وفي كل ما نمقته من عبارات وزخرفته من كلمات، ولوحت من تهويلات، لم تستطع أن تنفي حرفاً واحداً مما قررنا، وكل ما فعلته أنك سببت

ابن الأثير وألحقت به في السب ابن شداد صديق صلاح الدين، وصديق صديقك هو صديقك ـ كما يقولون ـ وهكذا حملك التخبط على أن تتناول بالسباب أصدقاءك وأعداءك على السواء.

ويؤسفنا أننا كنا السبب في إيصالك إلى هذه النتيجة المؤلمة المخزية.

إن الحرب لم تقم على الصليبيين بعد الاستسلام لهم وإضاعة ثمرات معركة حطين إلا بزوال صلاح الدين وورثته وانقراضهم، والتهويل بالألفاظ المنمقة والجمل المزخرفة مثل قولك: «لقد أصر السيد الأمين على رؤية حقائق صلاح الدين مقلوبة مثل عملية البصر المعكوسة وغير المتصلة بعصب تصحيح البصر فالتوحيد عنده تقسيم والانتصار استسلام»... إلى آخر ما قلت من مثل هذا الكلام الفارغ. إن التهويل بمثل هذه الجمل ونقل الأمر من علم التاريخ إلى علم البصريات لا يستطيعان أن يطمسا الحقائق.

نعم، لقد قسّم صلاح الدين الوطن بتوزيعه على الأخوة والأولاد وتحويله إلى دويلات متناحرة متقاتلة تستسلم في النهاية للأعداء وتسلمهم حتى القدس، والانتصار عاد استسلاماً بالخضوع لشروط الصليبيين وإعادة فلسطين إليهم.

هذا القول قاله كل مؤرخي ذاك الزمن، وكل ما عملناه نحن أن نقلنا أقوالهم بنصها، فإن كان لك من كلام فلتوجهه إلى أولئك المؤرخين لا إلينا. عليك أن تكذّب ابن الأثير وابن شداد وأبا شامة وابن العديم وأضرابهم، ولا شغل لك معنا ولا كلام لك ولا لغيرك لدينا. ولكن من العيب أن يكون جزاؤهم على تسجيل الحقائق سبّك لهم، وإننا لنعتذر لهم في قبورهم لأننا كنا سبب هذا السبّ، ومما سيدعوهم لقبول عذرنا أننا نالنا نصيب من هذا السب لأننا نقلنا حقائقهم للناس كافة، وفي سبيل حمل الحقيقة ونقلها يهون كل شيء.

أما حديثك عن دائرة المعارف فإنا كنا نحب لك حفاظاً عليك أن لا تذكره، إن دائرة المعارف ينطبق اسمها على مسماها تماماً، وهي تصحح اغلاط المستشرقين مما لم يصححه المترجمون المصريون. وأما قولك: يا حبذا لو يبدأ السيد حسن الأمين بتصحيح أغلاطه المتعمدة وغير المتعمدة، فهو قول نترفع عن الرد عليه. هذا هو سلاحكم حين تواجهون بالحقائق: السباب والشتائم.

أما ما ختمت به مقالك من قولك: «يخشى المرء في تحامل السيد حسن الأمين على صلاح الدين أن يكون الدافع إليه هو الغيظ من شيء ما، من حقيقة تاريخية لتلك الحقبة من الزمن المضيء ومؤداها أن شرف القدس أبى إلّا أن يتحرر على يدي صلاح الدين وأن

القضاء نهائياً على الصليبيين أبى أن يتحقق إلّا على أيدي خلفائه الصالحين». فنجيبك: إن شرف استرداد القدس قد محاه خزي عقد الصلح مع الصليبيين والتصرفات التي أدت إلى إعادتها للصليبيين. وإن خلفاء صلاح الدين، لم يكونوا صالحين لأنهم سلموا الصليبيين ما لم يسلمه لهم صلاح الدين، وإذا كان صلاح الدين قد سلم فلسطين كلها للصليبيين، فإن خلفاءه سلموا مع القدس ما كان قد بقي في أيديهم مما هو داخل اليوم فيما سمي بالجمهورية اللبنانية.

وإن القضاء نهائياً على الصليبيين لم يتحقق على أيدي خلفائه، بل تحقق على أيدي من جاؤوا بعدهم... على يد الظاهر بيبرس ويد قلاوون وابنه خليل.

على أيدي هؤلاء تم القضاء نهائياً على الصليبيين، وهم الذين غسلوا العار الذي جلل العرب والمسلمين بعقد الصلح مع الصليبيين والاعتراف بسلطتهم وتسليمهم فلسطين وإعادة القدس إليهم على يد الأيوبيين ابتداء من صلاح الدين وانتهاء بخلفائه الذين جاؤوا بعده.

خاتمة

صلاح الدين بين الكره والتبجيل

يقر الأب الدكتور لويس بوزيه الفرنسي في محاضرته التي ألقاها في شهر نيسان سنة ١٩٩٤ فيما أسموه «مؤتمر صلاح الدين الأيوبي» ـ يقر بأن المصادر الغربية ـ لا سيما الفرنسية منها ـ يختلف موقفها من صلاح الدين اختلافاً بيناً، فبعضها «يصطبغ بصبغة عدائية ويقف موقفاً سلبياً منه» كما يقر بان هذه المصادر «نشرت في الغرب، وفي وقت مبكر جداً أي بعد استرجاع القدس سنة ١١٨٧م».

كما يقر بأن «وجهة نظر هذه المصادر الأولى آتية من بيئات تأثرت عن قريب من الهزائم المتتالية التي هزم فيه الفرسان الصليبيين».

كما يقر بأنه «يمكن القول إن الروايات في صلاح الدين، كلما ابتعد زمنها من زمن الجيل الأول من المقاتلين ازدادت فيها النبرة الإيجابية حتى استولت العناصر الإيجابية والتبجيلية على السلبية منها».

ويقول: «علماً ـ وهذا هام ـ بأن نوعية التقريظ والإطراء تكيفت بذهنية المحيط الذي نشأت فيه وهو محيط فرنسي عرقاً ومسيحي ديناً».

ويقر بأن: «رأت هذه المصادر القديمة الفرنجية أن يكون صلاح الدين قد قُلّد بمراسيم الفروسية المسيحية» ويقر: «بأن اسم صلاح الدين في صيغته الفرنسية (Saladin) لا يزال يطلق حتى اليوم على أعضاء بعض الأسر النبيلة الفرنسية».

ويقول: «وكان لنا الحظ ونحن نُحرّر هذه المحاضرة أن نعثر على إعلان وفاة صدر في عدد من جريدة *Le Figaro* بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٣ يذكر فيه اسم المتوفى كالآتي:

Marie Bernard Ranulph Saladin, Marquise, Mantmarillan

ويقول راوياً عن تلك المصادر إن صلاح الدين كان يعجب بالطقوس الدينية المسيحية، وإن ما منعه من اعتناق الدين المسيحي ليس معتقدات هذا الدين بالذات إذ أظهر إعجابه به، بل التصرفات السيئة لبعض الذين يمارسونها، وأنه صرح أن الديانة المسيحية هي خير الديانات. وأنه كان له ميل شخصي إلى الديانة المسيحية وإن لم يعتنقها في النهاية.

ثم يقول عن بعض الروايات المسيحية «إن صلاح الدين ـ حسب هذه الروايات ـ كان ينحدر من أسرة نبيلة فرنسية من نبلاء شمالي فرنسا أسياد پونتيو Sires de Ponthieu وذلك من خلال شجرة نسب أسطورية نجد فيها أن جدة السلطان الأسيرة الجميلة (La Belle Captive) هي حفيدة الأمير دي پونتيو Ponthieu الذي أصبح نفسه بالتالي الجد الخامس لصلاح الدين. وعلى قول أحد هذه المصادر القديمة «كان صلاح الدين تركياً ولكن يجري في عروقه من جهة أمه وجدته الدم الفرنسي النبيل».

ويروي أحدهم أن السلطان صلاح الدين، يصحبه عمه الفرنسي الأصل جان دي پونتيو، يزور البلدان المسيحية بغية رؤية نبالة المسيحيين.

ثم يقول الأب الدكتور لويس بوزيه: نستخلص من كل ما سبق أن صلاح الدين كان قد أصبح في تصور هذه المصادر القديمة أحد هؤلاء الفرنج المثاليين يتحلّى بفضائلهم السامية وخصالهم التقليدية من كرم وشجاعة ... (انتهى ما نأخذه من محاضرة بوزيه).

ولا بد لنا قبل الدخول في موضوعنا الذي عقدنا له هذا الفصل ـ لا بد لنا من تبيان السبب الذي حمل الفرنسيين من بين كل الصليبيين على العناية وحدهم بصلاح الدين دون بقية المشاركين في هذه الحرب من الأوروبيين فنقول:

إن الطابع الفرنسي كان يغلب على الصليبيين في بلاد الشام في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكذلك يمكن القول بأن كبار الأمراء كانوا من أصول فرنسية، فضلاً عن الأسر الحاكمة في انطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا ويافا، تلك الأسر ذات الأصول والميول الفرنسية.

وهذا ما جعل المسلمين عندما يتحدثون عن الصليبيين يسمونهم بالإسم الفرنسي (الفرنج)، على الرغم من أن مجموعة الصليبيين كان فيها من كل الشعوب الأوروبية، وهذا بسبب غلبة العنصر الفرنجي (الفرنسي) على المجموعة الصليبية.

وعندما يتحدث المؤرخون العرب عن ملك فرنسا لويس التاسع، يسمونه ريد فرنس، وهي تعريب للعبارة الفرنسية (Roi de France) أي ملك فرنسا.

وعندما يتحدث أبو الفداء في تاريخه عن غزو لويس التاسع لمصر يقول ما نصه: «وفي هذه السنة سار ريد فرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج. وريد بلغتهم هو الملك، أي: ملك إفرنس».

الكلام الذي ذكره الأب الدكتور لويس بوزيه في محاضرته، والذي نقلنا بعضه فيما تقدم، والذي أوضح فيه أن حديث الكتاب الفرنسيين عن صلاح الدين كان ذا اتجاهين مختلفين متناقضين، الاتجاه الأول كان متّسماً بالعداء والبغضاء والاتجاه الثاني على العكس كان كله ثناء واطراء إلى حد أن الفرنسيين أطلقوا اسمه على أبنائهم، وأنه لا تزال بعض الأسر الفرنسية حتى اليوم تحمل اسم صلاح الدين في صيغته الفرنسية Saladin بل إن الأمر بلغ بالافرنسيين إلى القول إنّ صلاح الدين إذا كان لم يعتنق المسيحية فانه كان يراها خير الديانات. وإلى القول بأنه ينحدر من سلالة فرنسية. إلى غير ذلك من الأقوال التي مر ذكرها فيما تقدم من الكلام.

لماذا اختلف القولان الفرنسيان وتناقضا أشد التناقض؟ عندما نعود إلى زمن كل من القولين ندرك السر في هذا التناقض الشديد.

فكلام البغضاء كان منذ بدأ الصراع بين الصليبيين وصلاح الدين، كما ينص على ذلك الأب الدكتور بوزيه، وظل كذلك حتى انتهاء معركة حطين بانتصار صلاح الدين.

من الطبيعي أن يثير الصراع الدموي كوامن البغضاء، وأن تهيج الدماء المراقة الغضب والنقمة، وأن تكون اللهجة الفرنسية لهجة عدائية تجاه صلاح الدين.

فما الذي بدلها بعد معركة حطين، وما الذي حمل الفرنسيين على التدلّه بصلاح الدين بعد الكره الشديد، ما الذي أحال البغض حباً إلى حد أن رآه الفرنسيون واحداً منهم تجري في عروقه دماؤهم، ويتسلل أجداده من أرومتهم، ويكاد يعتنق دينهم، ثم إلى أن يتسمّوا باسمه تباهياً به، وإلى أن يظل هذا الاسم فيهم حتى اليوم.

للجواب على هذا السؤال لا بد من العودة إلى فترة تاريخية هي من أهم الفترات في تاريخ العرب والمسلمين، تعمّد مزيّفو التاريخ طمس ذكرها، والتعتيم على وقائعها، وسترها بضباب كثيف لا تكاد معه أن تبين.

إن السبب الأول في تحول الصليبيين وفي طليعتهم الفرنسيون من البغضاء إلى الحب، هو أن صلاح الدين نفسه كان قد تحول من المحارب لهم إلى المتحالف معهم، فأبغضوه عندما كان محارباً وأحبوه عندما عاد متحالفاً.

فصلاح الدين الذي انتصر عليهم في حطين واسترد منهم القدس وفلسطين هو نفسه

الذي أعاد إليهم فلسطين، ومهد لأن تعود إليهم القدس فعادت.

وهو الذي حال دون قيام الدولة العربية الكبرى معضودةً بالعالم الإسلامي التي يرى فيها رمز خلافته القوية.

فلا بدع إذاً أن يقول الدكتور الأب لويس بوزيه عن كارهي صلاح الدين من الفرنج بأن وجهة نظرهم آتية من بيئات تأثرت عن قريب من الهزائم المتتالية التي هزم فيها الفرسان الصليبيين. وأن يقول عن مادحي صلاح الدين من الفرنج: إن الروايات في صلاح الدين كلما ابتعد زمنها عن زمن الجيل الأول من المقاتلين ازدادت فيها النبرة الإيجابية حتى استولت العناصر الايجابية على السلبية منها. فما فعله صلاح الدين للصليبيين بعد زمن الجيل الأول من المقاتلين يستحق منهم كل تبجيل.

ألم يُحِلْ هزيمتهم إلى نصر؟ ألم يمزق أمة أعدائهم مزقاً متقاتلة؟ ألم يُقطِّع وطن مقاتليهم قطعاً متناحرة؟ وهل يستحق من يفعل ذلك الّا تبجيلهم؟!

أعلمتَ الآن لماذا يُبجّل الأوروبيون صلاح الدين، ولماذا لا يزالون حتى الآن يسمون أبناءهم باسمه ـ كما ذكر الأب الدكتور بوزيه في كلامه الذي نقلناه في مُفتتح الحديث؟

تقديم
٥

الدولة الفاطمية

الفاطميون في مواجهة البيزنطيين والصليبيين

المسؤولون عن الهزيمة

ردود ونقود

خاتمة
صلاح الدين بين الكره والتبجيل